أشهر الرحلات في غرب أفريقيا

اختارها وحررها

س . هوارد

ترجمة ودراسة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الجزء الأول

جوبسون ـ بوسمان ـ لوكاس

الشبيني المصري ـ بارك ـ هورنمان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

أشهر الرحلات في غرب أفريقيا

الألف كتاب الثانى

مقدمة الترجمة العربية

لم يعد بالمثقفين صمم ، ولا ضاعت منهم الرؤية ، عن أن القوى العالمية بدأت تهتم بالقارة الأفريقية اهتماما شبيها بالاهتمام الذى حظيت به فى أواخر القرن التاسع عشر ، مع اختلاف يسير فى الأهداف ، وطمعا فى مكاسب ــ ربما كانت أكثر وأخطر ، من تلك التى حصلت عليها القوى الاستعمارية فى أواخر القرن التاسع عشر ومعظم حقب القرن العشرين • ولا نرى النزاعات العرقية والقبلية التى يروح ضحيتها الملايين بلا رحمة أو هوادة الا بفعل فاعل يحرك الفتن بأصابعه فى الخفاء ، بل ان بعض الأفريقيين يعتقد أيضا أن الأوبئة التى لا علاج لها والتى تحصدهم حصدا هى أيضا بفعل فاعل ، وبات معروفا أن حركات التطرف الدينى التى تظهر هنا وهناك ، خاصة فى أفريقيا جنوب الصحراء ، لا يقصد بها الا اشعال الفتن بين أبناء الوطن الواحد ، ولسنا نرى عبثا آلاف الدراسات عن القبائل الأفريقية والأعراق الأفريقية التى تصدر فى الغرب ومحاولة الفصل بين الزنوجة والعروبة فى شرق أفريقيا ، وبعض مناطق غرب أفريقيا ، ومحاولات زج الدين فى العرق ، وزج العرق فى الدين ، تمهيدا لصراعات دامية لا يجنى ثمارها الا من أوعز بها ، وهيأ أسبابها •

واذا كان هدف القوى الاستعمارية من الاهتمام بأفريقيا كشف ودراسة وتبشيرا منذ أواخر القرن التاسع عشر خاصة ، هو استثمار موارد القارة ، وتأمين الطرق البحرية للهند وغير الهند ، **فهل المقصود هذه المرة هو تفريغ القارة من سكانها ، تحسبا لزيادة سكانية فى دول القوى الاستعمارية البيضاء ، تجد لها متسعا فى القارة الأفريقية الثرية (١)** ، لتحل محل شعوب وقبائل سوداء بدأت تظهر الدراسات ذات الغطاء الأكاديمى ، لتثبت أنها (أى العناصر السوداء) لا تستحق المعونة وأنها خلقت لتشغل أدنى مراتب السلم الاجتماعى • ان الاهتمام بالدراسات السكانية فى أوربا والولايات المتحدة أضحى متزايدا فى الفترة الأخيرة •

لم نجد أفضل من تقديم نصوص من رحلات الرحالة الأوربيين منذ بدأت حركة الكشوف الجغرافية لتتبع نظرة أوربا لهذه القارة ، ليستشرف

القارىء ما يمكن أن تكون عليه فى القرن الواحد والعشرين ، اذا لم يتنبه أهلها · وسنبدأ من البداية ·

* * *

لقد تأخرت معرفة الأوربيين بالقارة الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى ـ طبيعة وسكانا ـ لأسباب كثيرة ، فسواحل أفريقيا قصيرة بالنسبة لكتلتها القارية ، فهى تبدو ككتلة مصمتة سميكة · نتيجة قلة تعاريجها ، خاصة فى غربها ، ونتج عن هذا قلة موانئها ، والموانىء ـ كما هو معروف ـ مطلات تطل على الخارج ، كما أنها مركز استقبال للتأثيرات الحضارية والوافدين ، كما أن الجزر القريبة من سواحل أفريقيا قليلة اذا قيست بالجزر القريبة من سواحل القارات الأخرى ، وأنهار القارة تعترضها الجنادل والشلالات ، مما عاق استخدامها كوسيلة مواصلات للمناطق الداخلية ، كما أن مناخ القارة فى الصحراء الكبرى والى الجنوب منها ، لم يكن يشكل منطقة جاذبة للعناصر البيضاء خاصة أن أوربا لم تكن قد ضاقت بسكانها بعد ، كما أن وسائل تكييف الهواء وتبريده لم تكن قد اكتشفت بعد ، لكل هذه الأسباب تأخر الأوربيون فى كشف القارة الأفريقية جنوب الصحراء ، بما فى ذلك غرب أفريقيا رغم قربه الشديد من أوربا (٢) ·

* * *

لكن هذه الأسباب جميعا لم تكن عائقا أمام العرب فى كشف القارة الأفريقية خاصة من الناحية البشرية ، ومن ناحية الالمام بثرواتها وكنوزها الطبيعية ، والسبب الجوهرى فى ذلك بسيط وواضح ، وهو أن العرب ـ فى غالبهم ـ أفريقيون · فالعرب ليسو عنصرا وافدا على أفريقيا ، فالمصريون القدماء الذين اختلطوا على نحو أو آخر ـ بعد ذلك ـ بالبدو الهكسوس والفرس الغازين ، والاغريق والرومان ـ ظلوا محتفظين بخصائصهم رغم هذا ، ورأى الرحالة رتشارد بيرتون الذى زار مصر سنة ١٨٥٣ فيهم عربا « تحجروا » أى ساعد عدم اختلاطهم على الاحتفاظ بعنصرهم (٣) ·

والأمير النمساوى ردولف (صاحب السمو الملكى والامبراطورى) الذى زار مصر فى أواخر عهد الخديو اسماعيل ، وجد فى القبط الجنس نفسه الذى رآه فى سائر المصريين · ذاكرا أنهم من عرق واحد ، ورأى الشىء نفسه الرحالة الانجليزى جوزيف بتس (الحاج يوسف) (٤)،

الذى زار مصر فى القرن السابع عشر ، ولم يختلف عن كل هؤلاء الرحالة الأشهر فارتيما (الحاج يونس) فى القرن السادس عشر (٥) • وقد عرف هؤلاء المصريون ساحل البحر الأحمر ووصلوا حتى الصومال فى التاريخ القديم ، وشاركوا مشاركة فعالة فى كشف منابع النيل أثناء حركة الكشف الكبرى فى التاريخ الحديث ، كما سيتضح فى سياق هذه الدراسة •

ولم تعق الصحراء الكبرى أهل الشمال الأفريقى عن التوغل فى غرب أفريقيا توغلا هينا وئيدا (٦) بالتزاوج والدعوة والحوار والتجارة •

لقد كانت كل معارف العرب عن قارتهم أفريقيا — وهى معلومات ثرة وافرة — موضوعة أمام الأوربيين عند قيامهم بحركتهم الكشفية الكبرى فى التاريخ الحديث التى أعقبتها وزامنتها — كما هو معروف — حركتهم الاستعمارية الكبرى •

ومن كتابات الرحالة العرب الذين زاروا غرب أفريقيا وكانت كتاباتهم موضوعة بين أيدى الأوربيين عند قيامهم بحركتهم الكشفية كتابات المؤرخ والرحالة العربى الفزارى الذى زار غرب أفريقيا فى القرن الثامن الميلادى وأشار الى أرض الذهب أو بلاد غانا ، مما لفت أنظار أوربا الى الثروة المعدنية فى هذا الاقليم • والجدير بالتنويه أن غانا المقصودة هنا ليست القطر الساحلى المعروف الآن ، انما كانت تقع الى الداخل جنوب الصحراء الكبرى (٧) •

وكتابات ابن حوقل ، وهو أبو القاسم محمد الذى زار السودان الغربى (غرب أفريقيا) ورأى النيجر ، ووصف المدن والقرى ، وتحدث عن الثروة المعدنية ، وقد أخطأ فظن نهر النيجر أحد فروع نهر النيل • وقام ابن حوقل برحلته فى القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) ، اذ خرج من بغداد سنة ٩٤٢ م •

كما استفادوا من كتابات أبى عبيد الله البكرى ، الذى توفى سنة ١٠٩٤ ، وكان من عائلة عربية تعيش فى الأندلس وقد وصف فى كتبه بلاد المغرب العربى وبعض بلاد غرب أفريقيا (السودان الغربى) وألف كتابيه المشهورين : « المسالك والممالك » ، و « تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان » •

وكتابات محمد بن عبدان الادريسى الذى ولد سنة ١١٠٠ فى مدينة سبتة ، وكانت أسرته قد هاجرت من الأندلس ، وألف كتابه « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » (ليدن ، ١٨٩٦) •

وكتابات ابن بطوطة الذى قام بثلاث رحلات مهمة فى القرن الرابع عشر (١٣٢٥ - ١٣٥٤) أولاها الى مصر والشام وثانيتها الى شرق أفريقيا، وثالثتها - وهى المتصلة بموضوع كتابنا هذا - الى غرب أفريقيا وقد وصل الى تمبكتو على منحنى النيجر ، ووصف نهر النيجر عند المنطقة التى يتجه فيها شرقا •

وكتابات الحسن بن الوزان المعروف فى أوربا باسم ليو الأفريقى Leo Africanus الذى زار شمال أفريقيا ، ويدأ رحلة للسودان الغربى (غرب أفريقيا) سنة ١٥١٠ موفدا الى دولة صنغى من حاكم فاس ، وزار تمبكتو ووصفها وصفا دقيقا ، وأبحر فى نهر النيجر وزار مالى وبلاد الحوصة (الهوسا) وبورنو ، وفى سنة ١٥١٨ أسره القراصنة الأوربيون وقدموه للبابا ليو العاشر ، فأطلق عليه اسمه وشجعه على البحث والتأليف وتم نشر رحلاته الأفريقية بالايطالية سنة ١٥٥٠ وترجمت الى الانجليزية سنة ١٦٠٠ تحت عنوان تاريخ أفريقيا ووصفها History & description of Africa ، ونشرت جامعة الامام محمد بن سعود بالسعودية هذه الرحلة كاملة فى طبعة محققة فخمة •

* * *

والأهم من كل هذا أن الرحالة العرب فى التاريخ الحديث شاركوا مشاركة فعلية ، فى حركة الكشف الأوربى الحديث لأفريقيا بأشخاصهم وليس بمجرد الكتابة ، لقد وضع عدد منهم خبرته العلمية أمام الأوربيين ، ولم يحظ هذا الموضوع بالدراسة الكافية ، وفيما يلى اشارات موجزة لبعض هذه الجهود التى نعرف جانبا منها للمرة الأولى فيما أعلم :

الشبينى المصرى يمهد لكشف النيجر :

لقد كادت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية تفقد الأمل فى الكشف المنظم لغرب أفريقيا ، بعد فشل الرحالة لوكاس (١٧٨٩) فى الوصول لنهر النيجر عن طريق عبور الصحراء الليبية ، لكن وصل الى علم الجمعية تقرير من عربى اسمه الشبينى عن امبراطورية على ضفاف النيجر ، وقد استرعت هذه المعلومات اهتمام أعضاء الجمعية ، لأن الشبينى ذكر أن « سكان الحوصة » (الهوسا) - عاصمة هذه الامبراطورية - لا يقلون عن سكان لندن والقاهرة » • ووصف الشبينى « بأسلوبه الفج غير الأدبى » على حد تعبير محاضر الجمعية حكومة هذه الامبراطورية بأنها ملكية لكنه لم يحدد أى نوع من الملكيات هى ، ووصف طريقة تنفيذ

العدالة عندهم بالصرامة والقسوة وان كانت تسير وفقا لشرائع مكتوبة ٠٠ وقد عبر الشبيني عن احترامه الفائق لأمانة تجارهم واستقامتهم ، ولكنه لاحظ من وجهة نظره أن شرف الرجال في هذه الأنحاء غير مصون – على حد تعبيره – وعبر عن سخطه على نسائهم ٠٠٠ الى آخر ما ذكره الشبيني وأثبتته عنه محاضر الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ٠ ونتيجة تقارير الشبيني عاودت الجمعية اهتمامها فأرسلت الماجور هوجتون Houghton في بعثة كشفية لغرب أفريقيا ، وغادر انجلترا بالفعل فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٠ لهدف محدد وواضح ، وهو التأكد مما ذكره الشبيني فى تقاريره والتأكد من مجرى نهر النيجر ، ثم كانت بعد ذلك رحلات منجو بارك الشهيرة ٠

ونعرف من محاضر الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ان الشبيني هذا قد أقام في بلاد الحوصة (الهوسا) حوالى عامين ، وأنه عمل بالتجارة ، ونلاحظ أن الشبيني عندما وصف مدن هذه الأنحاء ، قال انها لا تقل عمرانا وازدحاما بالسكان عن المدن والقرى فيما بين القاهرة والاسكندرية ٠ من الواضح اذن أن الرجل مصرى ٠ ترى من أى شبين أنت يا هذا الشبيني ! أمن شبين الكوم بمديرية المنوفية ، أم شبين القناطر بمديرية القليوبية ؟ أم من شبين أخرى في مصر التى نسيك باحثوها ، بينما لم ينس الانجليز هوجتون ولا بارك مع أنك – بتقاريرك – أساس رحلتيهما ٠ انها دعوة اذن للباحثين فى الدراسات الأفريقية لتقليب أوراق وأضابير الجمعية الجغرافية البريطانية ، فى الفترة من ١٧٨٨ الى ١٧٩٠ لجمع تقارير الشبيني المصرى وكتاباته ، لاعادة الحق التاريخي على الأقل لمصرى مغترب (٨) ، وهى دعوة للجهات المسئولة فى حكومتنا ، للمطالبة بحق مصر من المكاسب التي عادت على انجلترا من جراء تقارير الشبيني الذى أهمله التاريخ ، خاصة وعصرنا يشهد مرحلة من مراحل تصفيات الحسابات التاريخية ٠

واذا كان هذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء العربى ، ينبهنا لأول مرة الى جهود الشبيني المصرى فى كشف غرب أفريقيا ، فان باحثين آخرين نبهونا لجهود مصريين آخرين فى كشف مناطق أفريقية أخرى ، وهو ما نشير اليه بايجاز في السطور التالية :

بحيرة ابراهيم لا بحيرة كيوجو :

أوفد الخديو اسماعيل أحد الضباط العاملين فى الجيش المصرى وهو شايى بك لونج لاقناع مملكة أوغندة بالدخول تحت الحماية المصرية

فقبل ملكها ذلك سنة ١٨٧٤ ، وفى العام نفسه اكتشف هذا الضابط بحيرة كيوجو فأسماها بحيرة ابراهيم نسبة لوالد الخديو اسماعيل ، وكانت الرحلة بتمويل مصرى ، ولتحقيق أهداف مصرية ، وأطلق شايى بك اسم ابراهيم على البحيرة بناء على رغبة الخديو اسماعيل .

لقد اشتركت مصر اذن ــ بشكل واضح ــ فى كشف منابع النيل الدائمة أو الاستوائية . ومع ذلك ، فقد تم اغفال الاسم الصحيح لبحيرة ابراهيم وظلت البحيرة معروفة باسمها المحلى، ولم تكتب (بحيرة ابراهيم) على الخرائط الأوربية الا لفترة محدودة ، بينما ظلت أسماء البحيرات الأخرى مقترنة بأسماء ملوك الدول التى اكتشفها مواطنوها : بحيرة ادوارد وبحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا (٩) .

رحلات سليم قبطان ١٨٣٩ ــ ١٩٤٢ :

بعد امتداد الادارة المصرية للسودان سنة ١٨٢١ ، أرسل محمد على البكباشى سليم قبطان للكشف عن منابع النيل ، فقام بحملات ثلاث فى الفترة من ١٨٣٩ الى ١٩٤٢ ، ووصل الى خط عرض ٤٢ ′و٤° شمال خط الاستواء .

* * *

واذا كانت هذه الرحلات التى نقدمها مصدر متعة وفائدة للقارىء العام والقارىء المثقف ، فهى مصدر أصيل للدراسات التاريخية والأنثروبولوجية ، ومن هنا وجدت من الأهمية بمكان تقديمها فى سياقها التاريخى ، بمعنى معرفة الظروف التاريخية وطبيعة المرحلة التى تمت فيها كل رحلة ، وهذا هو بعينه ما نحا اليه محرر هذه الرحلات ، فقد خصص قسما لرواد الكشف الحديث فى الفترة من ١٦٠٠ الى ١٧٨٨ وتناول فيه رحلات الانجليزى رتشارد جوبسون والهولندى وليم بوسمان، وكان غريبا ألا يشير للجهود البرتغالية بما فيه الكفاية وتداركنا فى مقدمتنا هذه هذا القصور . أما القسم الثانى فخصصه للرحلات الأوروبية ، لحل مشكلة نهر النيجر فى الفترة من ١٧٨٨ الى ١٨٢٠ وتناول فيه خطة الجمعية الجغرافية البريطانية وما تلقته من تقارير خاصة تقارير الشبينى المصرى الذى أشرت اليه آنفا ، ورحلات السيد لوكاس والماجور هوجتون ، ورحلات الرحالة الشهير منجو بارك ، وأخيرا رحلة فردريك هورنمان التى لم تكتمل . أما القسم الثالث فجعله للكشف الحقيقى والنهائى لنهر النيجر ، وتناول فيه رحلات دنهام Denham وكلابرتون

ورتشارد لاندر ورينيه كالى Caillé . وفى القسم الرابع تناول الرحلات التى ركزت على الجوانب البشرية فى غرب أفريقيا فقدم لنا رحلات لارد Laird والرحالة الأشهر رتشارد بيرتون وهنرى بارث وغيرهم. أما القسم الخامس فقدم فيه الرحلات فى العصر الذى عرف باسم عصر التكالب على أفريقيا ، وهو الذى يمتد من ١٨٨٠ الى ١٩١٤ ، وقدم لنا فى هذا القسم (١٠) جانبا من نصوص رحلات الرحالة الشهيرة مارى كنجسلى Mary Kingsly .

الكتاب اذن فى حوالى ستمائة صفحة عامرة بنصوص الرحلات والتعليقات ومن هنا ، كان لابد من تقسيمه الى أجزاء عند تقديمه للقارىء العربى ، فاكتفينا فى هذا الجزء بتقديم ترجمة القسمين الأولين وهما عصر الرواد ١٦٠٠ ـ ١٧٨٨ ، ورحلات الكشف التمهيدى لنهر النيجر ١٧٨٨ ـ ١٨٢٠ .

وسنعرض فيما يلى لمحات تبين الظروف التاريخية لهاتين المرحلتين على نحو خاص ، مما يساعد على فهم النصوص المقدمة .

غرب أفريقيا والمرحلة البرتغالية :

وسيندهش القارىء الملم بالتاريخ الأفريقى ، لأنه لا يجد فى هذا الكتاب فصلا أو فصولا عن الرحالة البرتغاليين ، خاصة فى الفترة التى أسماها المحرر مرحلة الرواد ١٦٠٠ ـ ١٧٨٨ ، وتزداد الدهشة لان هذا الكتاب الذى بين أيدينا جعل الحصر والشمول هدفا له الى حد كبير .

وتفسير ذلك أن الكتاب الذى بين أيدينا يقدم الرحالة الذين كتبوا رحلاتهم ونشروها ، ولم تكن كتابة الرحلات ونشرها عن الأماكن المكتشفة حديثا تلقى تشجيعا من السلطات البرتغالية ، خاصة ما يتعلق بالتجارة وطرقها ومواقع البلدان والخرائط التى تبين ذلك ، فقد كانت كل هذه الأمور سرا من أسرار الدولة يعاقب من يفشيها (١١) .

لكن عدم نشر رحلات أو تقارير للبرتغاليين فى هذه الفترة الباكرة ، لا ينفى أن البرتغاليين هم أول المستعمرين لغرب أفريقيا ، فانهم بعد أن احتلوا قلعة سبتة على الساحل المغربى سنة ١٤١٥ ، فكانوا بذلك أول من خطا الخطوة الأولى فى طريق استعمار القارة الأفريقية فى تاريخها الحديث ، تتابعت حملاتهم على جزر ونقاط ساحلية فى غرب القارة كالتالى :

ـ ١٤١٨ كشف جزيرة الماديرا (١٢)

ـ ١٤٢٤ احتلال جزر كنارى

ـ ١٤٣٠ احتلال جزر ماديرا

ـ ١٤٣٦ اكتشاف ريو دو ريو •

ـ ١٤٣٩ احتلال جزر آزورو

ـ ١٤٤١ الوصول للراس الأبيض

ـ ١٤٤٢ ـ ١٤٦١ الوصول لمصب السنغال ، ثم الرأس الأخضر وسواحل ما عرف فيما بعد باسم سيراليون (١٣) •

وصـل البرتغاليون الى سـواحل ما يعرف اليوم باسم غانا سنة ١٤٧١ (١٤) •

ـ ١٤٨٤ مر ديجو كام Diego Cem على كل الساحل الغربى حتى وصل الى مصب نهر الكنغو ، بل وأبحر فيه •

ـ ١٤٨٦ تجاوز بارثلومو دياز سواحل غرب أفريقيـا ووصل للطرف الجنوبى للقارة بل وتجاوزه تجاه الشرق •

وهذا السبق البرتغالى أمر طبيعى ، لأنها تخلصت من الحكم العربى قبل أسبانيا ، ولقربها من السواحل الأفريقية ، وللروح الصليبية التى سادتها والتى جعلت قادتها يعملون على الوصول لبرستر جون ،أو الملك الشرقى الذى سيطوق المسلمين معهم ، بالاضافة لوازع اقتصادى مهم تمثل فى الرغبة فى الوصول الى مناجم الذهب فى غرب أفريقيا ، والتجارة فى الانسان الأفريقى (تجارة الرقيق) •

واذا كانت هذه الأسباب آنفة الذكر هى التى تفسر سبق البرتغاليين الى غرب أفريقيا ، فان هذه الأسباب نفسها هى التى منعت البرتغاليين من التغلغل الحقيقى فى البر الأفريقى الغربى ، فالهدف التجارى يمكن تحقيقه من خلال التمركز فى الجزر المواجهة للساحل ، ومن خلال انشاء بعض الحصون على الساحل نفسه •

ورغم أن الوجود العسكرى البرتغالى كان رمزيا فى غرب أفريقيا ومقتصرا على الجزر وبعض البقاع الساحلية ، وكان متحصننا فى قلاع كمـا سبق أن ألمعنا ، الا أن هذا لا يمنع من القول ان البرتغاليين قدموا

للمنطقة ومعهم أول التأثيرات الأوربية فى التاريخ الحديث ، فقد عرف أهل البلاد أول اتصال لهم بالتعليم على النسق الغربى ، ولكن بشكل سطحى وغير عميق ، وذلك من خلال القلاع التى أنشأها البرتغاليون لخدمة تجارة الرقيق خاصة ، اذ كانت هذه القلاع تضم فى كثير من الأحيان مدارس ابتدائية لخدمة أبناء التجار والموظفين الأوربيين وبعض التلاميذ الأفريقيين ، وكانت أول مدرسة من نوع مدارس القلاع Castle Schools قد تم انشاؤها على يد البرتغاليين فى الميناElmina (فى غانا الحالية) سنة ١٤٨٢ • وهذا لا يعنى أن القلعة كانت منشأة تعليمية وانما الواقع أنها كانت منشأة تجارية فى المقام الأول ثم يأتى النشاط التعليمى كنشاط جانبى ، وكان عدد الأفريقيين فى هذه المدارس قليلا ، وكان لخدمة سياسة بعيدة المدى وكان ذا طابع تبشيرى (١٦) •

وقد أنشأ البرتغاليون قلاعا ومراكز أخرى بعد انشائهم شركة غينيا البرتغالية Ghinea Company فى أكسيم Axim وشاما Shama وكريستيانبورج Christianborg ، لكن هذه المراكز لم تشهد محاولات تعليمية (١٧) •

الأسبان فى غرب أفريقيا :

رغم أن أسبانيا قد انشغلت عن القارة الأفريقية بالجهات المكتشفة فى العالم الجديد ، بعد نجاح الملاح الايطالى الذى كان يعمل لحساب ملكى أسبانيا (فرديناند وايزابيلا) فى الوصول للعالم الجديد ، الا أن هذا لم يمنع أسبانيا من أن يكون لها وجود على نحو ما فى غرب أفريقيا منذ وقت باكر نسبيا • ففى سنة ١٤٧٦ استولت على جزر كناريا ، وفى ١٧٧٨ استولت على جزيرة فرناندو بو Fernando po من البرتغال ، وفى ١٧٨٨ احتلت المنطقة التى عرفت بغينيا الاستوائية وكان الهدف من هذه المستعمرات الصغيرة هو الحصول على الرقيق لتعمير مستعمراتها فى العالم الجديد ، نظرا لقلة الأيدى العاملة من أهل البلاد فى جزر الهند الغربية والمكسيك وبيرو (١٨) •

هولندا فى غرب أفريقيا :

فى سنة ١٦٠٢ تم تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية ، وكان يقوم بادارتها مجلس مقره أمستردام وتشرف عليه الحكومة الهولندية •• فأسس الهولنديون عدة حصون لهم فى ساحل الذهب وبرز نشاطهم فى تجارة الرقيق بين غرب أفريقيا وأمريكا ، كما تم تأسيس شركة الهند

الغربية الهولندية التى منحتها الحكومة الهولندية سلطة واسعة فى غرب أفريقيا ، وكان لها ممثل له سلطة الحاكم العام فى الميناء Elmina ، ولكن بعد الغاء تجارة الرقيق بدأت التجارة الهولندية بين غرب أفريقيا وأمريكا تضعف ، فسلمت هولندا حصونها لبريطانيا مقابل بعض الحقوق فى سومطرة (١٩) ٠

وفى الربع الأول من القرن السابع عشر – اذن – بدأت القلاع الهولندية تنافس القلاع البرتغالية فى غرب أفريقيا ، وقد استولى الهولنديون سنة ١٦٣٧ – على سبيل المثال – على قلعة الميناء من البرتغاليين(٢٠) ، وتوضح كتابات وليم بوسمان جانبا من هذا الصراع ، كما تقدم لنا وصفا لهذه القلاع لا يخلو من طرافة ، فوليم بوسمان الهولندى كان يرسل خطابات تفصيلية لواحد من أصدقائه فى هولندا يذكر فيها كل ما تتيحه له الظروف من معلومات عن منطقة ساحل غينيا ، وقد عمل بوسمان لأربعة عشر عاما فى خدمة شركة الهند الغربية الهولندية (٢١) ، وهذا يؤكد الفكرة التى تتحلق حولها هذه الدراسة وهى أن المكتشف والرحالة والمبشر والتاجر أو الشركة التجارية هم جميعا الممهد للاستعمار بشكله المباشر ٠

ألمانيا فى غرب أفريقيا :

لم تشارك ألمانيا حتى سنة ١٨٨٤ فى استعمار القارة الأفريقية ، رغم أن معظم الدول الأوربية الأخرى دخلت قبل هذا التاريخ فى مرحلة صراع محموم على القارة الأفريقية ، فيما عرف بمرحلة التكالب على أفريقيا Scramble for Africa ، لكن ألمانيا التى بدت نائية بنفسها عن دخول حلبة الصراع الاستعمارى على القارة قبل ١٨٨٤ ، بدت بعد هذا التاريخ تسابق الزمن للاستحواذ على ما يمكن الاستحواذ عليه ، مما أسفر عن حصولها على توجو والكمرون فى غرب أفريقيا وهما المنطقتان اللتان تهماننا فى هذا السياق ، بالاضافة لمنطقة جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا فيما بعد) وشرق أفريقيا الألمانية (تنزانيا فيما بعد) ٠ لكن ليس معنى أن ألمانيا لم يكن لها وجود سياسى وعسكرى فى أفريقيا قبل سنة ١٨٨٤ أن الألمان لم يكن لهم صلات من نوع آخر قبل هذا التاريخ ، فقد اتخذ المبشرون والمغامرون والمستكشفون والتجار الألمان سبيلهم الى غرب أفريقيا وغيرها منذ القرن السابع عشر وكانت سفن الألمان المحملة بالذهب والرقيق مألوفة للعيون المراقبة فى السواحل الأفريقية الغربية ٠ وعلى أية حال ، ففى سنة ١٨٨٤ استطاعت ألمانيا أن تكون لها فى أفريقيا مستعمرات

فعلية ممثلة فى الكمرون وتوجو وجنوب غرب أفريقيا ، وفى سنة ١٨٨٥ بدا وجودها فى شرق أفريقيا ٠

المرحلة البريطانية :

لقد تعايشت القوى الأوربية معا فى ساحل غرب أفريقيا ، وليس معنى قولنا « المرحلة البرتغالية » و « المرحلة الهولندية » أن القوتين (البرتغال وهولندا) لم توجدا معا فى وقت من الأوقات ، وانما نعنى أن الغلبة فى البداية كانت للوجود البرتغالى ، ثم تخلى البرتغاليون عن مواقعهم للهولنديين مختارين أو مجبرين ٠

وفى ٢٥ فبراير ١٨٧١ وقع صاحب الجلالة ملك الأراضى المنخفضة (هولندا) معاهدة ، مع صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلندا ، يتنازل بمقتضاها الأول للملكة عن كل حقوق السيادة والقضاء فى ممتلكاته التى يملكها فى ساحل غينيا (٢٢) ٠

وبالاضافة للبرتغاليين والهولنديين ، فقد شهدت المنطقة أيضا وجودا دنمركيا ، ففى النصف الثانى من القرن السابع عشر تمركز الدنمركيون الى الشرق من آكرا (غانا الحالية) وأسسوا قلعة فى كرستيانبورج Christianborg ، وقد عملوا على انشاء مدرسة للمولدين واستطاع بعض أهل البلاد ممن تعلموا فى مدرسة كرستيانبورج أن يستكملوا تعليمهم فى أوروبا ومن هؤلاء بروتون Protton ، الذى ذهب الى أوروبا وقابل قادة الكنيسة المورافية Moravian Church (٢٣) الذين قاموا بدور فى التبشير البروتستنتى فى ساحل غرب أفريقيا ٠ غير أنه فى سنة ١٧٧١ لاقى هؤلاء المبشرون الدنمركيون متاعب جمة وانتهى عملهم فى هذه المنطقة تماما (٢٤) ٠

وعلى أية حال ، فقد آلت كل الحصون والقلاع فى النهاية لبريطانيا العظمى ، وأصبح كل ساحل غرب أفريقيا بحلول سنة ١٨٧٢ فى أيدى البريطانيين ، وحتى هذه المرحلة لم يكن النشاط الأوروبى قد توغل للمناطق الداخلية بما فيه الكفاية (٢٥) ٠

لقد اتصلت انجلترا بسواحل غرب أفريقيا منذ أوائل القرن السادس عشر ، اذ بدأ بعض الرحالين الانجليز يصلون الى ساحل غينيا وساحل الذهب ومن أشهر هؤلاء الرحالة جون هوكنز Hawkens الذى قام بعدة رحلات فى الفترة من ١٥٦٢ الى ١٥٦٧ ، للحصول على الرقيق للعمل

فى جزر الهند الغربية ، أسوة بما كان يفعله البرتغاليون الذين كانوا يحتكرون هذه التجارة قبل ذلك ، وكانوا يستغلون الرقيق الأفريقى فى المشروعات الزراعية فى العالم الجديد •

وفى أواخر القرن السادس عشر كانت للانجليز شركات تجارية بين غمبيا وسيراليون ، كما كانت للفرنسيين مراكز قرب مصب السنغال •

ورغم تنويه الباحثين بأهمية رحلات جون هوكنز آنف الذكر ، الا أن محرر كتابنا هذا لم يشر اليه فى هذه المرحلة الباكرة ، وانما أشار لرحلات القبطان الانجليزى طومبسون Thompson ، الذى توغل سنة ١٦١٩ فى نهر غمبيا ورحلات رتشارد جوبسون الذى توغل فى النهر نفسه لمسافة أبعد سنة ١٦٢٠ ، وجمع تقارير عن التجارة فى تمبكتو ، وكانت جماعة المغامرين التجار هى التى أرسلته • ونشر جوبسون رحلته سنة ١٦٢٣ بعنوان التجارة الذهبيه The golden trade .

وحتى قرب نهاية القرن الثامن عشر كانت انجلترا كغيرها من القوى الأوربية ــ تكتفى بمراكز ساحلية ، لكن ما كاد هذا القرن الثامن عشر يوشك على الانتهاء حتى بدأ الانجليز فى التوغل لداخل القارة ، بسبب فقدان انجلترا لمستعمراتها فى العالم الجديد ١٨٧٣ ، نتيجة حرب الاستقلال الأمريكية ولاحتياج المصانع الى الخامات الأفريقية فقد كانت الثورة الصناعية قد اشتد عودها ، بالاضافة للرغبة فى القضاء على تجارة الرقيق نتيجة جهود الانسانيين ، ورغبة فى اضعاف اقتصاد الدول الأوربية الأخرى التى تعتمد على هذه التجارة •

وكان من أهداف الرحلة الثانية لمنجو بارك (١٨٠٥ ــ ١٨٠٦) عقد اتفاقيات مع القبائل المحيطة بنهر النيجر لفتحه للملاحة والسيطرة على المناطق المحيطة به (٢٦) •

ويوجز أحد أساتذة التاريخ الأفريقى (٢٧) الصراع الانجليزى الفرنسى فى غرب أفريقيا فى القرن التاسع عشر على النحو التالى :

ــ فى أثناء الحروب النابليونية استولى الانجليز على المراكز الفرنسية عند مصب نهر السنغال وفى مناطق غرب أفريقيا الأخرى •

— في ١٨٧١ عادت هذه الحصون لفرنسا مرة أخرى ٠

— فى ١٨٧٢ وما بعدها أقام الانجليز حصنا قرب مصب غمبيا ، عوضا عن الحصون التى أعادتها لفرنسا ، وفى ٨٨٨ كان الانجليز قد توسعوا فى المناطق المحيطة بنهر غمبيا ٠

— فى ١٨٩١ وقع الانجليز والفرنسيون اتفاقا أكد الاحتلال الانجليزى للمنطقة المحيطة بنهر غمبيا ٠

— فى ١٨٩٣ أعلنت انجلترا الحماية على غمبيا (٢٨) ٠

— أما منطقة سيراليون – التى يرجع اسمها الى شبه بعض جبالها بالأسد فسميت سيراليون أى سلسلة الجبال الشبيهة بالأسد ، أو لأن صوت ارتطام الموج ببعض سواحلها الصخرية كان يصدر عنه صوت شبيه بزئير الأسد – فقد تردد عليها التجار الانجليز منذ بداية القرن السادس عشر ٠

— تأسست شركة سيراليون الانجليزية سنة ١٧٨٧ ، لتأسيس مستعمرة للزنوج الذين حاربوا الى جانب الانجليز فى حرب الاستقلال الأمريكية ، وأسست الشركة بالفعل مدينة فريتاون ٠

— فى ١٨٠٣ وافق البرلمان البريطانى على الغاء الرق فى بريطانيا ، فعاد جانب من الرقيق المحرر الى سيراليون ، كما كانت بريطانيا ترسل العبيد الذين تصادرهم سفنها فى البحار والمحيطات الى سيراليون ، فازداد عدد سكانها ، وفى ١٨٠٧ أصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطانى يحكمها حاكم عام بريطانى ٠

— ١٨٢١ أصدر البرلمان الانجليزى مرسوما يجعل ادارة شئون الانجليز فى ساحل الذهب للحكومة مباشرة ، بدلا من الشركة المعروفة باسم الشركة الأفريقية للتجار ٠

— فى ١٨٥٠ أصبح الحاكم العام الانجليزى يقيم فى ساحل الذهب نفسها وكانت ساحل الذهب قبل ذلك ملحقة بسيراليون ٠

— فى ١٨٩٠ فرضت بريطانيا الحماية على مملكة الأشانتى ٠

— وما يعرف الآن باسم نيجيريا لم تتخذ شكلها المحدد بحدودها السياسية المعروفة الا منذ سنة ١٩١٤ ، بعد ضم محمية النيجر الشمالية مع محمية النيجر الجنوبية ، بعد اتفاقات عقدت بين الدول الأوربية الأساسية المتصارعة فى غرب أفريقيا وهى انجلترا وفرنسا وألمانيا ٠

— وقد وصلت الرحلات الأولى للسفن الانجليزية لمنطقة خليج بنين سنة ١٥٥٣ ، وكانت تعود محملة بالتوابل وسن الفيل وزيت النخيل، مما شجع الانجليز على الاستمرار رغم كثرة الوفيات بين البحارة ·

— فى ١٧١٢ احتكرت انجلترا توريد الرقيق الى المستعمرات الأسبانية لمدة ثلاثين عاما بناء على معاهدة اترخت ·

— فى ١٨٩٧ استطاعت الحكومتان الانجليزية والفرنسية الاتفاق على الحدود الغربية والشمالية لمنطقة الحكم البريطانى فى نيجيريا ·

— فى ١٨٩٨ سويت الحدود الشرقية بالاتفاق مع ألمانيا (ذات النفوذ فى الكمرون) ·

— فى ١٨٩٩ دفعت الحكومة البريطانية تعويضا لشركة النيجر الملكية البريطانية وتولت الحكومة أمور نيجيريا بشكل مباشر ·

فرنســا فى غـرب افريقيـــا :

— لم تبدأ فرنسا فى التوغل لمسافات كبيرة فى الداخل الا فى القرن التاسع عشر ، فمنذ ١٨١٧ بدأت تتوسع فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم دولة السنغال ·

— ومن السنغال توغلت فرنسا فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم دولة النيجر ·

— كونت فرنسا ما عرف باسم غرب أفريقيا الفرنسية وهى تشمل : السنغال ، موريتانيا ، غينيا ، السودان الفرنسى ، ساحل العاج ، فولتا العليا ، داهومى ، النيجر ·

— امتد النفوذ الفرنسى الى الكنغو ، وباستيلاء الفرنسيين على الصحراء الكبرى اتصلت مستعمراتهم فى غرب أفريقيا بمستعمراتهم فى شمالها ·

— وبعد الحرب العالمية الأولى تم ضم الكمرون (التى كانت ألمانية) الى فرنسا ·

* * *

رواد تجارة الرقيق فى غرب أفريقيا :

وأجد في هذه المقدمة متسعا لتصحيح بعض الأفكار الخاطئة عن غرب أفريقيا ، فقد كانت أول خريطةمفصلة عن غرب أفريقيا قد نشرت نشرا محدودا هي تلك التى أعدها الخرائطى جودوكس هونديوس Jodocus Hondius (١٥٦٣ – ١٦١٢) ، وقد أظهرت هذه الخريطة جزيرة ساو تومى Sao Thome كأول مستعمرة فى القرن السادس عشر ، حيث استقر فيها اليهود الذين طردوا من أسبانيا ، ودام استقرار اليهود فى هذه الجزيرة واشتغلوا بالزراعة وحازوا أرض الجزيرة وفقا لنظمهم الخاصة وزرعوا قصب السكر وأطلقوا على هذه الجزيرة اسم جزيرة الميلاد ، وأشارت بعض المراجع الى أنهم يقصدون بذلك ميلاد الزراعة الاستوائية Birthplace of Tropical planting farming (٢٩) ، وان كنا لا نميل كثيرا لهذا التفسير ونعتقد أن المسمى راجع لمسيرة اليهود أنفسهم الذين طردوا من شبه جزيرة أيبيريا ، فكأنما هم يفسرون استقرارهم فى الجزيرة بميلاد جديد لهم ، وهذا التفسير الذى ننحو اليه يؤكده ميلهم لتفسير الأحداث بما يتفق مع تاريخهم • وعلى أية حال ، فقد انتشرت زراعة قصب السكر من هذه الجزيرة الى غرب القارة كله والى البرازيل • كما تحولت الجزيرة – على أيديهم – الى مركز تجارى نشط (٣٠) ، وقام اليهود فى هذه الجزيرة بأدوار رائدة بعضها غير مسبوق ، وذلك على النحو التالى :

(أ) استخدام الأيدى العاملة الأفريقية الموجودة فى الجزيرة ، والمجلوبة من الساحل خاصة منطقة بنين ، استخداما استثماريا فى مزارع القصب الواسعة التى أقاموها على أرض جزيرة ساو تومى ، وتصدير هذا القصب الى أوربا والأمريكتين فيما بعد • أما عن أجور هؤلاء العمال فكانت من الكوارز Coweries أو القواقع التى استخرجها اليهود من الساحل الأفريقى نفسه وكانت – أى هذه القواقع الملونة – عملة معترفا بها من أهل البلاد •

(ب) تمت شحنات الرقيق الأولى الى العالم الجديد وأوربا على أيدى يهود ساو تومى النازحين من شبه جزيرة أيبيريا ، فالريادة فى هذه التجارة المربحة لم تكن فى هذا التاريخ الحديث للبرتغاليين وحدهم ، وانما سبقهم فى هذا المضمار بفترة يسيرة يهود ساو تومى •

وهكذا أنشأ يهود ساو تومى سوقا غرب أفريقية منتعشة بخبرتهم فى الادارة وانشاء المشروعات الزراعية الكبرى ، معتمدين فى ذلك على ثروات المنطقة وعلى الانسان الأفريقى نفسه : زراعة على أرض أفريقية ،

واستثمار لجهود الأيدى العاملة الأفريقية ، وتجارة فى الانسان الأفريقى نفسه ، أما الأجور أو رأس المال المدفوع فكان من الكوارز Coweries أو الأصداف المستخرجة من السواحل الأفريقية •

لكن تجارة الرقيق تطورت بعد ذلك تطورا رهيبا خاصة منذ سنة ١٥٣٠ ، حيث بدأت تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلنطى على نطاق واسع ، وقد تركت هذه التجارة فيما يقول المؤرخ فيج آثارا ضارة على الحياة العامة فى غرب أفريقيا فى القرون الثلاثة أو الأربعة التى تلت كشف العالم الجديد ، وكان الأسبان يحصلون على الرقيق من غرب أفريقيا عن طريق التجار البرتغاليين ، وفى الفترة من ١٥٦٢ الى ١٥٦٨ دخل التجار البريطانيون الحلبة (٣٢) •

وقد أشار الباحثون الذين تناولوا ظاهرة الاستعمار الحديث الى أن المستعمرين ، بالاضافة لتسخيرهم للموارد الطبيعية والبشرية للمناطق المستعمرة، عملوا على نزع الطابع الثقافى والاجتماعى الخاص للسكان(٣٣)، فجعلوها مسخا انبتوا من ثقافتهم الخاصة ، دون أن يكونوا نسخة طبق الأصل من مستعمريهم ، لأنه ليس فى مقدور أحد أن يكون كذلك مهما تعرض لضغوط ، بل ومهما بذل هو نفسه من جهود لتحقيق ذلك • لكن الباحثين الآنف ذكرهم ، لم يذكروا لنا بما فيه الكفاية ، تجارب استعمارية فى تفريغ الأراضى أحيانا من سكانها ، تفريغا جزئيا أو حتى كليا •

* * *

التنوير وهذه الرحلات :

يحدثنا جوبسون عن الماندنجو المسلمين على شاطئى نهر غمبيا ، فيذكر أن من حق الواحد منهم أن يتزوج سبع نساء وأن يقتنى من المحظيات ما يشاء ، والقارىء ازاء هذه المعلومة قد ينكر على جوبسون قوله ويرجعه لجهله أو خطئه أو عداوته للمسلمين ، وهو اتجاه سهل لانه بمثابة رد الفعل الطبيعى الذى لا يحتاج الى اعمال فكر ، وقد يميل قراء آخرون الى أن هذا مجرد تأثير وثنى ، فالمسلمون المجاورون للوثنيين تأثروا بهم فى مسألة اقتناء الرجال للعديد من الزوجات • والواقع أن كاتب هذه السطور يميل الى أن العوامل الاقتصادية ، وظروف البيئة قد أثرت على نحو أو آخر فى تغيير بعض ما هو مقرر وثابت فى الشريعة الاسلاميه ، كما يبينها القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهما

ـ القرآن والحديث ـ لا يجيزان للمسلم أكثر من أربــع زوجات عند الضرورة ، لعدم استطاعة الانسان « أن يعدل » بين النساء ولو أراد ٠ والتفسير الاقتصادى لهذا الانحراف عن توجيهات نصوص دينية ثابتة ومقررة ، فى مثل الحالة التى أشار اليها رحالتنا جوبسون ، هو أن «الانسان» نفسه فى ظل ازدهار تجارة الرقيق هو بمثابة ثروة مثله فى ذلك مثل الأبقــار والأغنــام والمنقولات وغيرها ٠ فما دام الزوج يستطيع أن يبيع « الزوجة » اذا أثبت « عدم اخلاصها » ، فكأنه بذلك يمتلك ثروة ، ومن السهل اثبات « عدم الاخلاص » بقرائن غير صحيحة أو بشهود زور ، بل من السهل تسهيل مهمة « عدم الاخلاص » هذه لها ومن ثم بيعها ، وبيع شريكها فى العمل الحرام ٠ وما دام كنز النساء فى منزل الزوج يعد ـ على هذا النحو ـ ثروة ككنز الغلال فلم لا يكن بدل المثنى ثلاثا ، وبدل الثلاث رباعا ، وبدل الرباع سباعا كما فى هذه الحال على ساحل غمبيــا (٣٤) ٠

على أن الأمر الأكثر وضوحا والذى يؤكد هذه المرة (ولا يرجــع فقط) تأثير العوامل الاقتصادية على الشريعة ـ أية شريعة ، بما فى ذلك الشريعة الاسلامية ، ما قرره جوبسون من أن عقــاب الزانية عنــد هذه الجماعات الاســلامية هى أن تبــاع بيع الرقيق ، ولم تشر النصوص الاسلامية على هــذا لعقــاب الزانية وانما أشار القرآن الكريم كما هو معروف لعقوبة الجلد ، وأشارت السنة النبوية لعقوبة القتل رجما ، لكن العقول الاقتصادية وجدت أنه من المربح أن يكون البيع هو العقاب ، فهو عقاب للآثم ومكسب للبائع وهو هنا الزوج (٣٥) ٠

ويشير جوبسون الى تمسك جماعات الماندنجو ، عند زيارته لها فى الربع الأول من القرن السابع عشر ، بمراعاة مقتضيات العفــة والتمسك بأهداب الفضــيلة ، بل وتحريــم عدد كبير منهم للخمور على أنفســهم وزوجاتهم ، ومع هذا فقد وجدنا فى شرائعهم ما يناقض تماما ما هو معروف فى الشريعة الاسلامية مما ذكرناه آنفا ، مع أن جوبسون يحدثنا عن كثرة الكتــاتيب لديهم وعن ايمــــانهم « بالله واحد ٠٠ يتوجهون له بالعبادة ويسمونه بلغتهم (الله) وهو قادر على كل شىء ومطلع على كل شىء ولا يخفى عليه شىء ٠ وهم لا يتصــــورونه فى أية صــورة أو رمز أو رســم ، فليس كمثله شىء ٠ فهذه الأمور ، وهى تمثيل الله سبحانه غير مستساغة لديهم ، وهم يعترفون بمحمد (صلى الله عليه وسلم) رسولا ، وجميعهم مختونون ٠٠٠ » (٣٦) ٠

أما عن تأثير العوامل الاجتماعية ونظرة المجتمع فى الخروج عن مقتضيات الشريعة ـ أية شريعة ـ بما فيها الشريعة الاسلامية فهو ما ذكره لنا جويسون فيما يتعلق بالمهر ، فالبكر تشترى (بضم الباء) أى يدفع لها طالبها مهرا ، أما الأرملة التى مات عنها زوجها فهى التى تشترى (بفتح التاء) زوجا أى أنها هى التى تدفع لمن تريده زوجا • فالنظرة الاجتماعية لا تساوى بين البكر والثيب • هل تستويان ؟! عادة ما تكون الاجابة : « لا » ، لكن الشريعة الاسلامية جعلت لكل منهما مهرا قد يزيد فى حال الأولى وينقص فى حال الثانية ، لكن الرجل يدفع فى كلتا الحالتين ، حقيقة ان العرف الاجتماعى قد يحافظ على مجرد الشكليات فى حال الأرملة بمعنى أنها ان كانت ثرية دفعت لمن تريده زوجا ثم قام هو بدفعه أمام الناس ، لكن فى الحالة التى يرويها لنا جويسون تتخذ شكل التشريع الرسمى فالبكر تشترى (بضم التاء) والأرملة تشترى (بفتح التاء) (٣٧) ، لذلك نكرر ما ذكرناه فى أكثر من دراسة وتعليق ، ألحقناهما بما سبق أن ترجمناه من رحلات الرحالة الأوروبيين الى عالمنا العربى وأفريقيا ، أن الدراسات الانثروبولوجية من ألزم الدراسات لعلماء الدين ، ليتسنى لهم تبين العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى أدت لدخول الخرافة واقحام ما هو بعيد عن العقل الى صلب الدين وتشويه وجهه المشرق الناصع (٣٨) •

* * *

ويحدثنا الرحالة الهولندى وليم بوسمان عن قلعة انجليزية فى ساحل الذهب (غانا الحالية) ليس بها الا رجل انجليزى واحد أى أن (الحملة الانجليزية) قوامها رجل واحد ، ومع هذا فهو ـ فيما يقول بوسمان ـ قادر على « الاحتفاظ بشرف العلم الانجليزى » (٣٩) • وقد يميل بعض القراء الى أن هذا الانجليزى لابد أن يكون شجاعا مقداما • قد يكون ! وقد يميل قراء آخرون الى أن القلعة الانجليزية لابد أن تكون حصينة منيعة يصعب على أهل البلاد اقتحامها ؛ وقد يكون ! أو أن هذا الانجليزى يملك أسلحة فتاكة قادرة على صد جيوش الوطنيين • قد يكون ! أو أنه رجل اجتماعى دبلوماسى تحبب الى أهل البلاد فدخل قلوبهم • قد يكون ! أو أن هذا الانجليزى قد جمع كل المحاسن والمزايا آنفة الذكر • قد يكون ! لكن وليم بوسمان يورد لنا فقرات قد تكون وحدها كافية لتفسير هذا الأمر المعجزة ، أو أن تكون بالاضافة لما سبق تعليلا جيدا له •

يقول بوسمان : « ولا يسعد الانجليز شيء قدر رؤيتهم للجنود وهم ينفقون أموالهم فى شرب البنتش Punch (نوع من الخمور) وهو مسكر يضاف اليه الماء وعصير الليمون والسكر ٠٠ وقد حصل البعض على توكيلات بيع الخمور بضعف ثمنها (٤٠) ٠٠ » ولا يوضح النص ان كان المقصود هم الجنود من أهل البلاد أم الجنود الانجليز ، لكن المؤكد أن الخمور الأوربية كانت من أهم البضائع التى يروجونها بين أهل البلاد ٠ أثمة خوف من جندى أو انسان فقد وعيه تماما ! فى وسع الانجليزى آنف الذكر أن ينام فى قلعته قرير العين مادام محاطا بالسكارى ٠٠ فالعمل على فقدان وعى من نريد غزوهم هو أول الطريق لغزو ناجح ٠٠ هكذا تقول هذه الرحلات ٠

* * *

توظيف الخرافة :

يحدثنا منجو بارك أنه أثناء رحلته (١٧٩٥) فى غرب أفريقيا بين جماعات الماندنجو فى منطقة غمبيا ، حيث المسلمون والوثنيون حديثا ننقل قبسا منه على النحو التالى :

١ ـ اكتشف بارك من خلال نزاع بين أحد الزنوج من شعب السيراوولى ومترجمه الزنجى حول قرنى خروف أن : « للقرون قيمة عالية لاستخدامها فى عمل التمائم والتعاويذ التى يطلقون عليها اسم سافيز Saphies ويضعها الزنوج حول أجسامهم ، وتضم هذه الأحجبة والتمائم بضع آيات من القرآن الكريم التى يكتبها بعض الشيوخ المسلمين على قصاصات الورق ويبيعونها للبسطاء ٠٠ الذين يعتبرونها ذات تأثير كبير ٠٠ وبعض الزنوج يضعون هذه الأحجبة حول أجسامهم لتقيهم عضات الأفاعى والتماسيح ٠٠ وبعضهم يستخدمها أثناء الحروب لتقيهم أسلحة الأعداء ٠٠ ولكن الاستخدام الشائع لها هو للوقاية من الأمراض ، وللوقاية من آلام الجوع والعطش ٠٠ ولاسترضاء القوى العليا ٠٠٠ ولم ألتق بانسان سواء أكان مسلما أم كافرا (٤١) الا ويؤمن ايمانا قاطعا بجدوى هذه التعاويذ والأحجبة » ٠ هذه أفكار شعوب تعرضت بعد قليل لغزو شامل ، واجتاحتها الأمراض ففتكت بها فتكا ذريعا ، وعضتهم الأفاعى فأصابهم السم ، وقضمتهم التماسيح فهوت بهم الى القاع ٠ هذه هى الأفكار التى وجدها بارك سنة ١٧٩٥ ، ولا شك أنها كانت موجودة قبل هذا التاريخ بفترة غير قليلة ، أما التأثير العملى لهذه الأحجبة والتعاويذ فهو تتبع تاريخ هذه البلاد بعد هذا التاريخ ٠

ويجد الذين يكتبون عن التنوير حرجا فى التركيز على أمور تبدو بديهية ، لكن شيوع اللا معقول وانتشار الخرافة على نحو مذهل ، يجعل من الضرورى تقديم نصوص لمثل هذه الرحلات لتكون عبرة وعظة ٠

بعبع النســاء :

ويحدثنا بارك أنه وجد الثياب التنكرية للممبوجمبو Mumbo Jumbo وهو بمثابة بعبع bugbear موجود فى مداخل كل مدن الماندنجو ، ويستخدمه كل الوثنيين من أهل البــلاد لضمان تعلق نســائهم بهم ، فالكفرة يتزوج الواحد منهم أى عدد من النساء دون حد أقصى طالما كان قادرا على الاحتفاظ بهن ٠٠ ولما كان النزاع ينشب بين النسوة بين الحين والآخر ، فان المعارك تنشب داخل الأسرة الواحدة وتصل الى ذروتها ، بحيث لا يستطيع الزوج الاحتفاظ بسلطانه عليهن ولا يستطيع فرض السلام داخل بيته ٠وفى مثل هذه الحالات يعتبر تدخل البعبع (٠ الممبو جمبو) أمرا ضروريا ، ودائما ما يكون حاسما (٤٢) ٠

وفى حالة غضب الرجل من احدى زوجاته ، فانه يوعز الى شخص ما بارتداء ثياب الممبوجمبو (البعبع) فيرتديها ويدخل للغابة سرا ، ثم يخرج محدثا جلبة ويتحلق حوله المتحلقون يضربون الطبل ويعزفون ، وبمجرد سماع ذلك يتحتم على كل النسوة أن يجتمعن فى مكان خاص ويدخل عليهن البعبع ويجتمع أهل القرية ويظل العزف والطبل طوال الليل وكل النسوة حضور ٠

وعند اقتراب الصباح يهجم البعبع على المرأة المقصودة وينهال عليها ضربا بعصا حديدية ، فيسرع الحاضرون ليجردوها من ثيــابها وينهالون عليها ضربا وركلا ، ويلاحظ أن النسوة يكن هن الأعلى صياحا وشماتة فى أختهن البائسة ، ويظل البعبع يضرب ويضرب حتى يطل نور الصباح فيضع نهاية لهذا العقاب العنيف ٠

والآن ، من هو الرجل القادر على ارضاء عدد لا يحصى من النســاء يجمعهن فى بيت واحد ؟ هل يستطيع ارضاءهن كزوجات بصرف النظر عن متطلبات الكساء والطعام ؟ نظن أن هذا من قبيل المستحيلات ، ومن هنا تم ابتداع خرافة بعبع النساء (٠ الممبو جمبو) ، ومع كثرة الممارسة اكتسبت المسألة بعدا غيبيا ، وارتبطت بالقوى الغيبية ٠ انه التوظيف الاجتماعى للخرافة ، ليكون (بعبع النساء) سيفا مصلتــا على كل من تشكو ، أو تتململ من ضياع حقها كزوجة ٠

ولا زال التراث الوثنى متغلغلا لتحقيق الوظائف الاجتماعية نفسها أو شيئا منها فى مجتمعات وصلت لدرجة عالية فى سلم الرقى ، فلازلنا نسمع عن زوج يقول أو يقولون عنه انه (مربوط) أى أن سحرا أصابه على حين غرة فجعله غير قادر على مباشرة مهامة الزوجية . والمسألة لا تعدو أن تكون اعتذارا (غيبيا) مؤقتا لحين العلاج الطبى غير المعلن ، بينما التردد على المعالجين بالقرآن (الكريم) والسحرة يسير بشكل علنى ، واذا كان المرض فى الزوجة فهناك مصطلح (التصفيح) فيكون العلاج النفسى أو الطبى مقرونا بما ذكرناه آنفا .

المسلمون فى غير حاجة لاضطهاد المخالفين لهم فى الدين :

يقول بارك : « والفولة (بفتح الفاء والواو) المسلمون لا يعرفون الاضطهادات الدينية ، فالاضطهاد الدينى أمر غير ضرورى بالنسبة للمسلمين ، لأن دين محمد (صلى الله عليه وسلم) له القدرة على الانتشار بوسائل أكثر فاعلية بكثير من الاضطهاد الدينى (٤٣) .

« for the system of Mahomet is made to extend itself by means abundantly more efficacious ... »

وذلك بانشاء كتاتيب (مدارس صغيرة) فى المدن المختلفة ، حيث يتعلم الأطفال الوثنيون والمسلمون على سواء قراءة القرآن الكريم وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ويقول بارك : « ... وقد زرت كثيرا من هذه الكتاتيب أثناء تقدمى فى المنطقة ولاحظت بسعادة ما يتحلى به التلاميذ من طاعة مطلقة .. » ، لكنه يعود فيقول : « لكننى وددت من كل قلبى أن لو كانوا يتعلمون دروسا أفضل ودينا أنقى » وهذه النصوص جميعا ذات دلالة لا تحتاج لتعليق .

تاصيلات تاريخية :

توضح هذه الرحلات بشكل لا يحتمل الشك أن البربر أو مسلمى الشمال الأفريقى ، هم أول المتضررين من الكشف الأوربى لغرب أفريقيا لأسباب اقتصادية واضحة ، فقد كان البربر ينقلون عبر الصحراء الكبرى تجارة غرب أفريقيا ليعيدوا تصديرها عبر البحر المتوسط ، فيحققون أرباحا طائلة بقيامهم بدور الوسيط هذا . فالرحالة الانجليزى جوبسون الذى توغل فى نهر غمبيا سنة ١٦٢٠ يحدثنا عن البربر قائلا ان تاجرا

من أهل البلاد أخبره أن « هناك أناسا اعتادوا أن يصلوا الى بلادهم وهم العرب يحضرون السيوف والأساور وبضائع أخرى ، ولما سألته عن هؤلاء الناس وصفهم بأنهم المسلمون البربر وأنهم يصلون لبلاده راكبين جمالا .. وكان لهذا الكلام دلالته ..» (٤٤) ونفهم من سياق الرحلة أنه كان يخشى أمر هؤلاء البربر .

أما الرحالة هوجتون الذى زار المنطقة سنة ١٧٩٠ ، فقد اكتشف من خلال حديث امرأة أن التجار البربر يديرون لقتله لدوره التجارى فى المنطقة ، فلم يغنه اكتشافه شيئا فقتل فى مدينة جارا رغم تغييره طريقه المقرر سلفا (٤٥) .

أما منجو بارك فقد كان هاجسه الذى لا يفارقه هو خوفه من البربر، فى كل رحلاته سواء رحلته الأولى التى بدأت ١٧٩٥ أم رحلته الأخيرة التى لاقى فيها حتفه سنة ١٨٠٥ ، وبلغ بالرجل الرعب أن توسل لمندوبى ملك البمبارا ألا يذكروا شيئا عن أهدافه التجارية فى التعامل معهم مباشرة ، والغاء دور الوسطاء خوفا من البربر « لأنهم لو علموا بذلك قتلونى »(٤٦) على حد قوله .

لقد كان لكشف الأوربيين لغرب أفريقيا أثر خطير على البربر أو أهل المغرب عامة ، لايقل عن أثر طريق كشف الرجاء الصالح على المصريين (المماليك) والبنادقة ، فهؤلاء أيضا كانوا يقومون بدور الوسيط فى نقل بضائع الهند وشرق آسيا الى أوربا ويحققون أرباحا من وراء ذلك ، فلما تعاملت أوربا مع الهند مباشرة كان هذا أحد أسباب ضعف المماليك فى مصر ، ولولا ظهور القوى العثمانية الفتية لكان وضع العالم الاسلامى أكثر سوءا (٤٧) .

واذا أضفنا لهذه الحقبة الطويلة من العداء وتضارب المصالح والتى بدأت منذ المحاولات الكشفية البرتغالية الأولى لغرب أفريقيا ، حقبة أخرى من العداء بدأت منذ خروج المسلمين من الأندلس وتحالفهم مع أهل الشمال الأفريقى ، وقيامهم بحركة جهاد كبرى فى البحر المتوسط أشار لها الكتاب الأوربيون باسم حركة القرصنة (٤٨) ، عرفنا أن تأصل عداء دام أكثر من ستة قرون لا يمكن الا أن يشكل النظرة الأوربية الحاضرة .

* * *

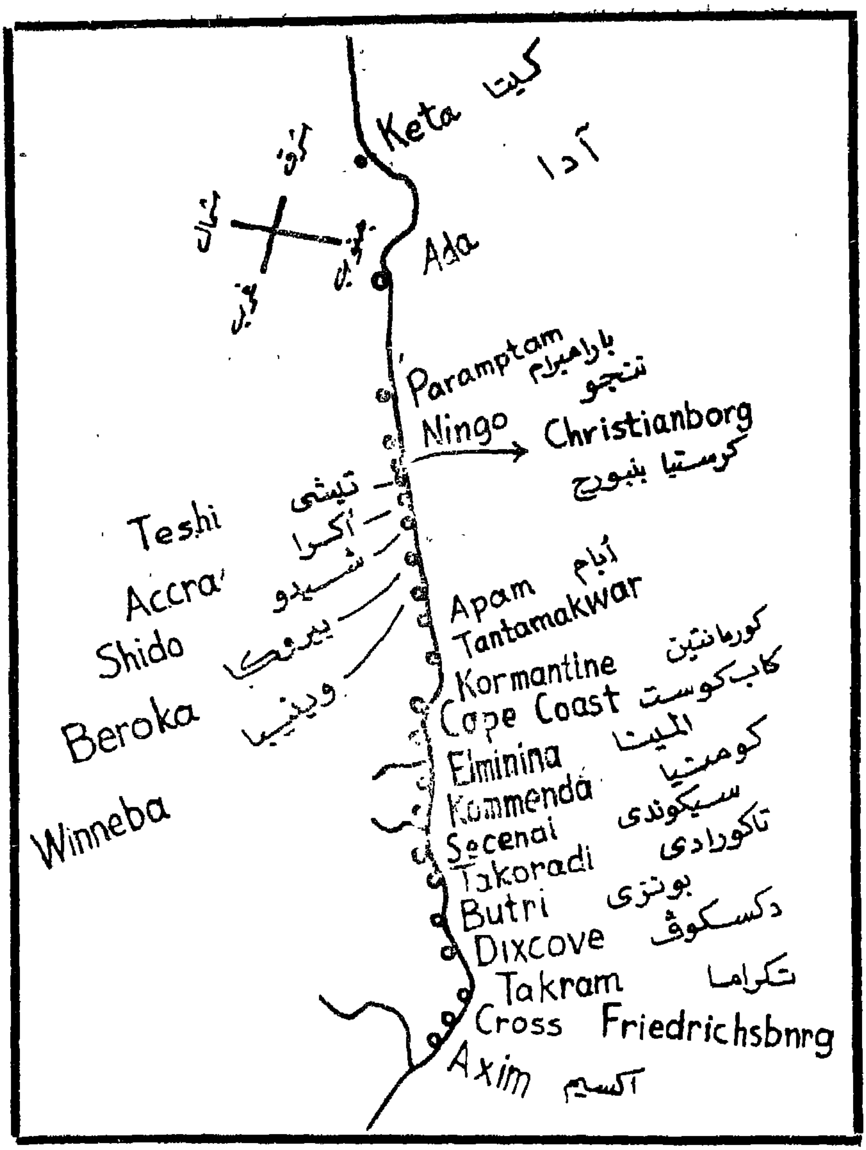
لغـة الرحـلات :

لقد قدمنـا ترجمات لنصوص رحلات متبـاعدة ، بدءا من رحلة جوبسون سنة ١٦٢٠ وانتهاء برحلة هورنمان سنة ١٨٠٠ ، وغني عن القول أن أساليب هذه الرحلات متباينة تباينا شديدا لتبـاعد فتراتها الزمنية ، ومما زاد من صعوبتها استخدامها لمصطلحات محلية جهدنـا غاية الجهد في تبين معناها ومن ذلك :

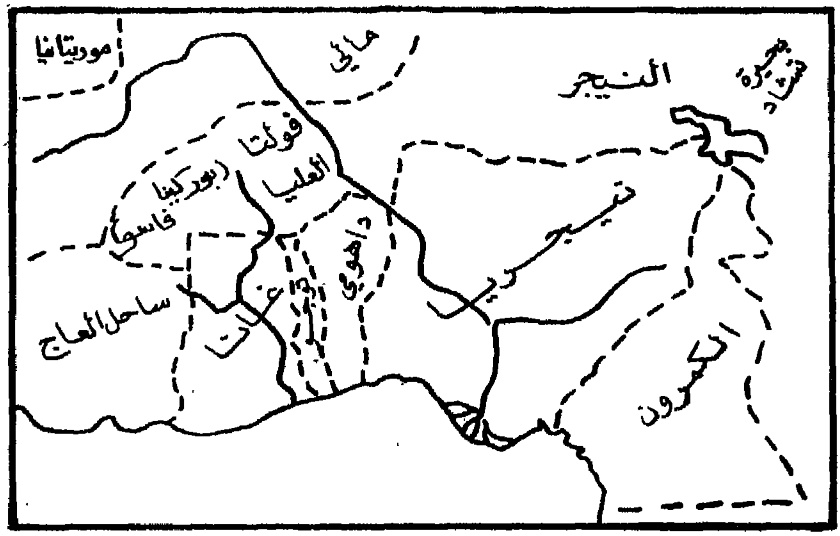
- Slatee بمعنى تاجر الرقيق ، وهي الكلمة المحلية المستخدمة على الأقل في منطقة نهر غمبيا .
- كما استخدم لفظ Bushreen بمعنى المسلمين ولعـلها كلمة أطلقها المسلمون على أنفسهم وتعني المبشرين (بالجنة) ، واستخدمت كلمة كافير Kafir لتعني الوثنيين الأفريقيين ، ومن الواضح أنها لا تخرج عن كونها كلمة (الكفرة) العربية .
- وأوضح السياق أن الدوتي Dooty هو العمدة أو شيخ القرية .
- أما Moor فقد استخدمت بمعنـاها المحدد وتعني (بربر) أو سكان الشمال الأفريقي ، واستخدمت في أحيان قليلة بمعنى المسلمين ، ولهذا أسـاس تاريخي سبق أن أوضـحناه في دراسـات ملحقة بترجمات لرحلات أخرى .

وعلى الله قصد السبيل ،،

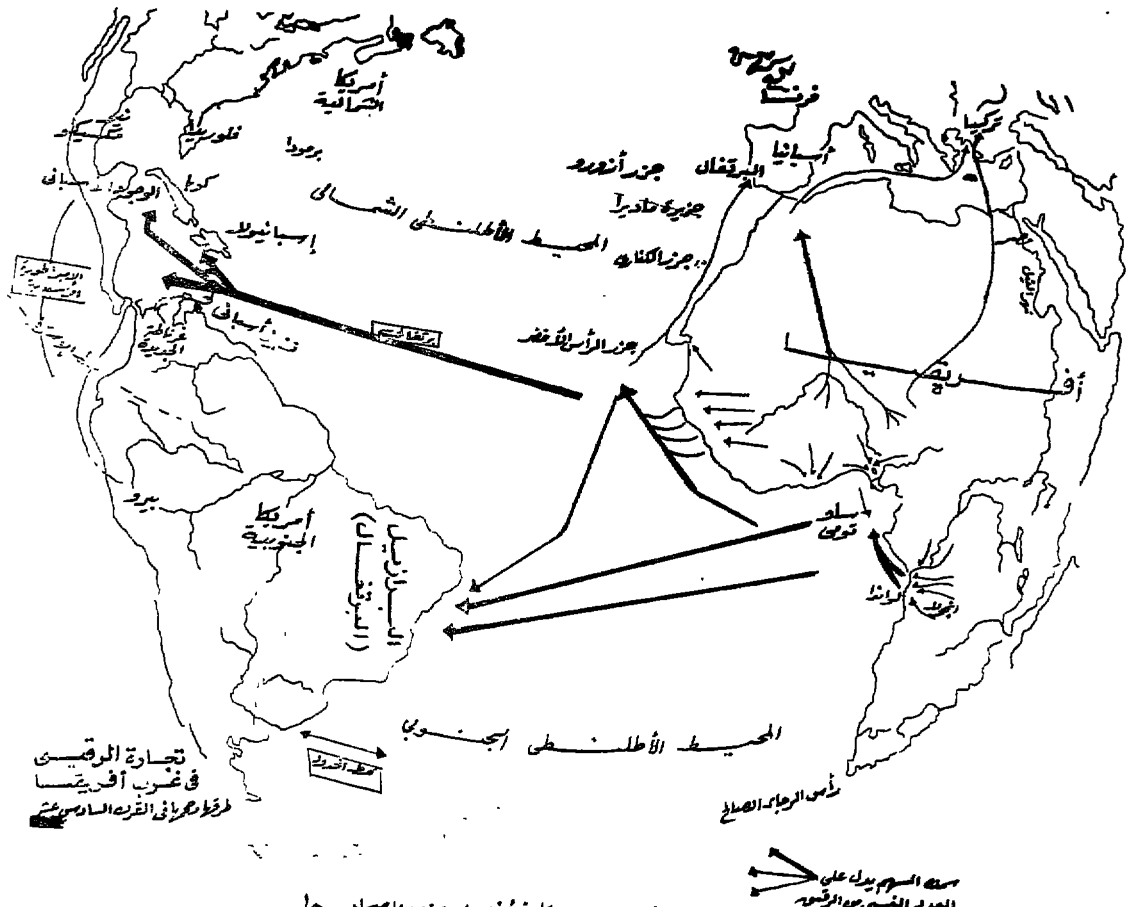
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



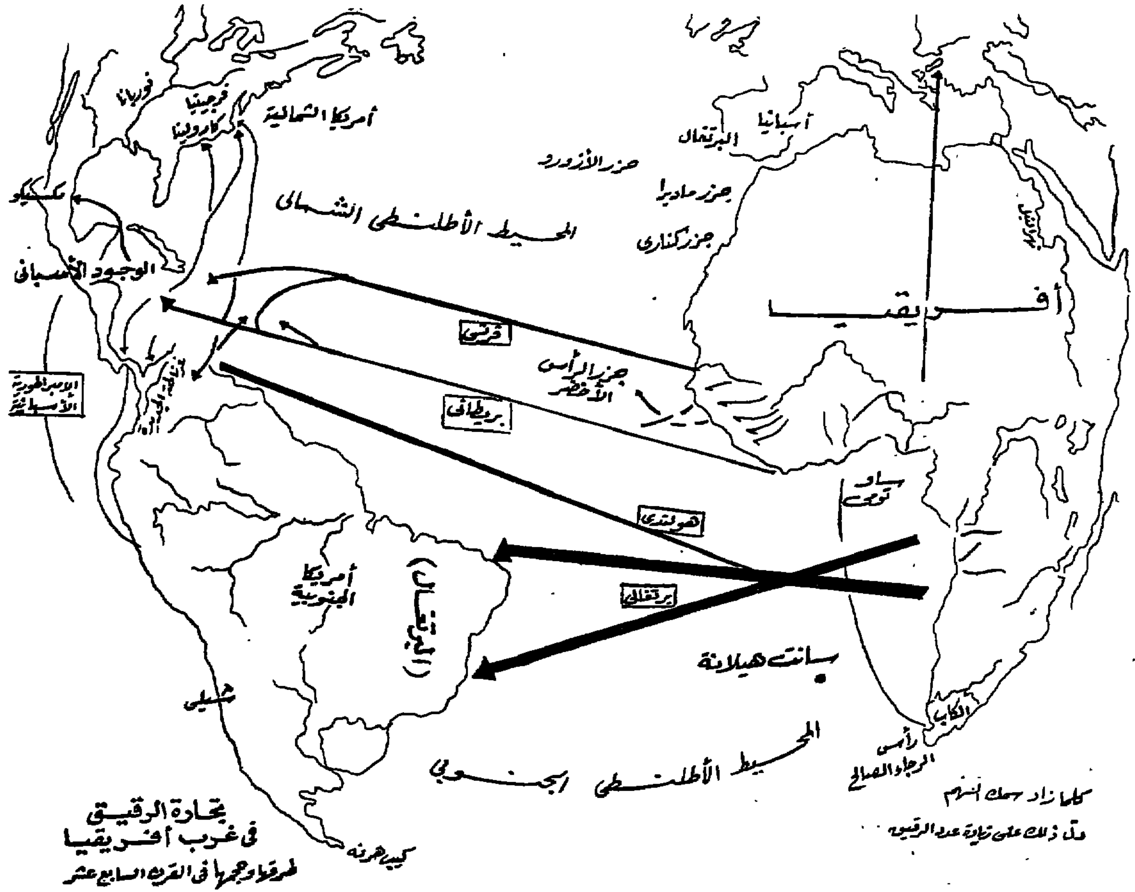
القلاع والحصون الأوروبية على ساحل الذهب



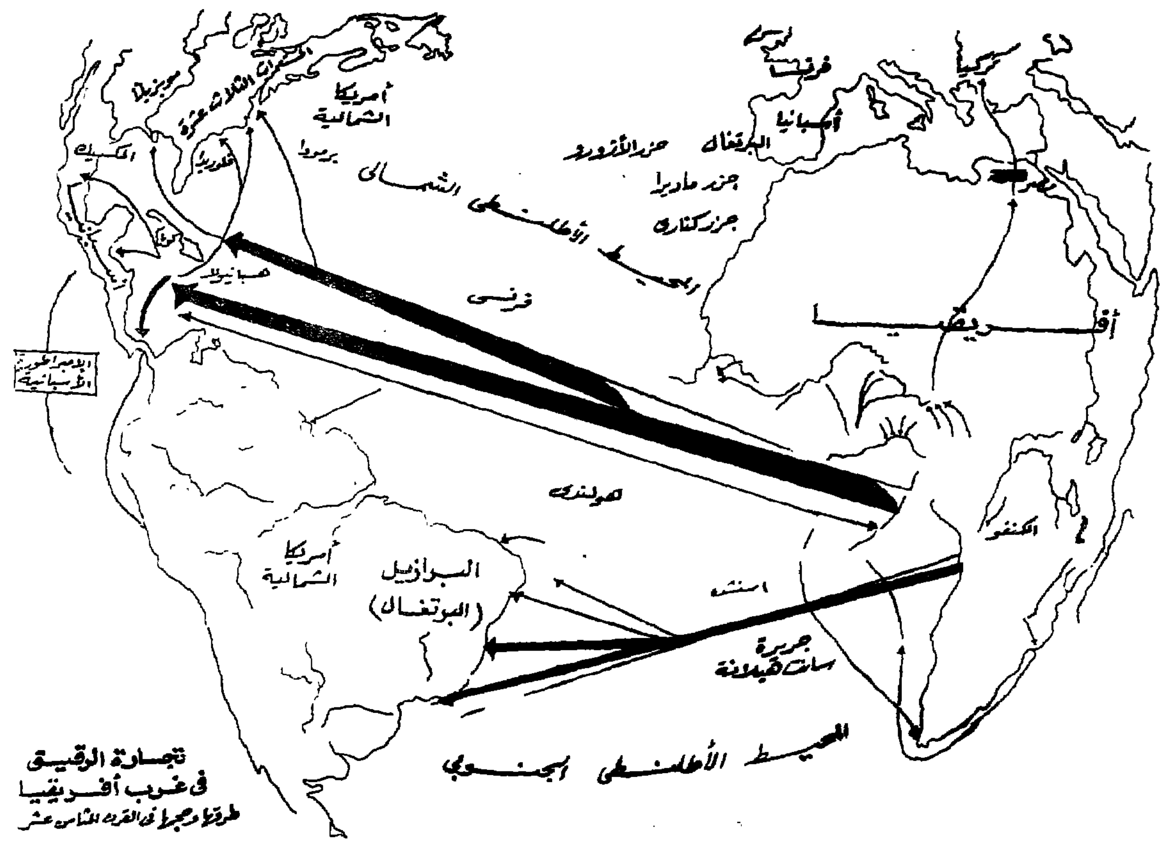
الدول التى يشملها مصطلح غرب أفريقيا الآن .



عن وايدنر ، د. تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ، جـ1



عن وايدنر، د. تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء. جـ1



عن مايجنر ، د. تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء جـ٢

الباب الأول

الرواد (١٦٠٠ ـ ١٧٨٨)

- رحلة جوبسون ·
- رحلة بوسمان ·

رحلة جوبسون

لم تكن هناك محاولة حقيقية للكشف العلمي المنظم لغرب أفريقيا حتى سنة ١٧٨٨ • حقيقة لقد أقام المستوطنون البرتغاليون والهولنديون والانجليز مستقرات (مستوطنات) في المناطق الساحلية لغرب القارة ، لكنها كانت مجرد مراكز لأغراض التجارة • ولم يكن لدى أى من الأوربيين معلومات جديدة عن المناطق الداخلية ما عدا قلة من التجار ، توغلوا في أودية الأنهار،ومن بين هؤلاء كان القبطان الانجليزى طومبسون Thompson الذى توغل قرابة أربعمائة ميل في نهر غمبيا سنة ١٦١٩ وجوبسون Jobson ، الذى توغل لمسافة أبعد في العام التالى ١٦٢٠ وجمع تقارير عن تجارة تمبكتو Timbuktu . وقد كتب جوبسون تقريرا مشوقا عن رحلاته وخلص في تقريره الى أن التجارة مع هذه المنطقة يمكن أن تكون مربحة • وفي سنة ١٧٠٥ نشر وليم بوسمان Bosman ـ الوكيل التجارى الهولندى في ساحل غينيا ـ تقريرا دسما عن الناس والتجارة على طول الساحل •

رتشارد جوبسون

Richard Jobson

أرسلت جماعة المغامرين التجار رتشارد جوبسون لمتابعة الجهد الذى بذله جورج طومبسون G. Thompson والذى بدأ سنة ١٦١٨ بالقيام برحلة وتوغل صاعدا في نهر غمبيا واتصل بتاجر أسود هو بكنور سونو Bucknor Sono ، قبل أن يسقط قتيلا أثناء عراك مع أحد مرافقيه الأوروبيين•وقد شرع جوبسون في الابحار في نهر غمبيا في أكتوبر ١٦٢٠ ورسا في ١٧ نوفمبر ١٦٢٠ • وكان هدفه الرئيسى هو أن يطور تجارة الذهب ، ولكنه كتب أيضا عن الناس وعاداتهم وأسلوبهم في الحياة ونظم الحكم لديهم •

والنص الذى نقدمه من The Golden Trade المنشور سنة ١٦٢٣ •

الماندنجو (١)

Mandingoes

(وهم السكان الأصليون)

سادة هذه المنطقة وسكانها الأصليون - كما يصفون أنفسهم ، وهم سود تماما رجالا ونساء ، ويعيش الرجال حياة بطالة وكسل فمعظمهم لا ينخرطون فى أية حرفة الا مدة شهرين فى العام ، حيث يحرثون وينقلون الذرة والغلال لبيوتهم حيث تخزن وفى هذا الوقت يكون عملهم شاقا ، أما بقية السنة فهم يروحون ويجيئون يقتنصون فى الغابة ويصطادون السمك من النهر ، وقدرتهم على الفهم - عند ممارسة هذه الأعمال - محدودة ، وهم يقومون بأعمال الصيد هذه رغم عدم حاجتهم لها ، فالحيوانات رابضة فى منازلهم ، والدجاج وغيره من الطيور المنزلية تحوم حول بيوتهم فى كل ركن وكل مكان •

حياة البطالة ولعبة شبيهة بالطاولة (النرد) :

وفى حر النهار تجد الرجال قد جلسوا فى جماعات تحت الأشجار الظليلة يتنسمون الهواء ويقتلون الوقت بالثرثرة ، ويلعبون لعبتهم الوحيدة بقطعة خشب بها حفر واسعة منحوتة بشكل خاص ، ويضعونها بين كل اثنين منهم ، فهى لعبة يلعبها اثنان ، ويتناول اللاعبان حوالى ثلاثين قطعة حجرية ، وبعد عدها يشرع كل واحد فى أخذ واحدة منها فثانية فثالثة حتى يستطيع أحدهما أن يحوزها جميعا ، وبعضهم يبدى ذكاء عجيبا فى هذه اللعبة •

وجبة العشاء هى الوجبة الرئيسية :

وقد اقتربنا من هؤلاء الماندنجو ورحنا نلاحظهم ،فوجدنا أن الناس العاديين منهم لا يأكلون فى اليوم الا وجبة واحدة ، يتناولونها عادة بعد الغروب • وينضجون وجبتهم هذه فى نيران يشعلونها فى بعض البوص

---

(١) فى النص : Mandingoes or Ethiopian .

reedes فى الهواء الطلق ويتحلقون حـولها ، وتقوم النسـوة بغرف الطعام لهم فى أوان وتقديمه لهم ساخنا ، وغـالب طعامهم أرز أو بعض الحبوب بعد سلقها ، فاذا ما أتاهم الطعام تنـاولوه بأيديهم بأن يأخذ الواحد منهم فى كفه بعض الطعام ويعجنه ، ليصبح كهيأة الكرة ثم يقذف بها الى فمه • فتلك طريقة أكلهم • ونادرا ما يأكلون لحما أو سمكا ، ويرجع ذلك ــ على الأرجح ــ لعدم تذوقهم لهما (اللحم والسمك) لا لعدم قدرتهم على الحصول عليهما •

لا يفضلون اللحوم ويبيعونها بثمن بخس :

فرغم انهم يربون الدواجن بكثرة ويعرفون كيف يسمنون الديكة ، الا أنهم يفضلون بيعها لنا مقابل قطع حديد صغيرة وخرز وما شابه ذلك، لذلك فانه ان كانت لدينا هذه الأشياء (قطع الحديد والخرز) ، فلن نواجه أية مشكلة فى تدبير طعامنا •

* * *

ومدن المانـدنجو محصـنة معـدة للحرب يحيطونها بخنـادق وتحصينات تساعد فى الدفاع عنها ، ويقولون ان المنطقة تعج بالسكان خاصة فى المدينة التى يحل فيها الملك • وللملك مقران أو ثلاثة لكننى لم أشاهد الا مقره فى مدينة كاسان Cassan ، وهى المدينة التى ركبت قبالتها سـفينة على سبيل الخطأ (كما سبق أن ذكرت) وهذه المدينة (كاسان) هى مقر الملك ، الذى اتخذ من اسم المدينة لقبا ملكيا فهو ملك كاسان King of Cassan ، وتقـع هذه المدينة على ضـفة النهر وهى مسورة ، وسورها قريب من المنازل وقبل السور ــ الى الداخل ــ يوجد سياج يبلغ ارتفاعه ما يزيد عن عشرة أقدام ، وعند السور أبراج يمكنهم منها اطلاق سهامهم ورماحهم من فوق الأسوار فى اتجاه أعدائهم ، ويوجد خارج السور خندق عريض جدا ، وخلف الخندق تحيط المدينة أعواد كثيفة من فروع الأشجار مثبتة فى الأرض ويبلغ ارتفاعها زهاء خمسة أقدام ولا يستطيع الرجل بمفرده أن يخترقها ، وقد صممت كما قالوا كى تمنع خيول الأعداء من الاقتراب • لقد بدت هذه الأسوار قوية وحصينة لا تستطيع الأسلحة المستخدمة التصدى لها ، فلا أحد يستطيع اختراق هذه الأسوار وتلك المتاريس فى غير الأماكن المعدة للعبور •

تسـميم الريـاح :

وهم يسـيرون عادة وفى أيديهم نبابيتهم (جمع نبوت) Staffe ورماحهم التى يسموتها أسيجى Assegi وهى عبارة عن غابة (بوصة) reede طولها حوالى ستة أقدام ، ذات رأس من حديد مدبب ، وهى تشبه كثيرا رماحنا Javelines ، لكن رماحهم خطرة ، وثمة رماح أخرى يصـنعونها وهى سـهام صـغيرة كسهام الأيرلنـديين لها رأس كالشوكة with heads all barbed وهى قاسية جدا ومؤلمة لأى شخص يصاب بها ، ويضع الواحد منهم حول عنقه عصابة (قماشة) ذات لون أحمر أو أصفر ويحملون سيوفا قصيرة ، يبلغ طول الواحد منها قدمين تقريبا ولها مقابض مفتـوحة open ، وهذه السيوف الحديدية يجلبونها من مناطق أخرى كما سيتضح عند حديثى عن تجارتهم ، وهم يحملون أقواسهم فى أيديهم وفوق ظهر الواحد منهم حقيبة (كنانة) تضم حوالى أربعة وعشرين سهما ، وهى أصغر سهام رأيتها وهى مصنوعة من البوص ولها رأس حديـدى كالشوكة وتشـبه ريشة الأوز ولا يزيد طولها عن قدمين ، ويسممون رءوسها بسم خطر ، ويقذفونها بأقواسهم المصنوعة أيضا من البوص (الغاب) ، وليس لهذه الأسهم ثقوب تستخدم عند قذفها بواسطة القوس ، وليس بها ريش ، وفى أقواسهم خيط مشدود ، وقوة قذف هذه الأقواس محدودة ، ومن هنا فان خطورة السهام تكمن فى السم وليس فى قوة قذفهـا ، وهم يضـعون السـم فى أوعية تحت ملابسهم (عباءاتهم) القطنية ، وقد رأينـاهم فوق ظهور خيولهم ضئيلة الحجم والتى يسرجونها على نحو ما يسرج الأسبان خيولهم ، وقد حمل الواحد منهم رمحه (أسيجى) بيده ، وقد علق على جانب الحصان الأيمن ترسه العريض •

ويقع منزل الملك فى وسـط المدينة وتحيط به منازل زوجاته ، ولا يمكن لأحد دخول هذا المجمع السـكنى المسور الا من خـلال قاعة الحارس ، حيث يمر فى منزل مكشوف (غير مسقوف) حتى يصل الى مقعد الملك الخالى ، ولا يجوز لأى شخص أن يجلس على هذا المقعد الا هو ، وهو يعلق طبلاته فى هذا المقعد •

الطبلة أداة اعلان الحرب :

والطبلة هى أداة اعلان الحرب الوحيدة التى رأيناها عندهم ، وثمة طبول أخرى تستخدم كل يوم وفقا لعادتهم التى لا تنقطع ، ففى كل ليلة يذهبـون الى قاعة الحراسـة هذه ـ بعد أن يكونوا قد ملأوا بطـونهم

بالطعام – فيشعلون النار فى وسط هذه القاعة المكشوفة ويتحلقون حولها ، يقرعون هذه الطبول ويغنون ويحدثون جلبة وضوضاء حتى الفجر ، فيسقطون نائمين – وهذا يعنى أنهم ينامون جانبا من النهار ، مما يجعل يومهم التالى قصيرا ، ولا يستيقظون حتى يحين ميعاد الطعام • وهم يفعلون ذلك لابعاد الأسود والحيوانات المتوحشة عن مساكنهم • وهذا لا يحدث فى المدينة فقط وانما فى كل قرية من قراهم ••

الملك الكبير والملوك الصغار :

لكن دعنى أتطفل فأحدثك عن أمور الدولة وعن الملوك وحكام الأقاليم كما وعدتك ، الا أننى أتوسل للقارىء أن يتذرع بالصبر فأفضل طريقة لفهم حكوماتهم هو تقسيمها وفقا لما يحكم به النهر وتبعا لامتداده ، فسأسمى – دائما – الجزء الواقع الى الجنوب منه الجانب الجنوبى the South side ، والجزء المواجه له الجانب الشمالى the North side ومن هذين الجزءين – رغم أننا رأينا ملوكا صغارا عديدين ، وبعض الرؤساء (الزعماء) Commanders دفعنا لها بعض الجمارك الضئيلة قيمتها – عند مصب النهر ، وهم فى هذا المكان (عند مصب النهر) كثيرون ، بينما يتضاءل عددهم فى المناطق الداخلية ، حيث تجدى معهم انحناءات الاحترام التى يتحتم على كل الغرباء الذين ينشدون مودتهم تقديمها للشخص المسئول أو ذى الحيثية ، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة دفع الجمارك أو الرسوم ، وسواء أقلت هذه الرسوم أم كثرت ، فهى لا تتعدى مبلغا تافها •

الملوك الثلاثة :

وهؤلاء الملوك الصغار – كما سمعت ورأيت – يعقدون اجتماعا فيأكلون ويشربون فى ستة أماكن مختلفة ، ويسمون الملك فى لغتهم المانسا Mansa وأعنى الملك الصغير من النوع الذى أشرت له آنفا ، ولهؤلاء الملوك الصغار حق الرجوع الى الملوك الأعظم والأعلى شأنا الذين يقيمون بعيدا عن الساحل (الى الداخل بعيدا عن مصب النهر) • وعلى الشاطىء الجنوبى للنهر ، وجدنا كل المنطقة التى مررنا بها بما فى ذلك المناطق الداخلية التى لابد أن تتصور أنها واسعة جدا – تتبع جميعها ملك كانتور Cantore • أما على الشاطىء الشمالى – فلا يختلف الوضع ، فكل المقيمين من ساحل المحيط حتى منتصف الطريق الذى قطعناه فى هذا الجانب – يتبعون ملك بورسال Bursall ، وبعد ذلك تتبع المنطقة ملك وولى Wooly العظيم • وهؤلاء الملوك الثلاثة (ملك كانتور ، وملك

بورسال ، وملك وولى) سمعنا عنهم لكننا لم نلتق بأى منهم ، فالتقارير تشير الى أنهم لا يظهرون للناس الا أثناء المهرجانات ، ولا يظهرون للناس وهم يصطادون الا وهم محاطون بأعداد كبيرة من الخيول خاصة شمالا ، حيث للانجليز عيون كثيرة هناك لمراقبة ملك بورسال الذى ينخذ مقرا دائما له قريبا من ساحل المحيط ويلجأ اليه بعض الهاربين ، مما تسبب فى حروب بين سكان شمال النهر وسكان جنوبه ، ويسبب هذه الحروب بالذات — كما علمنا من الناس — ملك بورسال ، فهو يجتاح جانبا كبيرا من المناطق المواجهة له فى وقت يسير — قاصدا بذلك نقل خيوله .

تعفير الرأس بالتراب عند مقابلة الملوك :

وقد استنتجنا أوضـاع هؤلاء الملوك الكبار ، من خـلال ملاحظتنا للملوك الصغار (الملوك التابعين لهم) الذين رأيناهم ، فالواحد من الرعية لا يسمح له بالاقتراب من هذا الملك الصغير (التابع) ، الا اذا ركع على ركبتيه وزحف على الأرض واضعا يديه على الأرض ، بل ان كثيرين منهم يقبض الواحد منهم بحفنة من التراب ويضعها على رأسـه العارى مرتين أو ثلاثا قبل أن يصبح قريبا من الملك ، ويضع يده بخضوع كامل على فخذ الملك ثم يتراجع بعيدا عن الملك مسـافة معقولة . فهؤلاء الملوك الصغار يحظون بتوقير شديد من رعاياهم ، رغـم أن الواحد من هؤلاء الملوك يجلس على حصيرة مبسوطة على الأرض فى قاعة بمنزله ..

رجال الدين :

واذا حضر أحد رجال الدين لمقابلة الملك ، فان الملك هو الذى يركع، ويتلقى ردا على ركوعه من رجل الدين دعاء بأن يحفظ الله الملك ، ويقوم رجل الدين بمباركته بأن يضـع يده اليمنى على كتفه اليسرى ، ويـده اليسرى على كتفه اليمنى ، ويردد الملك ردا على تبريكات رجل الدين كلمة : آمين .. آمين Amena, Amena ويمضى وقت طويل ورجل الدين يدعو أيضا لسائر الناس ، وتتردد كلمة آمين آمين . واذا اجتمع بشر كان بينهم رجال دين Mary bucke تحلق المجتمعون فى حلقة وركعوا جميعا حتى قبل تبادل السـلام . ويرد الملك على تحية الناس له بمجرد ايماءة من رأسه.وليس ثمة فارق بين لباس الملك ولباس رعيته فهم جميعا يلبسون ملابس قطنية فهم يزرعون القطن فى مساحات شاسعة ، وهو ينمو على نحـو ما تنمو شجيرات الورد عنـدنا ، ويثمر شجر القطن قطنا خالص البياض بعد فترة غير طويلة ، وسأتعرض لشجرة القطن هذه مرة أخرى عند حديثى عن أشجار المنطقة ونباتاتها .

الـــزوجات

ســأحدثكم عن أحوال نســائهم وعن تعدد الزوجات ، وخضوعهن التام – الذى يدعو للعجب – لأزواجهن · وللملك الحق فى اقتناء سبع نساء يطلق عليهن اسم زوجات ، كما ان له الحق فى اقتناء نساء أخريات يمكن أن يطلق عليهن ما نسميه بالمحظيات أو الخليلات **Con Cubines** ، وتختلف الزوجات عن المحظيات فى أنهن – أى الزوجات – تحظين باحترام أكثر ، ويتم التعامل معهن من خلال طقوس أو اجراءات خاصة ، ولكل واحدة منهن لقب معروف هو « زوجة الملك » ولا يجوز للملك أن يزيد فى عددهن عن سبع ، اما المحظيات فهن أدنى درجة لأنهن من أصول أقل عراقة ، وهن أيضا مرتبطات بالملك ويعتبرن من حريمه لكن ليس بالدرجة نفسها من الصرامة التى ترتبط بها الزوجات ، فالملك لا يضاجع احدى المحظيات الا عند الضرورة ، وأود أن أشرح كلمة « الضرورة » هذه شرحا جيــدا ، ومن هنا ، فاننى أود اخبارك انه قد يحدث أن تكون الزوجات السبع لا يصلحن للمضاجعة ···

عقـــاب الزنـــا :

وفيما يتعلق بطهارة الزوجة وعفتها فان شرائعــهم وأعرافهم فى الغاية من القسوة ، فاذا حدث أن ضبطت زوجة تزنى تم تأثيمهما (الرجل والمرأة) وبيعهما دون اتاحة فرصة التوبة لهما لكنهم لا يقتلانهما ، ويشترى البرتغاليون هؤلاء الآثمين ويصدرونهم لجزر الهنـــد الغربية · لذا ، فان الرجل لا يستطيع أن يتزوج عددا كبيرا جدا من الزوجات الا بالقدر الذى يمتلك فيه الوسائل التى تمكنه من الاحتفاظ بهن ، ويمتلك المال الذى يمكنه من شرائهن ، أضف الى هذا أسبابا أخرى أولها أن على كل رجل أن يحصل على موافقة الملك أو الزعماء الحاكمين ، لأن الرجل لابد أن يقدم للمرأة (الزوجة) بعض الأموال ، وثانيها أن عليه بعد ذلك أن يشترى امرأة من أصدقائها وبعض البضائع ، وما يشتريه يبقى مصونا محفوظا أو على حد تعبيرنا « فى البنك » (٤٩) ·

المطلقة تشترى زوجا والبكر يشتريها الزوج :

فاذا مات هذا الزوج قامت زوجته بشراء زوج آخر مما تركه لها ، فالمرأة المطلقة لا تســتطيع الحصــول على زوج الا اذا اشترته ، أما البكر فالرجــل هو الذى يدفــع لها فالمطلقة تشترى (بفتح التـــاء) والبــكر « تشترى – بضم التاء » ، ومن هنا فان الوقت المناسب لشراء النســاء يمكن تحديده حدسا وتخمينا ···

معظم الأعباء تقع على المرأة :

وأنا على يقين من أنه لا توجد نساء يعانين من عبودية أشد مما تعاني منه النساء هنا . فهن يسحقن الحبوب في الهاون (لانتـــاج الدقيق) مستخدمات عصيا غليظة ، وهن يقمن بتنقية الأرز ، وضربه . ويفعلن الشيء نفسه بالنسبة لسائر الحبوب فالنساء هن وحدهن العاملات في هذا المضمار ، وهن اللائي يعددن كل الوجبات التي يتناولها الرجال ، وهن اللائي يحضرن الطعام اذا ما طلبه الرجـال ويضـعنه على الحصيرة أمامهم ثم ينسحبن ؛ ولا يسمح لهن بالجلوس مع الرجال لتناول الطعام معهم ، وقد تناولت عدة وجبات مع ملوك ومع أناس عاديين فلم أجد امرأة واحدة تشاركنا طعامنا . وان كانت هناك زوجة أثيرة بمعنى أنها مفضلة عن الزوجات الأخريات ، فانه يسمح لها بأن تكون قريبة من الزوج وأن تدري عن أموره أكثر من الأخريات ، ومع أننا غرباء فقد سمح لهذه الزوجة الأثيرة أن تظهر لنا ببساطة وتكون بيننا وكنا نسميها « الزوجة الأثيرة » ، وتتمتع هذه الزوجة بقدر أكبر من الحرية ويسمح لها بقبول الهدايا التي نقدمها — الا أنه حتى هذه الزوجة الأثيرة لا يسمح لها بتناول الطعام مع الرجال وانما في منزل آخر .

امرأة تحب ضرتها !

والمثل الانجليزي « امرأتان في منزل » والذي يعني دوام العراك لا ينطبق هنا في هذه البلاد ، فرغم أن بالبيت الواحد زوجات كثيرات الا أنهن يعشن معـا على قدم المساواة ولم نسمع أبدا عن عراك جرى بينهن، كما أنهن لا يتبادلن السباب .

الـــدين والتعليـــم

الله :

وهم يتوجهون بعبادتهم الى اله واحد حقيقي — مثلنا ، ويتوجهون له بالعبادة ويسمونه بلغتهم الله Alle ، وهو قادر على كل شيء ومطلع على كل شيء لا يخفى عليه شيء ، وهم لا يتصورونه في أية صورة أو رسم أو رمز وليس كمثله شيء . فهذه الأمور غير مستساغة عندهـم ، وهـم يعترفون بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وجميعهم مختونون ، وسأعود لعادة الختـان عنـدهم في موضع آخر ، ويوم عبادتهم (يوم سبتهم)

هو اليوم السابع من الأسبوع وهو يوم الجمعة ، ولكل يوم من أيام الأسبوع عندهم اسم ، ويحسبون أعمارهم وأوقاتهم بموسم المطر ، فيقولون لقد عاش هذا الشخص عديدا من مواسم المطر على نحو ما نقول فى أوروبا عاش عديدا من السنين • ومع ذلك لم نسمعهم أبدا يستغيثون بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولا نعرف أن لديهم مساجد Churches أو أماكن خاصة بالعبادة ، ولا يوقرون يوم سبتهم (يوم الجمعة) فهم يتاجرون فيه •

الكتاتيب :

ولديهم بيوت دائرية معينة واسعة ومكشوفة يتلقى شبابهم العلم فيها ، وكل الأطفال الذكور الذين يرتادون هذه الأماكن يتعلمون القراءة والكتابة ، وليست لديهم اوراق وانما يكتبون على ألواح ناعمة لذلك ، فان جلبنا لهم الورق هنا عن طريق التجارة لقى عندهم قبولا ، ويكتب الأطفال على الألواح بنوع من الحبر الأسود ويكتبون به بأقلام تشبه أقلام الرصاص ، ويستخدمون حروفا تشبه الحروف العبرية لذلك ، فاننى لم أستطع قراءتها وقد جعلت مرافقى يكتب فى ورقة بعض جوانب قوانينهم (شرائعهم) وأحضرتها معى الى بلدى ، ليدرسها بعض العلماء هنا (فى بلدى) لتزداد معارفنا عنهم بشكل أفضل فاذا غدت معارفنا عنهم أفضل بمثل هذه الوسائل ، حققنا مكاسب واضحة فقد لاحظنا أنهم لا يكتبون نصوصهم الدينية والتشريعية بلغتهم الشائعة بينهم ، بل وأكثر من هذا فان أصحاب الشأن منهم لا يجيدون القراءة والكتابة ولا يقرءون الكتب وليست لهم آداب • وأماكن التدريس هى أماكن العبادة عندهم وأماكن الاجتماعات العامة (٥٠) •••

مسلمون متمسكون وآخرون سكيرون :

وقد وعدت أن أبين بعض أمور الأشخاص ذوى الرزانة منهم ، فثمة فروق مدهشة بين هؤلاء الزنوج ، رغم أنهم يعيشون على أرض واحدة ويتعرضون للمناخ نفسه ، الا أن العامة منهم يميلون ميلا شديدا للمشروبات الكحولية والحارة ، حتى ان الواحد منهم قد يرهن سلاحه ممثلا فى رماحه وأقواسه وسيوفه مقابل المخضول على هذا الشراب المسكر الشديد (القوى) ، بل ان الواحد منهم قد يسلم ملابسه لأشباع رغباته العارمة • وهذا أمر يبدو لنا غير مقنع • وفى الوقت نفسه فثمة زنوج لا يتناولون قطرة من المسكرات ولا يشربون غير الماء ، ولا يطبقون هذا الأمر على أنفسهم فحسب وانما على زوجاتهم والنساء من أقربائهم •••

تعليق المحرر :

[ويستمر رتشارد جوبسون في الرحلة ، قاطعا النهر في قارب خفيف حتى التقى بالمدعو بكنور سانو Bucknor Sano فتاجر معه] ·

بكنـــور ســـانو

وفى اليوم التالى أقبل المدعو بكنور سانو Sano فى فترة الظهيرة تقريبا ، وكان يرتدى أفخر ثيابه ، وتعزف أمامه فرقة موسيقية · لقد اتخذ أبهته الكاملة وكان قدومه محفوفا بالوقار الشديد ، وكان يصحبه حوالى أربعين رجلا مسلحين بالسهام والأقواس ، لكن سرعان ما تحلق حوله — فى غضون ساعتين — مائتا رجل وامرأة ، بينما جلس هو تحت شجرة ظليلة فوق مقعد · وقد ذهبت اليه بعد فترة قصيرة الى الشاطىء وبعد تبادل التحية رغبت اليه أن يأتى لقاربى ، فقبل عرضى بلطف منه وأرانى اللحوم التى جلبها لى مقابل الهدية التى أرسلتها له ، كما أحضر الناس ماعزا مختلفا ، بالاضافة الى قمح ودجاج حتى اننا بعد رؤية هذا لم نكن لنحمل هم المؤن ·

رعـد الرجـل الأبيض :

وبعد أن صعد الى قاربنا أطلقت ثلاث طلقـات من بنادقنا تحية له وترحيبا به وقد جعلته هذه الجلبة سعيدا مبتهجا وأسمى طلقات البارود باسم « رعد الرجل الأبيض » ولفت نظره جلد الأيل deare الذى قتلناه وكذلك رأسه ، وقد أطلعناه على طريقة اقتناصه باحدى بنادقنا ، وانتشر أمر هذا الصيد مصحوبا بالدهشة والاعجاب ، كما أشيع خبر وصولنا الى هذه الأنحاء وأننا نقتل باطلاق الرعد فى الغابة ···

بكنور سانو يتجرع كئوس الى حتى الثمالة :

وقد كان لدى نوع من الخمور المعتقـة الجيـدة Rosa-Solis فشربت معه وبعد أن شرب خلع سيفه وقدمه لى ، وقال لى ان على أن أدافع عنه هنا كما أن عليه أن يجعلنى آمنا على البر ·

لقـد أحب خمورنا جـدا ، فكان يبتلع بنهم ، وكأنه لا يعلم مدى تأثيرها · لقد تجرع منها بكثرة ، فشعر بالرغبة فى النوم وقام الرجال

القادمون معه بقطع الغاب من الغابة وشيدوا منها أكواخا (بالقرب من الشاطىء) وقام آخرون باشعال النار حول المكان ، فاصبح جمعنا وكأنه مدينة صغيرة ، لقد نام بوكنور سانو بعمق على سريرى والى جوارى فى قاربى ، وفى الصباح شكا من ألم برأسه ، فأخذت على عاتقى ألا أجعله يشرب مزيدا من خمورنا سوى كأس صغيرة قبل الطعام وأخرى بعده ، وقد أرضاه هذا ٠

بضائعنا وبضائعهم :

وقد أبدى رغبة فى رؤية كل البضائع التى لدينا وأبدى اعجابا بها ، وقد مال كثيرا الى حديدنا رغم أننا لم نجده (أى الحديد) جديرا بكل هذا الاعجاب ، وقد أخبرونا أن هناك شعبا مجاورا لهم — كانوا فى حالة حرب معه فى وقت من الأوقات يصنعونه ٠٠٠ وعندما تذوقوا ملحنا أعجبوا به جدا وراح كل من ذاقه يصيح « الله Alle » ٠ وبعد شروق الشمس بساعتين غادر تاجرنا (سانو) الى الشاطىء واحتفظ بعباءتى فأخذها معه ٠٠٠

وأول ما فعله بعد وصوله للشاطىء أن أوعز بمنع شعبه من الشراء منا أو مقايضتنا الا بعد مساومته هو شخصيا ٠

وقد ظل بوكنور سانو يعانى المرض طوال هذا اليوم ، بعد أن أفرط فى الشراب لدرجة أنه قال لى انه لا يستطيع ادارة أعماله هذا اليوم ، فلم يفعل سوى أن أرانى نسوة شابات سوداوات مربوطات بحبل أبيض معا وقال لى انهن رقيق (جوارى) وانه قد جلبهن لى لشرائهن ، وقد أجبته قائلا اننا لا نتعامل فى مثل هذه التجارة ولا يبيع أحد منا الآخر أو يشتريه ، واندهش كثيرا لقولى هذا وقال لنا انها هى البضاعة الوحيدة التى يتعاطونها فى المنطقة ، وعن طريقها يجلبون الملح الذى يحصلون عليه من البيض الذين يرغبون بشدة فى هذه البضاعة (الجوارى) فقلت له ان هؤلاء البيض يختلفون عنا ، أما بالنسبة لنا فاذا لم تكن لديه الا هذه البضاعة ، فان علينا أن نعود أدراجنا من حيث أتينا فاستدرك قائلا ان لديه جلودا وأسنان فيلة ، وغزلا قطنيا والملابس التى يلبسونها فى هذه المنطقة والتى نسميها الملابس الزنجية (أو ملابس الزنوج) ، وبالنسبة للجلود فقد أضاف أننا لن نشتريها نظرا لصغر حجم قاربنا وبالتالى لا يمكننا أن نحمل منها قدرا مناسبا ، الا اننا اذا أتينا بسفننا الكبار الى النهر لحملناها ، أما بالنسبة لأسنان الفيلة والقطن والملابس فيمكننا

الا في بعض الليالى التى يغمرها ضوء القمر ، وعندما يصلون البعض المدن يريحون أنفسهم ودوابهم ليومين أو ثلاثة وينزلون أحمال الدواب تحت شجر ظليل قريب من المدينة ، ويجعلون بضائعهم وكأنها معروضة للبيع ، وينصبون سوقا ، ويربطون أرجل حميرهم الأمامية ويطعمونها بأنفسهم ، وينام المسافرون فوق أحمالهم على نوع من الحصر يحملونه معهم دائما لهذا الغرض ...

المساومة :

وأعود مرة أخرى للحديث عن بكنور سانو Sano هذا التاجر الأسود . فعندما كنا نتاجر معا فانه كان يقول لنا أثناء المساومة على بضائعه هذه لى شخصيا ولابد أن تكرمنى في ثمنها ، أما ان كانت البضاعة ستذهب لملك البلاد أو لأى شخص آخر فالأمر يختلف ، فأنا وأنت شخص واحد اننى مثلك تاجر (باللغة المحلية جيليتو Juletto تعنى تاجرا) أرحل من مكان الى مكان بينما الملوك لا يفعلون سوى الشرب والنوم مع نسائهم ، أما أنا فأبحث عن كسبى — مثلك — بالكد والتعب خارج البيت ، لذا فأنا أقرب لك من الملوك ، وقد لاحظت أن لسيفه نصلا جيدا كما لاحظت زوجين من الأساور النحاسية ، أحدهما لزوجته تضعه حول ذراعها ، وقد بدا لى السيف والأساور وكأنهما مجلوبان من لندن أو من احدى الدول الأوربية ، فسألته عن المكان الذى جلبه منهما فأخبرنى أن هناك أناسا اعتادوا أن يصلوا الى بلادهم ، وهم العرب Arabeckes يحضرون هذه السيوف وتلك الأساور وبضائع أخرى ، ولما سألته عن هؤلاء الناس وصفهم بأنهم المسلمون (البربر) وأنهم يصلون لبلاده راكبين جمالا فى مجموعات كبيرة ...

لقد كانت لهذا الكلام دلالته ، اذ أنه يعنى أننى ورفاقى قد توغلنا كثيرا فى النهر ، فتأكيد وصول بربر الشمال الأفريقى لهذا الاتجاه يعنى ذلك ، كما يعنى أنهم اكتشفوا تجارة المنطقة . ولما سألناه عن المدة التى يستغرقها البربر للوصول لبلاده ، قال ستة أيام وأنهم يجلبون معهم الملح وبضائع أخرى ويأخذون مقابله الذهب ..

تعليق المحرر :

[وبعد ان وصل جوبسون لاتفاقية مع بكنور سانو Sano الذى أصبح بمقتضاها وكيلا له ، واتفاقية مع ملك جليكوت Jelicot عاد الرجال الانجليز للساحل]

***

أن نشتري منها • وفي اليوم التالى وكان يوم سبت أصبح لنا منزل شيد بجوار الماء ومسقوف بالغاب (البوص) وحوله مكان مكشوف ، وكان هذا المنزل بمثابة سوق لنا (مكان لمزاولة التجارة واستقبال البضائع) ، ولما شرعنا فى التجارة سألنا عن « بضاعة التقويم » (٥١) لتحديد السعر عن طريقها ولتقويم (لتقييم) الأشياء الأخرى بها فأرونا واحدا من ملابسهم ، وكانوا راغبين جدا فى ملحنا مما جعلنا نسعد ، فلديهم أشياء (بضائع كثيرة) وقد جعلنا هنا نرفع السعر وقد جعلهم هذا يتظاهرون بالرفض ، ولما حسمنا موقفنا لم يعد هناك خلاف فأحضر كل رجل منهم بضاعته ، فنفد ما لدينا من ملح ، وكان الواحد منهم بعد مغادرته يعود مصحوبا برفاقه حتى غصت سوقنا بالزبائن ولم نتحدث معهم عن الذهب اطلاقا مع أنه « البضاعة » الأساسية التى أتينا من أجلها لكننا نحن ننتهز المناسبة الملائمة ، لقد رأينا نساءهم يتزين بحلى ذهبية يعلقنها فى آذانهن فتظاهرنا بعدم الاهتمام ولم نبد رغبتنا الشديدة فى شرائه ، وقد حانت المناسبة للحديث عن الذهب عندما أثار بكنوز سانو نفسه هذا الموضوع ، فقد أبدى ملاحظة عن سيوفنا المذهبة وعن بعض أشيائنا الأخرى المطلية بالذهب وسأل ان كانت من ذهب فأجبناه بالايجاب وقلنا له ان بلادك لابد أن يكون فيها كثير من الذهب ، وقلنا له ان بلادنا أيضا فيها ذهب كثير وان الرجال عندنا يستخدمونه ، وقلنا اننا سنشترى منهم الذهب اذا طلب أهل بلدنا شراء بعضه نظرا لانه متوفر فى بلادنا ••• وقال لنا : انه توجد مدينة كبيرة بعد هذه البلاد يغطى أهلها أسقف بيوتهم بالذهب ، وأخبرنا أن الوصول اليها يستغرق أربعة أشهر قمرية foure Moones ، وسألناه ان كان يعتزم أن يصحب بعضا منا الى هذه المدينة فقال : « نعم » لكن ثمة أعداء يواجهوننا فى الطريق نحاربهم أحيانا •

عندئذ أريناه بنادقنا وقلنا اننا سنحمل هذه البنادق معنا وتقتل هؤلاء الأعداء جميعا ، فبدا وكأنه اطمأن كثيرا لكلامنا •

عادات السفر :

وقبل أن استطرد ، سأنتهز هذه الفرصة لأحدثكم عن عاداتهم فى السفر والترحال ، انهم يسافرون معا فى جماعات ويجعلون حميرهم تسير أمامهم ، ويبدءون رحيلهم (سفرهم) فى مطلع النهار (شروق الشمس) ويستمرون سائرين حوالى ثلاث ساعات ، ثم يضطرون للتوقف للراحة تحاشيا لحرارة النهار ، ويشرعون فى السفر مرة أخرى قبل الغروب بحوالى ساعتين ، فاذا أطبق الليل توقفوا خوفا من الوحوش

وليم بوسمان

William Bosman

مقدمة :

عمل وليم بوسمان لأربعة عشر عاما فى منطقة ساحل غينيا فى خدمة شركة الهند الغربية الهولندية ، وانتهى به المطاف كمسئول عن المحطة الرئيسية وهى قلعة القديس جورج فى المينا St. George d'Elmina • وسجل خبراته فى هذه المنطقة على صورة خطابات وجهها لصديق له فى هولندا ، وقد تعرض لتفاصيل دقيقة عن المنطقة وأهلها ونظم الحكم عندهم ، والأهم من هذا أنه تعرض لتجارة الأوروبيين فى الرقيق وفى الذهب ، ويحمل أول خطاب أرسله تاريخ الأول من سبتمبر سنة ١٧٠٠ •

والنص الذى نقدمه فيما يلى من كتاب بوسمان الذى يحمل عنوان : « وصف جديد ودقيق لمنطقة ساحل غينيا » (A new and accurate description of Guinea) ونشر فى لندن سنة ١٧٠٥ • والنص الأصلى مكتوب بالهولندية •

***

ساحل غينيا :

يعود اسم قلعتنا هنا (قلعة القديس أنتونى) للبرتغاليين الذين كانوا هم أول من شيدها وحكمها ، ولكن فى سنة ١٦٤٢ استطاع رجالنا الهولنديون ازاحتهم من هنا ومن أماكن أخرى مختلفة • والحق أن البرتغاليين قد بذلوا — فيما مضى — جهودا دءوبة بقصد البقاء هنا الى الأبد ، الا أن القوى الأخرى سرعان ما حاصرتهم بسبب أفعالهم السيئة • وليس هذا هو موضوع حديثنا على أية حال ، فلنعد اذن للحديث عن قلعتنا : انها ليست ضخمة جدا ، ومع هذا فهى متقنة جيدة البناء ،

التوصـــيات

ولانهى هذه الرحلة لابد ان أبدى رغبة جادة مفادها أن يوضع ما كتبته موضــع الاعتبــار ، بمعنى أن نواصل الجهود بشكل منتظم للاستفادة من هذه التجارة الواعدة وهذا يتطلب ارسال التجريدات أو البعثات للأسباب التالية :

أولا : أن هناك صلة بيننا وبين هذا الشعب الذى أشرت اليه آنفا ، فهم من ناحيتهم (دون شك) سيترقبون باهتمام ـ كما وعدوا باخلاص ـ اقدامنــا على الاتجار معهم ، ويودون ألا نخــذلهم ، فنحن الآن أول شعب أبيض يرونه ويحوز على استحسانهم ، وقد تبقى هذه الفكرة فترة طويلة ان حافظنا عليها • لقد كانت قوانيننا مناسبة ومقبولة أثناء فترة السلم طوال الطريق الذى قطعناه بينهم ، وبين مثل هذه الشعوب المتبربرة لا ندرى اذا كانوا سيثبتون على رأيهم وولائهم أم لا ، ولم نواجه بالعــداء من قبــل أى أمير ولم نحــاول استفزازه بالدخول فى أية مناطق ممنوع الدخول بها ، ولم نتدخل فيما لا يعنينــا ، ولم نتدخــل فى حروب أو عداوات ، وكان كل ما يعنينا هو التجارة الحرة التى توجد بين الأمم ••

والمعلومات التى حصلنا عليها فيما يتعلق بتجارة الذهب مع المسلمين من بلاد البربر معلومات مؤكدة ، وكانت معلومات مشجعة تساعد على بداية تجارة فى هذا المضمار ، رغم الظروف السيئة التى حالت بيننا وبين استمرارى ورفاقى فى ممارسة هذه التجارة • ان المناقشات الودودة ، والقبول العام ، والثقة المتبادلة التى لقيناها عند أهل البلاد لم تزل ما علق بنا من شــكوك فحسب نتيجة نقص المعلومات ، وانما أزاحت ما كان لدينا من معلومات خاطئة بثها مغرضون عن خطورة هذه الأمة وميلها للدماء •

جميلة الشكل بالاضافة الى أنها قوية حصينة ذات موقع مناسب • وهي مزودة بثـــلاثة مدافع ثقيلة ، بالاضافة الى متاريس وتحصينات داخلية وخارجيـــة وسور عال يحيطها من ناحيـــة البر ، وبها كميـــة كافية من البنـــادق تمكن من في القلعـــة من صـــد جيش قوى من أهـــل البـــلاد (الوطنيين) • واني شديد الأسف أنني لن أتمكن من ارسال خريطة كاملة لبنائها ، لأن الرسام المنوط به وسمها قد وافاه الأجل قبل أن يتم نصفها ، لذا فلا تتوقع أن نرسل لك رسوما عن أية قلعة تقع الى الغرب من الميناء Elmina أما الرسوم الخاصة بالقلاع الواقعة الى الشرق من الميناء آنف الذكر (الميناء) فهي رهن اشارتك •

ولا يمكن أن يكون خافيـــا عليك أن ابن أخيك قد أصـــبح القائد المســـئول ، اذ تم تعيينه في هذا المنصب بفضـــل السيد ن• ن• N.N. الذى يحظى بثقة الشركة وثقة الجنرال على سواء ، لذا فهو يتمتع بسلطة مطلقة على سائر منطقة خليج غينيا ، ويخضع له السكان خضوعا مطلقا فهم يتفانون في خدمة قائد القلعة ولا يعصون له أمرا ولا يجرؤون على البت في أى نزاع قضائي دون اطلاعه ، فهو بمثابة مسئول تحقيق العدالة مخول لفرض العقـــاب حتى على زعيم الزنوج Chief of the Negroes على أن يكون العقاب متمشيا مع أعراف المنطقة • وفيما يتعلق بالقوانين والأعراف في هـــذه المنطقـــة ، فانني أنوى اذا طال عمرى أن أوليها عناية خاصة • أما الآن فانني قبل أن أوغل في الحديث معك ، أود أن أقدم لك صـــورة عامة عن منطقـــة ساحل غينيا ، خاصة تلك المنطقة المعروفة بساحل الذهب والمناطق التي استولت عليها بلادنا أو البلاد الأوربية الأخرى •

منطقة ساحل غينيـــا :

فمنطقة غينيا منطقة شاسعة ، تمتد عدة مئات من الأميال وبها ممالك كثيرة لا يمكنني عدها ، وعدد من الدول and Several Commonwealths .

وقد قدم لنا بعض المؤلفين غينيا باعتبارها مملكة عظيمة ضم ملكها (أميرها) للكه عـــددا من المناطق (البـــلاد) ووحدها جميعا في مملكة واحدة عظيمة تحت عرشه أسماها مملكة غينيا : وهذا خطأ كبير ، فاني أريد أن أوضح لك أن اسم غينيا غير معروف هنا بين الأهالي ، وأن مملكة غينيا الخيالية لا وجود لها في العالم •

ساحل الذهب (٥٢) :

وباعتبار ساحل الذهب جزءاً من منطقة ساحل غينيا فانه يمتد حوالى ستين ميلا ، ابتداء من نهر الذهب الواقع على بعد ثلاثة أميال الى الغرب من أسين Assine أو اثنى عشر ميلا وراء أكسيم Axim ، حتى قرية بونى Poum الواقعة الى الشرق من أكرا Acra بسبعة أميال أو ثمانية .

ولست براغب فى ازعاجك بالحديث عن طبيعة الأرض بين أسين Assine وريو Rio او عن نهر كوبر Cobre الواقع وراء قلعتنا بحوالى ميل ، لان التجارة فى المنطقة الآن غير منتعشة مع أنها كانت منذ تسع سنوات أو عشر مزدهرة ، على أنه منذ تعرضت منطقة أسين الذهبية The Golden Country of Assine (التى يجلب منها الذهب الى هنا) للهزيمة وحاق بها الخراب والتجارة فى تدهور مستمر ، فالكميات القليلة من التبر التى تصل اما مغشوشة أو قليلة القيمة ـ لهذا السبب فاننى سأتابع طريقى على طول ساحل الذهب ، ولن ألتزم بالترتيب أو الأسبقية للظواهر والأمور التى أعرضها ، وانما سأتناولها كيفما اتفق . طالما قد وقعت فى طريقى ، وسأصفها بايجاز أو تفصيل وفقا لما يمليه على حجم الخطاب الموجه لكم .

فالمناطق (البلاد) من نهر أنكوبرسيان Ancobersian River الى قرية بونى Ponni يبلغ عددها أحد عشر هى : أكسيم Axim وأنت Ante وأدوم Adom وجابى Jabi وكومانى Commani وفيتو Fetu وسابو Saboe وفانتين Fantyn وأكرون Acron وأجونا Agonna وأكوامبو Aquamboe (٥٣) .

وكل منطقة من هذه المناطق آنفة الذكر تضم ما بين واحدة الى ثلاث من المدن أو القرى ، تقع على ساحل البحر أو بين القلاع الأوروبية أو وراءها ، وأعظم المدن وأكثرها ازدحاما بالسكان تقع ـ بشكل عام ـ بعيدا عن الساحل . وسبع من هذه (الدول) ممالك يحكم كل منها ملك مطاع ، أما الكيانات الأخرى فيحكمها بعض الزعماء من أهلها وتبدو أقرب الدول (الكومنولثات) ، لكننى سأقدم لك مزيدا من التفاصيل عنها فيما يلى ، لذا فاننى سأبدأ بالحديث عن أكسيم Axim التى كانت ـ وفقا لما يتردد هنا ـ مملكة قوية الا أن وصول البراندنبرجيين Branden-burghers أدى الى انقسام سكانها ، فوضع جانب منهم أنفسهم تحت حماية القادمين الجدد (البراندنبرجيين) طمعا فى حكم أقل وطأة وقبضة

أقل بطشــا ، ولم يعوزهم التفكير السليم فى اختيــاوهم هــذا ، فالنتائج المترتبة على اختيارهم هذا تؤكد أنهم لم يكونوا مخطئين • أما الجانب الآخر من السكان فهم الأكثر أمانة والأكثر تمسكا بذواتهم فبقوا فى ظل حكومتنا • واذا وضعنا فى اعتبارنا امتداد هذه البلاد قبل زماننا هذا ، لوجدناها تمتد ستة أميال طولا من نهر كوبرا آنف الذكر وتعنى النهر الأفعوانى أى الشبيه بالأفعى ، وهو المسمى الذى أطلقه عليه البرتغاليون، لكثرة تعرجاته وتعقد مجراه الطويل البالغ عشرين ميلا) الى قرية بوسوا Boeswa الواقعة الى الغرب من قلعتنا بميــل بالقرب من قرية بوترى Boutry .

تجارة الذهب :

وبشكل عام فان السكان الزنوج فى الغاية من الثراء ، ويسيطرون على تجارة الذهب الضخمة مع الأوربيين ، وهم يبيعون الذهب على نحو خاص للمتطفلين الانجليز والزيلنديين ، رغم العقوبات القاسية التى تحيق بهم نتيجة ذلك ، فنحن ـ اذا أمسكنا بهم وهـم يفعلون ذلك ـ فاننـا لا نصادر الذهب فحسب وانما نفرض عليهم دفع مبالغ باهظة ، ومع هذا فانى أقول ان ذلك لا يردعهم فهم يضعون فى اعتبارهم امكانية الهرب وهم يرشون عبيدنا (الذين نعينهم للمراقبة والتجسس) ليتركوهم يمرون ليلا • وبمثل هذه الوسائل يضيع علينا أكثر من مائة جزء من ذهب هذه البلاد • والأسباب الواضحة التى تجعل أهل البلاد يقومون بهذه المخاطرة فى الإتجار مع المتطفلين (رغم خطرنا ذلك عليهم) هو أن بضاعة المتطفلين أجود من بضاعتنا على نحو ما ، ويبيعونها أرخص مما نبيع بمقدار الثلث، وأهل البلاد يدركون أن الاتصال الناجح بهؤلاء المتطفلين يؤدى بهم الى الثراء السريع ، مما يشجعهم على مواجهة الأخطار •

وتتفق طوائف مختلفة من هؤلاء المتطفلين مع تجار مخصوصين فى هولندا ، لادارة هذه التجارة مما يعد سلبا لامتياز شركة الهند الغربية كما تنص براءتها الممنوحة لها من الدولة والتى تقضى بحقها ـ دون سواها ـ فى الاتجـار مع هـذا الساحل وحقهـا فى مصادرة بضـائع الآخرين ، بل وسـلبهم حياتهم ان تجاسروا على التعرض لحقها هذا ، وفى حـالة القبض على سفن متسللة تقوم بأعمال تجارية غير مشروعة لتعارضها مع حق الشركة تصبح ـ أى السفن ـ ملكا خالصا لها ـ أى للشركة ، ومع هذا رغم قبضنا على سفن عديدة على أيامى فان القانون لم يأخذ مجراه ، فان بعض مسئولى الشركة تركوها تفلت من بين أصابعهم • لكننى لا أتهم أحدا فكل ابن آدم خطاء ؛ دعنا نعد للحديث عن سكان آكسيم Axim

الذين يعملون فى التجارة أو صيد الأسماك والزراعة ــ خاصة زراعة الأرز الذى يزرع هنا بوفرة تفوق وفرته فى مواضع أخرى ، ويتم بيعه فى سائر أنحاء ساحل الذهب مقابل الذرة millet و Jammes (؟) والبطاطس وزيت النخيل ، وكلها محاصيل نادرة هنا (فى أكسيم) فالتربة هنا رطبة بطبيعتها ، لذا فهى مناسبة لزراعة الأرز الا أنها غير مناسبة لزراعة بعض المحاصيل والفواكه الأخرى .

قلعة القديس جورج فى إلمينا
Elmine

على بعد حوالى ثلاثة أميال من قلعتنا فريدنبرج Vredenburg عند قرية (أو مدينة) مينا Mina تقع قلعة القديس جورج فى المينا ، وهى قلعة حازت شهرة عالمية ، وقد أخذت القلعة اسمها من اسم المدينة St George D'Elmina لكن لماذا أطلق البرتغاليون ــ وهم مؤسسو المينا ــ هذا الاسم عليها ؟ لا أستطيع أن أجزم بالسبب فلا توجد مناجم ذهب (٥٤) حولها وعلى مدى عدة أميال منها ، لكننى أستطيع أن أخمن قائلا انه ربما كان بسبب أن المينا تشهد تجارة ذهب مزدهرة ، اذ يأتيها الذهب من كل الأنحاء المحيطة بحيث يبدو وكأنه أخرج من المناجم Mines واتخذ سبيله الى المينا Elmina مباشرة . ولا أستطيع أن أخبرك على وجه اليقين بتاريخ بناء البرتغاليين لقلعة القديس جورج فى المينا ، وان كان فى مقدورى أن أخبرك على سبيل اليقين أننا قد استولينا عليها منهم سنة ١٦٣٨ ، وقد أصبحت بالفعل قلعة شهيرة بسبب جمالها ومنعتها فلا نظير لها على طول الساحل . انها بناء مربع ذو أسوار شاهقة ويداخلها أربعة مدافع ثقيلة بالاضافة لأربعة أخرى عند التحصينات الخارجية ، وتزينها من ناحية البر قناتان حفرتا فى الصخر تمتلئان دوما بماء المطر أو بماء طازج يكفى استخدام الحامية والسفن . وبالاضافة لهاتين القناتين فلدينا فى داخل القلعة ثلاثة خزانات رائعة تحتفظ ببضع مئات من البراميل (٥٥) من ماء المطر الطازج ، لذا فاننا لا نتعرض لكبير خطر لافتقاد هذه المادة الحيوية ــ الماء . وفوق القلعة مدافع نحاسية ثقيلة ، وهذه المدافع بالاضافة للمدافع الأخرى المشار اليها آنفا مليئة بقطع الحديد (القذائف الحديدية) التى تطلق يوميا لتحية السفن وغير ذلك من المناسبات الشبيهة . ويوجد مكان لاقامة حامية يزيد عددها عن مائتى رجل فى هذه القلعة بالاضافة لعدد من الضباط والموظفين ــ اقامة مريحة لا تدعو للضجر أو الشكوى وسأبدأ

رسم الحصون وهذه القلعة وأرسل منظرا لكل جانب من جوانبها تحت رقمى ١ و ٢ . لكن الرسام سرعان ما هرب من سيده لارتكابه خطأ بسيطا جدا لم يكن من السهل اكتشافه الا على العين الماهرة الخبيرة .

وتقع مدينة مينا Mina أمام القلعة ويسميها أهل البلاد أوديَنا Oddena وهى مدينة طويلة جدا ، أما عرضها فمتوسط . ومساكنها مشيدة من حجارة صخرية مما يجعلها مدينة مختلفة فالمساكن فى غيرها مشيدة من طين وخشب . وكانت هذه المدينة منذ خمسة عشر عاما أو ستة عشر مزدحمة بالسكان ثمانية أضعاف ما هى عليه الآن . وكان السكان فى ذلك الوقت مرهوبى الجانب من كل زنوج الساحل ، لكن منذ حوالى خمسة عشر عاما انتشر مرض الجدرى بشكل حاد فهجر المدينة سكان كثيرون وزاد خراب المدينة وتحولت الى حالة من البؤس يرثى لها بسبب الحروب Commanian Wars وبسبب الحكم الاستبدادى لبعض الجنرالات . لقد بلغ البؤس والضعف فى هذه المدينة الآن مبلغا لا يكاد يصدق فهى لا تستطيع تقديم خمسة عشر رجلا مسلحا دون مساعدة من الخدم الذين يعملون لدى الأوربيين ، ولا يخلو مكان فى كل ساحل الذهب من بعض زنوج المينا Elmina ، فبعض هؤلاء الزنوج ممن كانوا أصدقاء للكومنيان الأوربيين Commanians هربوا للاحتماء بهم ، ولكن معظمهم قد هربوا من طغيان حاكمهم المحلى Akim الذى أشرنا اليه آنفا ، والذى يعاملهم كالأنعام التى تعد للذبح . ولما وصلت لهذا الساحل للمرة الأولى أخبرونى أن هناك حوالى خمسمائة أو ستمائة قارب Canoes تنطلق لصيد الأسماك كل صباح ، أما الآن فليس هناك الا أقل من مائة قارب . وكل شعب المنطقة بائس بشكل يفوق الوصف لذا ، فقد حق القول أن يعاملهم حاكمهم المحلى Akim برفق حتى يعود الناس مرة أخرى ، أو – على الأقل – أن نقوم بتحجيم سلطات هذا الحاكم بحيث يصبح غير قادر على التوغل داخل بر ساحل الذهب ، حتى لا يمارس مزيدا من التسلط والأذى مستعينا بأتباعه .

الانجليز وقلعة ساحل الرأس

English, Cape Coast Castle

... وبالقرب من هذه القلعة فى منطقة فيتو Fetu يقع حصننا كونرادسبورج Conraadsburg ، فوق تل عال يسمى تل القديس تجاجو Jago وهو حصن جميل رباعى الزوايا مزود بأربعة مدافع قوية كمعظم

حصوننا وقلاعنا بالاضافة الى أربعة مدافع أخرى أقل قوة عند الأسوار الخارجية • وباختصار فان المدافع هنا كافية ، والحصن قوى جدا وهو قادر اذا زود بمؤن كافية وحامية قادرة ـ على أداء مهمته على خير وجه • وقد أرفقت رسما للحصن (رقم ٣) يريك ارتفـاع برجه المعقول فى الوسط • والواقف على قمة هذا البرج يرى منظرا رائعا للمحيط والمناطق الواقعة حول الحصن بالاضافة الى فائدته العملية ، فهو يمكن قاطنى الحصن من رؤية السفن على بعد سبعة أميال أو ثمانية •

وقبل بناء أية قلعة أو حصن فوق جبل القديس جاجو هذا ، كانت لهذا الجبل فوائد عظيمة ، وانطلاقا من هذا الجبل أجبرنا قلعة القديس جورج على الاستسلام فقد نصبنا مدافعنا فوق هذا الجبل ، لنتخذ موقفا دفاعيا قويـا يمكننا من الاحتفاظ بالجبـل والحصن ، وذلك لأن فقدنا للحصن أو الجبل لا يمكن قلعة القديس جورج من الصمود طويلا •

وسأخبرك هنـا أن منطقة فيتو Fetu يبلغ طولها أربعين ميـلا أما عرضها فأقل من ذلك بقليل ، وتبدأ كما سبق أن أخبرتك من جبل القـديس جاجو Jago أو نهر الملح Salt River وتنتـهى الى الجبل الدنمركى Danish Mount ، مرورا بمنطقة كابو كورس Cabo-Cors وكانت منطقة فيتو هذه فيما مضى منطقة عامرة بالسكان وقوية جدا حتى ان أهل فيتو كانوا يبثون الرعب فى كل الشعوب (الجماعات أو القبائل) المحيطة بهم ، خاصة جماعات الكومانى Commany الذين ربطو أنفسهم بحكومة فيتو • ولكن منطقة فيتو الآن منطقة هجرها سكانها بسبب الحروب المتوالية فأضحت خرابا وأصـبح التابعون لها هم سادتها الحقيقيين • فملك فيتو والنبلاء التابعون له لا يسـتطيعون ابرام أمر دون اذن من سادتهم الكومانى Commanians والسبب الغالب لهذا الوضع هو انقسام فيتو أثنـاء الحرب ، فقد انحـاز جانب الى الكومانيـان Commanian وانحاز الجانب الآخر الى جانبنا (هولندا) وقتل من الفريقين عدد كبير ، فعانوا معاناة مزدوجة من جراء ذلك وتناقص عددهم تناقصا كبيرا فى المعركة الأخيرة بحيث لم يعودوا قادرين على التكاثر بشكل كاف ، ولم يعودوا قادرين على زراعة هذه المنطقة المثمرة الرائعة أو استثمارها • فهذه المنطقة الخصبة يمكن مقارنتها بمنطقة أنت Ante • وقبل الحرب الأخيرة التى نشبت هنا كنت أجول فى هذه المنطقة ، فوجدتها عامرة بالمدن الآهلة بالسكان والعـامرة بالمبانى التى أحسن بناؤهـا وكانت زاخرة بكميات كبيرة من القمح والماشية والنبيذ Palm-wine والزيت ، وكان من الأمور الجذابة أن يرى المرء هذه الممرات (الطرق الضيقة) المستقيمة

جبـــل الحديد :

لقد وضعت فى اعتبارى أن أنهى هنا الخطاب بالحديث عن اقليم سابو Fantynean Land ، لكن فى الوقت متسع للحديث عن أرض فانتين Fantynean Land ، اذ تحدها من الغرب منطقة سابو Saboe ، وجبل الحديد يقع الى الأدنى من مورى Mouree ويشكل أحد أطرافها ، ويبلغ طول جبل الحديد هذا حوالى ربع ميل ، وفى قمته ممر جذاب تظلله الأشجار الكثيفة ، لذا فهو مظلم حتى فى رائعة النهار ٠ وعند سفح هذا الجبل تمتد أراضى فانتين Fantyn حوالى تسعة أميال على جانب البحر ويبلغ عرضه بضعة أميال ٠

انجليزى واحد يحافظ على شرف علم بلاده :

وللانجليز قلعة فى هذه الأنحاء بالاضــافة الى ثلاث مستوطنـات أما نحن فلنا هنا قلعة أيضاً ٠ وأول علم انجليزى تقع عليه نواظرنا ونحن نهبط الجبــل فى منطقــة انجنسيان Ingenisien وتتــكون الحملة الانجليزية كلها هنــا من رجل واحد ، وهو قــادر على الاحتفاظ بشرف العــلم ٠٠٠

الدنكيرا والأشانتى (٥٦)

Dinkira and Ashanti

أولى المناطق التى يتم انتاج الذهب بها هى منطقة الدنكيرا Dinkira التى تقع بعيدا فى الداخل (بعيدا عن الساحل) ، اذ لا يستطيع خدمنا الوصول اليها قبل خمسة أيام ــ عادة ــ منطلقين من المينا ، أما ان أرادوا الذهاب اليها من آكسيم Axim استغرقت رحلتهم عشرة أيام ٠

[ثم يتحدث بوسمان عن الذهب وانتاجه وتجارة الرقيق ويسمى بعض الشعوب (القبائل) الأفريقية فى ســاحل غينيــا مثل الأشانتى والفانتى ٠٠ الخ دون أن يخوض فى تفاصيل عاداتها وتقاليدها] ٠

وقد حفتها الأشجار المتلاحمة معا بكثافة من المينا Elmina الى سمبا Simbe (قرية على بعد حوالى ميل ونصف الميل الى الداخل فى منطقة فيتو Fetu هذه) وقد احتميت فى هذه الأشجار الكثيفة من الشمس والمطر · وتزدان المنطقة بالأشجار الشاهقة على ضفاف الأنهار الجارية وفوق التلال وبايجاز ، فان من حسن حظنا أن تكون هذه الأراضى العامرة بالجمال قريبة من موضع اقامتنا الرئيسى ·

ويعمل السكان أساسا بالزراعة فبعضهم يزرع القمح (أو الذرة) وبعضهم يستخلصون الزيوت ، ويصنعون النبيذ من النخيل ، ويخزنون كميات كبيرة منهما (الزيت والنبيذ) ·

ويقع الحصن الانجليزى الرئيسى ، وهو الحصن الذى يلى قلعة القديس جورج فى المينا على بعد ثلاثة أميال سيرا على الأقدام أو على بعد ميلين بحريين من هذا المكان — فى مدينة أوجوا Ooegwa ويسميها بعض الناس مدينة كابوكورز Cabocors وهى تمثل رأسا ناتئا فى البحر · وهذا الحصن الانجليزى يعد هو الأكبر والأجمل من بين كل الحصون والقلاع على هذا الساحل · وداخل هذا الحصن الانجليزى مساكن للاقامة جيدة التأثيث ، وأمام الحصن برج مرتفع للدفاع عن المدينة اذا هاجمها الزنوج المعادون · وفى هذا الحصن الانجليزى أربعة مدافع ضخمة جدا ، بالاضافة لوحدة مدافع ثقيلة تعترض مجرى الماء بحيث يمكنها منع أية سفينة معادية من الوصول للبر ، وثمة صخرة ضخمة أمام الحصن الانجليزى من جهة البحر ، تجعل من غير الممكن قصف الحصن من ناحية البحر ·

الخمور :

وأسوأ ما فى أمر هذه الحصون وتلك القلاع أن الحاميات هنا ضعيفة جدا فالجنود يائسون ، فالنظرة المتمعنة تؤدى الى الاحساس بالشفقة نحوهم ··· ولا يسعد الانجليز شىء قدر رؤيتهم للجنود وهم ينفقون أموالهم فى شرب الخمور خاصة البنش Punch وهو مسكر كالبراندى يضاف اليه الماء وعصير الليمون والسكر ، ويصنع خليط من كل هذا ، وقد حصل البعض على توكيلات (امتيازات) بيع الخمور بضعف ثمنها للجنود ···

***

البـــاب الثـــانى

الجمعية الأفريقية ومشكلة نهر النيجر

١٧٨٨ ـ ١٨٢٠

الجمعية الأفريقية ومشكلة نهر النيجر

١٧٨٨ ـ ١٨٢٠

حظيت مشكلة نهر النيجر باهتمام بالغ فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر • وكان من المعروف أن نهرا عظيما يجرى فى المناطق الوسطى لقارة أفريقيا لكن أحدا لم يكن يعرف من أين ينبع ؟ وأين يصب ؟ بل ولا حتى اتجاهه ، وهكذا أصبح النهر مجالا للظن والتخمين • وقد وجدت الجمعية الأفريقية ـ وهى هيئة من رجال بارزين تهدف فى الأساس الى جمع المعلومات العلمية عن هذه القارة الكبيرة ـ أن جمع المعلومات من التجار من أهل البلاد ومن القناصل الانجليز قد أدى الى تراكم كثير من المعلومات المتناقضة ، فقررت تمويل بعثات كشفية يقودها رجال يتم اختيارهم بعناية لكشف الحقائق • وكان أحد توجهات الجمعية هو التوجه لداخل القارة من الشمال ـ من طرابلس أو القاهرة ـ وقد أرسلت الجمعية السيد ليديارد Ledyard والسيد لوكاس Lucas للوصول الى النيجر انطلاقا من شمال القارة • وقد فشل كلاهما • والتوجه الثانى هو التوغل الى داخل أفريقيا من غمبيا ، وقد أرسلت الجمعية هوجتون Houghton الذى لاقى حتفه دون ارسال معلومات ، ومنجو بارك الذى نجا من أخطار جمة ونجح فى الوصول الى نهر النيجر عند مدينة سيجو Segu وعاد لساحل المحيط • وفى هذه الأثناء كان هورنمان Horneman يتخذ طريقه من القاهرة الى مرزوق Murzuk وكانت كل الاحتمالات تشير لوصوله للنيجر الا أنه مات دون أن يرسل أية يوميات الى الجمعية بعد مغادرته مرزوق • ومن هنا فقد كان الاحتفاء الشديد باكتشافات منجو بارك حتى ان الحكومة قدمت دعما لرحلة كشف أخرى فغادر انجلترا سنة ١٨٠٥ ووصل بارك الى النيجر ، وأعلن أنه يعتزم الابحار فى النيجر مع الأعضاء الأربعة الباقين على قيد الحياة من بعثته حتى يصل للمحيط •

اقتباسات من محاضر اجتماعات الجمعية الأفريقية
لتطوير كشف المناطق الداخلية فى أفريقيا
لندن ، ١٧٩٩ *

خطة الجمعية :

... لقد حدث بعض التقدم فى اكتشاف بعض أجزاء أفريقيا ، فقد أتاحت لنا رواية الدكتور سبارمان Sparman معلومات مفيدة ، كما أضاف اليها السيد باترسون Patterson بعد ذلك بقليل ، فتقريره عن رحلاته وملاحظاته فى الأجزاء الجنوبية من أفريقيا يتم طبعه الآن بالفعل ، واذا أتيحت نتائج رحلات الكولونيل جوردون Gordon القائد الحالى للكتائب الهولندية فى رأس الرجاء الصالح ـ فان الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة الأفريقية يكون بالفعل قد تم اكتشافه • ويقال ان السيد بروس Bruce يستعد لطبع تقريره عن الجانب الشرقى •

ومع هذا التقدم فى اكتشاف السواحل والأطراف ، فان خريطة المناطق الداخلية للقارة ما زال الجغرافى يتتبعها ـ من خلال كتابات الحسن بن الوزان Leo Africanus (٧٥) والشريف الادريسى Xeriss Edrissi المؤلف النوبى (٥٨) ـ بشكل غير مؤكد ، فثمة قليل من الأنهار لم يتم اكتشافها ، وإنم لسنا متأكدين من وجودها •

فنهر النيجر ، من حيث مجراه ، ومنابعه ، ومصبه ، بل حتى من حيث كونه نهرا مستقلا أم امتدادا لنهر آخر ـ كل هذا لسنا متأكدين منه • بل وحتى معلوماتنا عن نهرى السنغال وغمبيا لم تتقدم زيادة عما قدمه دى لابرو De la Brue ومور Moore ، ذلك أنه رغم انقضاء نصف قرن على اكتشافاتهما ، فان شلالات فيلو Falls of Felu على نهر السنغال وشلالات باركوندا Baraconda على نهر غمبيا ما زالتا هما حدا الاكتشافات •

كما اننا لم نستفد من المعلومات التى نعرفها منذ وقت طويل ، رغم أن سواحل غرب أفريقيا قد انتشر فيها الاسلام على نطاق واسع من مدار السرطان the tropic of Cancer الى خط الاستواء ، ورغم أن اللغة العربية التى يعرفها علماء الدين المسلمون فى كل مكان تتيح لنا وسيلة سهلة لجمع المعلومات عن غرب أفريقيا ، كما أن هؤلاء الأفارقة المسلمين لابد أن يكونوا عارفين بطرق تؤدى بهم الى مكة المكرمة لأداء

الحج وفقا لما يمليه عليهم دينهم · ورغم كل هذه الظروف التى تؤكد بشكل عملى أن داخل القارة الأفريقية معروف مطروق ويساعدنا على تنفيذ خططنا ، فما زلنا جاهلين بهذا الجزء الكبير من القارة مما يعد وصمة فى جبين عصرنا ·

··· لكل هذا عملنا على وضع خطة لتطوير كشف المناطق الداخلية للقارة ، والمحاضر التالية تبين طبيعة هذه الخطط ·

وانتهى الاجتماع فى نادى السبت فى التاسع من يونيو ١٧٨٨

الحضـــور :

ايرل جالواى / لورد رودون / الجنرال كونـواى / السـير آدم فيرجسون/ السير جوزيف باكس/ السير وليام فوردايز/ السيد بولتنى/ السيد بيفوى/ السيد ستيوارت ·

الغـــائبون :

أسقف لانداف / لورد كارى سبورته / السير جون سنكلير ·

القرارات :

— نظرا لأن جزءا كبيرا من أفريقيا ظـل غير مسـتكشف رغم جهود القدماء وتطلعات المحدثين ، فقد قرر أعضاء النادى أن يشكلوا من أنفسـهم جمعيـة للعمل على تطوير حركة الكشف الجغرافى داخل القـــارة ·

— ولتحقيق هذا الغرض فان على كل عضو أن يدفع خمسة جنيهات استرلينية كل عـام ولمدة ثلاث سنوات ، وعند نهاية هـذه الفترة أو بعدها يمكن لأى عضو الانسحاب من الجمعية بعد ابلاغها ·

— ويحق لكل عضو خلال الاثنى عشر شهرا الأولى بدءا من هذا اليوم أن يوصى بضـم أى من أصدقائه ، الذين يراهم مناسبين لتحقيق أغراض الجمعية — بالانضمام لجمعيتنا الجديدة هذه ، أما بعد هذا فان قبول أى عضو جديد يتم بالاقتراع السرى بين أعضاء الجمعية ·

— تتكون لجنـة من سكرتير وأمين صندوق وثلاثة أعضـاء مساعدين يتم اختيارهم جميعا بالاقتراع السرى ·

— ويناط بهذه اللجنة الاعداد للاجتماعات التالية ، واعلام الأعضاء به وسن القواعد ووضع الاجراءات اللازمة لتحقيق أهداف الجمعية ·

— يوكل لهذه اللجنة اختيار الأشخاص الذين سيرسلون لكشف داخل القارة الأفريقية ، بالاتفاق مع الجمعية ، كما يوكل لها مسألة التمويل ، أى تمويل الرحلات الكشفية ·

— ليس لهذه اللجنة أن تنشر نتائج ما يصل اليه المستكشفون الا لأعضاء الجمعية ·

— وفى حالة تلقي أية معلومات مهمة من المكتشفين الذين ترسلهم الجمعية ، تقوم السكرتارية باخطار الأعضاء لحضور اجتماع ·

— يقوم أمين الصندوق بعرض الميزانية (الايرادات والمصروفات) فى السبت الأخير من شهر مايو كل عام ·

— يتم انتخاب أعضاء اللجنة بالاقتراع السرى فى السبت الأول فى شهر مايو من كل عام ·

وقد تمت الموافقة على القرارات آنفة الذكر بالاجماع من كل الحاضرين وتم انتخاب أعضاء اللجنة المشار اليها وهم :

— اللورد رودون Rawdon

— الأسقف لانداف Landaff

— السيد بوفوى Beaufoy

— السيد ستيوارت Stuart

❀❀❀

وتلقت اللجنة عرضا من شخصين مؤهلين لتحقيق أهداف الجمعية ، فشرعت فى رسم الطريق لكل منهما على حدة ·

فبالنسبة للسيد ليديار Ledyard فقد حددوا له — بناء على رغبته — الوصول الى النيجر من الشرق قاطعا القارة الأفريقية من شرقها ، عند خط العرض الذى ان تتبعه وصل للنيجر فى غرب القارة ، وقد أوضحت له اللجنة مدى الصعوبة فى هذا الطريق ، لأنه سيقطع القارة من الشرق الى الغرب عند أكثر مناطقها اتساعا ·

أما السيد لوكاس فنظرا لمعرفته بلغة العرب وعاداتهم ، فقد كان الرأى هو الوصول للنيجر بعبور الصحراء الكبرى وأن يتخذ طريقا من طرابلس الى فزان ، فأعضاء الجمعية كانوا يعرفون معلومات مختلفة وأن المملكة الموجودة على النيجر ترتبط على نحو أو آخر بطرابلس ، وأن تجار أغادس Agadez وتمبكتو وغيرها من مدن الداخل الأفريقى ، يسلكون بانتظام وبشكل متتابع طرقا تؤدى الى طرابلس ودول الشمال الأفريقى ، كما أن زوار فزان والتجار الذين يترددون عليها قد يساعدونه فى الوصول للنيجر ، ومن هناك يتخذ طريقه عائدا الى غمبيا أو ساحل غينيا .

الا أن نقص الاعتمادات المالية عاقت انطلاق هذه البعثة الكشفية فلم يكن قد مضى على اعلان الجمعية أكثر من شهرين ، فقررت اللجنة تحصيل المبالغ المطلوبة مقدما فتم تجميع ٣٤٠ جنيها ، مكنت من تزويد بعثة السيد لوكاس بما هو ضرورى وتزويده بخطابات ضمان ، الا أن السيد لوكاس لم يغادر انجلترا الا فى السادس من أغسطس بسبب وعكة صحية ألمت به .

* * *

السيد لوكاس

MR LUCAS

فى يوم الأحد الأول من فبراير سنة ١٧٨٩ ، فى الساعة الثامنة والنصف صباحا غادر الأشراف الذين كان يصحبهم السيد لوكاس ــ المنطقة القريبة من طرابلس Tripoli وهى عبارة عن بستان يقع على بعد ثلاثة أميال من المدينة (طرابلس) ويملكه أحد التجار الطرابلسيين ، كان فى طريقه ــ معهم ــ الى فزان Fezzan ، وفى هذا البستان ناموا جميعا ومن معهم فى الليلة السابقة .

وكانت القافلة مكونة من الشريف فؤاد Fouwad وثلاثة تجار ، وكانوا جميعا يركبون خيولا ومسلحين تسليحا جيدا وشريف عجوز يركب حمارا ، والسيد لوكاس الذى كان يركب بغلا كان الباشا Bashaw (!) قد أعطاه له ، وخادم السيد لوكاس الذى كان يركب جملا وقد تسلح تسليحا جيدا ، واثنى عشر فزانيا يسيرون على الأقدام

لكنهم مسلحون وثلاثة زنوج وزوجاتهم ، وكان هؤلاء الزنوج عبيدا فى طرابلس ، لكنهم حصلوا على حريتهم ، وهم فى طريقهم الآن الى فزان ليعودوا الى وطنهم ، وخمسة عشر جمالا يقودون واحدا وعشرين جملا ، وكان كل واحد من هؤلاء الجمالة مسلحا ببندقية قديمة الطراز ومسدس .

وكان هذا العدد القليل جدا من الجمال ضروريا لاتمام هذا الجزء من الرحلة ، فهذه الجمال كانت هى الوسيلة الاقتصادية لنقل بضائع الأشراف الثقيلة جدا بحرا الى مصراتة Mesurata .

وفى الساعة الثانية عشرة مرت القافلة التى كانت تتخذ اتجاها شرقيا فجنوبيا شرقيا بين المدينة الى Tajarah ، التى تتكون من مجموعة بائسة من الأكواخ الطينية التى غطيت أسطحها بالقش وبها كثير من النخيل التى يتخللها قليل من أشجار الزيتون .

وفى الساعة الخامسة عسكرت القافلة فوق مرتفع رملى استعدادا للمبيت فى هذا المكان ، وسرعان ما أنزل الجمالة الأحمال من فوق جمالهم وتركوها لترعى فى بطن الوادى وفى التلال المجاورة ، ورغم أنهم أطلقوا لها العنان فانها لم تبتعد عن المعسكر بمسافة أطول من مائتى خطوة أو ثلاثمائة .

أما بالنسبة للأحمال فقد تم تنظيمها على هيئة دائرة ، ولم يتركوا فى محيط الدائرة الا فتحة ضيقة ، وداخل هذه الدوائرة بسط التجار والجمالة والخدم حصرهم (جمع حصيرة) وسجاجيدهم . وهنا أيضا أشعلوا نيرانهم وأعدوا طعامهم ، وناموا بعمق وكأنهم فى أسرتهم رغم أنهم لم يتغطوا الا بملاءات خفيفة ورغم كثافة الندى ، ورغم العواصف التى كانت أحيانا محملة بأمطار الساحل ، ولم يكونوا مزودين بخيام الا عدد قليل منهم .

ولما أقام السيد لوكاس خيمته لجأ اثنان من الأشراف وثلاثة من أصدقائهم للخيمة معه ، وبمجرد أن حضر طعام العشاء فى طبق خشبى كبير يضم لحما مجففا ومكرمية (كرات من عجين) ، حتى جلسوا متقاربين وغمسوا أياديهم اليمنى فى الطبق ، دون استخدام ملاعق أو شوك أو سكاكين ، والتهموا كل ما أمامهم من طعام .

وبعد أن أنهوا طعامهم راح كل واحد منهم يغمس يده فى الماء نفسه الذى غمس فيه الآخرون أيديهم . ولما حضرت القهوة أشعلوا

شيشهم (جمع شيشـة) وراح كل واحد منهم يشرب ثلاثـة فنـاجين أو أربعة أثناء التدخين ، ثم انطرحوا بملابسهم على الرمال ، وراحوا يثرثرون حتى ناموا ٠

[ولم يستطع السيد لوكاس أن يتابع رحلته الى أبعد من مصراتة Mesurata ٠ بسبب ثورة العرب ضد باشا طرابلس لذلك فقد عاد الى لنـدن] (*) ٠

ماجـــور هوجتـــون

MAJOR HOUGHTON

بعد نشر محاضر الجمعية التى تتنـــاول تطوير كشف المنـاطق الداخلية فى أفريقيا ، انقضى عامان ، وخلال هذين العامين تلقت لجنتهم من خلال سبل وقنوات محددة (محدودة وغير مترابطة) معلومات جديدة وغير مترابطة ٠

الشبينى المصرى :

فقد وصــــل الى علـم الجمعية تقرير من عربى اسـمه الشبينى Shabeni عن امبراطورية على ضفاف نهر النيجر ، وقد استرعت هذه المعلومات اهتمامهم البـاكر ، لأن الشـبينى ذكر أن سـكان الهوسـا Houssa عاصـمة هـذه الامبراطورية ــ حيث أقام لمـــدة عامين ــ وفقـا لما انتهى اليه علمه يساوون سكان لندن والقاهرة ، وقد وصف الشبينى بأسلوب صريح لا يتكلف البلاغة حكومة هذه الامبراطورية بأنها ملكية ، ولم يحدد لنـا نوع هذه الملكية ، ووصف طريقة تنفيذ العدالة عندهـم والصرامة وان كانت تسير وفقاً لشرائع مكتوبة ، وفيما يتعلق بملكية الأراضى تقـــوم بضبطها هيئـة يتولاها موظفـــون يتوارثون وظائفهم (الصرافون) وتناط بهم أعمـال مشابهة لأعمال هيئات الكانونجوز فى هندوستان Canongoes of Hindostan ، والمهام المعقدة والمهمة التى يقوم بها هؤلاء الكتبة (الصرافون) ، تشير الى أن هذه الامبراطورية قد وصلت لدرجة متقدمة من الحضارة والمدنية ٠

(*) ما بين القوسين تعليق المحرر ٠

وقد عبر الشبيني عن احترامه الفائق لأمانة تجارهم واستقامتهم ، لكنه لاحظ أن النساء مندمجات في المجتمع ومتحررات ومن هنا ، فان شرف الأزواج غير مصون ، وأنسابهم غير مؤكدة وقد عبر عن سخطه لهذا •

أما عن حروف الكتابة لديهم ، فلم يذكر غير أنها تختلف عن حروف الكتابة العربية والعبرية ، وان بين أن فن الكتابة شائع بينهم • وعندما تعرض لصناعة الفخار قدم تمثيلا للعجلة الاغريقية القديمة the ancient Wheel ، ولم يكن هو نفسه ــ كما قال ــ يعرف هذه الطريقة •

وعند مروره من الهوسا (٥٩) Houssa عبر تمبكتو (٦٠) التي أقام فيها سبع سنوات ، وجد المدن والقرى على ضفاف النيجر عامرة ومزدحمة بالسكان أكثر من المدن والقرى على ضفاف النيل من الاسكندرية للقاهرة ، وكانت أفكار غنى هذه الامبراطورية وثرائها وعظمتها تسيطر عليه بشدة ، فهي في رأيه تفوق كل الممالك الأخرى ــ ولم يستثن منها الا انجلترا •

وقد تأكد بشدة ما ذكره الشبيني عن وجود مدينة هوسا Houssa وامبراطورية الهوسا ، من خلال الخطابات التي تلقتها اللجنة من قناصل جلالة ملك بريطانيا في تونس ومراكش ، والتي حصلوا عليها من الطواشية والسراري eunuchs and the sergelio المجلوبين من الهوسا الى تونس ومراكش •

ورغبة في التأكد من صدق هذه التقارير ولتعجل اكتشاف المنطقة واكتشاف مجرى نهر النيجر ، مما يمكن تجارة بريطانيا من الوصول الى أمم ثرية عامرة بالسكان ــ قررت اللجنة ارسال بعثة استكشافية جديدة لغرب أفريقيا •

وقد عبر الماجور هوجتون Houghton ــ الذي كان فيما مضى قبطانا في الفوج رقم ٦٩ والذي عمل تحت رئاسة الجنرال روك Rooks سنة ١٧٧٩ ، كمسئول عن قلعة Fort major في جزيرة جوري Goree ــ عن رغبته في القيام بالمهمة التي خطط لها ، بالتوغل الى نهر النيجر عن طريق غمبيا •

وكانت المهمة المنوطة به هي التأكد من مجرى النهر الغامض (النيجر) ومعرفة مصبه اذا أمكن ، وأنه يعود ــ بعد أن يزور هوسا وتمبكتو عن طريق الصحراء أو أي طريق آخر تفرضه عليه الظروف •

وغادر ماجور هوجتون انجلترا فى ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٠ ، ووصل الى مدخل غمبيا فى العاشر من نوفمبر واستقبله ملك بارا Barra بترحاب ومودة ، وتذكر أن ماجور هوجتون كان قد زاره قبل ذلك قادما من جزيرة جورى Goree ، أما وقد عاد لزيارته فانه لابد يريد حمايته ومساعدته أثناء رحلته فى المناطق التى يمتد اليها حكمه أو نفوذه مقابل هدية بسيطة لا تزيد قيمتها عن عشرين جنيها • وقد تمكن الماجور هوجتون ومترجمه الذى تعاقد معه على الساحل ـ بفضل صاحب سفينة انجليزية كان يعمل فى التجارة فى نهر غمبيا ـ من التوغل الى جنكيكوندا Junkiconda ومن هناك اشترى من الأهالى حصانا وخمسة حمير واستعد للمرور ببضائعه التى تمثل ميزانية رحلته الى المدينة Medina عاصمة مملكة وولى Wooli الصغيرة •

ولحسن حظه أنه اكتشف من خلال كلمات قليلة تفوهت بها ـ عرضا ـ امرأة زنيجة بلغة الماندنجو ـ مؤامرة كان يحيكها التجار من أهل البلاد ضده خوفا من دوره التجارى الذى قد يجعل تجارتهم تبور ، لذلك فقد تهيب السفر فى الطريق المعتاد وخاض بحصانه وحميره المجارى المائية وابتعد بذلك عن الجماعات التى كانت تريد ايراده موارد التهلكة ، وتقدم بصعوبة شديدة على الشاطىء الجنوبى لنهر غمبيا فى منطقة تعرف باسم كانتور Cantor وهى مواجهة (فى الجانب المقابل) لمملكة وولى Woolli ، وهناك عبر نهر غمبيا مرة أخرى وأرسل رسالة للملك ليخبره بوصوله وليطلب منه حارسا لحمايته •

وسرعان ما أرسل الملك حرسا بقيادة ابنه واستقبل الماجور بكرم بالغ وحفاوة فى مدينة المدينة Medina .

تعليق المحرر :

[لكن بعثة الماجور هوجتون تعرضت للفشل • فبعد أن فقد بضائعه بسبب حريق شب فى المدينة ، استقبله ملك بوندو Bondo ببرود وسلبه ما بقى معه ، ولما خرج ـ أخيرا ـ من بامبوك Bambuk التى لقى فيها استقبالا طيبا على نحو ما ، لم يتقدم الى ابعد من جارا Jara وربما يكون أهل البلاد قد قتلوه فى هذه المدينة (جارا)] •

منجـــو بـــارك

MUNGO PARK

المحرر :

بعد موت الماجور هوجتون Houghton ، ظلت الجمعية الأفريقية تبحث دون طائل عن شخص مناسب وصالح لأداء مهمــة الكشف الجغرافي لارساله الى غــرب أفريقيا • وفي سنة ١٧٩٣ عاد منجو بارك من جزر الهند الشرقية ، حيث كان يعمل جراحا على احدى سفن شركة الهند الشرقية البريطانية وعرض خدماته على الجمعيــة ، وكان منجــو معروفا للســير جوزيف بانكز Banks ، أحد الأعضاء البارزين في الجمعية وسرعان ما تم قبول عرضه ، وانقضى عامان قبل أن تبحر الى غمبيا Gambia في مايو ١٧٩٥ •

والنص التــالي من رحلة منجو بـارك : رحـلات في المناطق الداخلية لأفريقيــا ١٧٩٥ ، ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ الطبعة الخامسة • لندن ، ١٨٠٧ •

مهمتي

كانت مهمتي واضحة ومحددة فقد وجهت عند وصولي الى أفريقيا الى تتبع نهر النيجر ، عن طريق بمبوك Bambuk أو أى طريق آخر أراه أكثر ملاءمة • وأن أتأكد من المجرى وأن أتابع النهر ــ ان امكنني ــ من منبعه الى مصبه ، وأن أبذل قصارى جهدى لزيارة المدن الرئيسية القريبة منه خاصة تمبكتو والهوسا Houssa وتكون لى الحرية في العودة الى أوروبا بعد ذلك سواء من غمبيا أو من أى مكان آخر وفقا للظروف •

وبعد أن قضيت فى غمبيا بعض الوقت مع الدكتور ليدلى Laidley ، الذى كان يـدرس لغة الماندنجو Mandingoes ويجمع معـلومات عن

الأجناس التي تسكن هذه الأنحاء غادرت بيسانيا Pisania (في غمبيا) لاكمال رحلتي الخطرة ٠

البـــــداية

في الثاني من ديسمبر ١٧٩٥ استأذنت الدكتور ليدلي شاكرا له كرمه ، وكان من حسن حظي أن يكون معي خادم زنجي يتحدث الانجليزية ولغة الماندنجو ، وكان اسمه جونسون Johnson وهو من أهـل هذه المناطق في أفريقيا ، وكان قد حمل الى جامايكا كعبد في شبابه وتم عتقه وأخذه سيده معه الى انجلترا فأقام بها سنوات طويلة ، وبعد فترة طويلة اتخذ سبيله الى بلده في غرب أفريقيا ٠ ولأنه كان معروفا للدكتور ليدلي Laidely فقد رشحه لي ليصحبني كخادم ومترجم مقابل عشرة بارات bars في الشـــهر يتم دفعهـا له ، بالاضـافة لخمســة بارات bars يتم دفعها لزوجته شهريا أيضا ـ أثناء فترة غيابه ٠ وأكثر من هذا ، فقد زودني الدكتور ليدلي بصبي زنجي من عنده (من ممتلكاته) اسمه دمبا Demba وهو صبي مفعم بالحيوية والنشاط ، يتحدث بالاضافة الى لغة المانـدنجو لغـة محليـة أخرى هي لغـة سيراوولي Serawoollies (وهي لغة مجموعة بشرية تعيش داخل بر غرب أفريقيا سنتحدث عنهم فيما بعد ويقيمون على ضفاف نهر السنغال) ٠ ولكي يحفز الدكتور ليدلي هذا الصبي على أن يتصرف معي تصرفا حسنا ، فقد وعده بعتقه وجعله حرا اذا ما قدمت عنه تقارير مرضية بعد عودتي ٠ وقد جهزت نفسي بحصان صغير الحجم لكنه قوي جدا ، ومفعم حيوية ، وقد كلفني سبعة جنيهات استرلينية وعشرة شلنات ، واشتريت حمارين : واحد لمترجمي والآخر لخادمي ٠ وكان متاعي خفيفـا لا يزيد عن مؤن تكفي ليومين ومجموعة صغيرة من الخرز المتبـاين الأشكال والألوان وعنبر وتوباكو للمقايضة عليها بطعام طازج ، ولما بدأنا الرحلة كنا قد قايضنا بما معنا بعض أقمشة من التيـل وبعض الملابس الضرورية ومظلة ، وكان معنـا سدسية يمكن الاحتفـاظ بها في الجيب a pocket Sextant وبوصـلة وترمـومتر ، وبنـدقية خفيفـة لصـيد الطيـور ومسـدسان وبعض الأدوات الأخرى الصغيرة ٠

وقد عرض علينا بعض أهل البلاد خدماتهم واصطحبونا في طريقهم حتى الأماكن التي كانوا يقصدونها ، ومن هؤلاء رجل مسلم اسمه ماديبو Madiboo كان في طريقه الى مملكة بمبارا Bambarra ، واثنـان

من تجار العبيد Slatees or Slave merchants من أمة (شعب) السيراوولى Serawoolli • وكانا مسلمين أيضا ، وكانا ذاهبين الى بوندو Bondou ، وقدم لنا الخدمات نفسها رجل زنجى اسمه تامى Tami (كان هو أيضا مسلما) وهو أحد مواطنى كاسون Kasson وكان قد عمل لبضع سنين كحداد بتوصية من الدكتور ليدلى ، وقد عاد لموطنه ومعه مدخراته من عمله • وكل هؤلاء الرجال آنفى الذكر كانوا يسافرون سيرا على الأقدام وقد جعلوا حميرهم تسير أمامهم •

وعلى هذا ، فقد تحلق حولى أكثر من ستة أشخاص عرف كل منهم أن يلاحظنى ويعاملنى باحترام فائق ، كما عرف أن عودته الآمنة مرة أخرى الى مناطق غمبيا تتوقف على الحفاظ على سلامتى •

مملكة وولى

THE KINGDOM OF WOOLI

الثانى من ديسمبر ١٧٩٥ ـ الوصول للمدينة :

المدينة Medina هى عاصمة المملكة التى وصلتها الآن (المدينة أو مدينة كلمة عربية مقابلها الانجليزى City والكلمة غير شائعة بين الزنوج وربما تكون الكلمة مستعارة من المسلمين) والمدينة ـ وهذا هو اسمها ـ متسعة بشكل كبير وربما كانت تضم ما بين ثمانمائة الى ألف مسكن • وهى محصنة ـ أى مدينة المدينة ـ على النسق الأفريقى بسور مرتفع من طين ، والسياج الخارجى مكون من أعواد مغروسة وشجيرات شائكة • لكن السور تعرض للاهمال أما السياج المكون من الأعواد والشجيرات الشائكة ، فقد تعرض للتخريب بسبب قيام النسوة بقطعه لاستخدامه كحطب للوقود •

وقد أقمت فى منزل أحد أقرباء الملك الذى نصحنى بعدم مصافحة الملك عند تقديم نفسى له ، فهذا أمر غير معتاد بالنسبة للغرباء • وقد وضعت ذلك فى اعتبارى عندما ذهبت للملك لاظهار احترامى له ولاستأذنه فى المرور فى المنطقة حتى بوندو Bondou • لقد كان اسم الملك جاتا Jatta • لقد كان هو الملك العجوز الوقور نفسه الذى تحدث عنه ـ بتعاطف ـ الماجور هوجتون Houghton • لقد وجدته جالسا على حصير أمام باب كوخه وقد اصطف عدد من الرجال والنساء على كل جانب من جانبيه وهم يغنون ويصفقون بأيديهم ،وقد حييته باحترام وأخبرته بهدف زيارتى فرد على تحيتى بكرم ولطف ولم يكتف بالاذن لى بالمرور

عبر هذه المنطقة وانما دعا لى بالتوفيق والسلام • ويبدأ أحد الحاضرين ـ متجاوبا فيما يبدو مع اللطف والكياسة اللذين أبداها الملك ـ بالغناء (والأقرب للصحة أنه بدأ فى الزئير) وكانت الأغنية باللغة العربية ، وعند نهاية كل مقطع من مقاطع الأغنية كان الملك نفسه وجميع الحاضرين يضربون جباههم بأيديهم ويقولون بتأثر ووقار : آمين •• آمين •• • وقد أخبرنى الملك ـ بالاضافة لهذا ـ أنه يتعين على أن أصطحب دليلا فى اليوم التالى ليقودنى بأمان وسلام حتى حدود مملكته • وبعد ذلك استأذنته ، وفى المساء أرسلت له بناء على نصيحة الدكتور ميدلى ثلاثة جالونات من الروم rum وتلقيت منه فى المقابل كمية كبيرة من المؤن •

السادس من ديسمبر (١٧٩٥) :

وفى الصباح الباكر من اليوم السادس من شهر ديسمبر ذهبت ـ للمرة الثانية ـ للملك لأسأله ان كان الدليل الذى سيصحبنى لحدود المملكة ـ جاهزا ، وقد وجدت عظمته جالسا على جلد ثور وأمامه نار كثيرة يستدفىء بها ، فأهل أفريقيا حساسون جدا لأى تغيير فى درجة الحرارة وسرعان ما يشكون من البرد فى الوقت الذى يحس فيه الأوربيون بالحرارة الشديدة • واستقبلنى الملك مشجعا وحاول أن يثنينى عن هدفى وهو التوغل فى المناطق الداخلية ، وقال لى ان الماجور هوجتون Houghton قد لقى حتفه فى هذا الطريق وأننى اذا سرت على خطاه فربما لاقيت مصيره نفسه ، وقال لى اننى لا يجب أن أظن أن الناس فى الشرق (فى الداخل) مثل الناس فى مملكة وولى Wooli فأهل وولى يعرفون الرجل الأبيض ويحترمونه ، أما أهل المناطق الشرقية (الداخلية) فلم يروا من قبل رجلا أبيض ، وقد يقتلوننى ، وقد شكرت الملك على قلقه وعطفه لكننى أخبرته أننى قدرت الأمر ووضعت جميع الأخطار فى اعتبارى • فهز الملك رأسه وأخبرنى أن الدليل سيكون جاهزا بعد الظهر •

وداع الملك الطيب :

وحوالى الساعة الثانية ظهر الدليل ، فذهبت لمقابلة الملك العجوز الطيب لوداعه قبل الرحيل، وفى غضون ثلاث ساعات وصلنا الى كونجور Konjour وهى قرية صغيرة قضينا فيها الليل • ومن هذه القرية اشتريت خروفا جيدا ببعض الخرز ، وقام السيراوولى بذبحه وفقا لشعائر دينهم ، وتم احتجاز جزء منه للعشاء وبعد ذلك شب نزاع بين أحد زنوج السيراوولى ومترجمى جونسون ، حول أحقية كل منهما فى

قرنى الخروف ، فالأول ادعى أحقيته بالقرنين لأنه قام بدور الجزار ، وأن القرنين ـ بناء على ذلك ـ يعدان بمثابة أجر له ، وقد فند جونسون هذا الادعاء • وقد فضضت النزاع بأن أعطيت كل واحد منهما قرنا • وقد ذكرت هذه الحادثة التافهة تمهيدا لما سأذكره بعد ذلك •

قرون الخراف والتمائم والتعاويذ (السافيز) :

يبدو أن لهذه القرون قيمة عـالية لاستخدامها فى عمل التمائم والتعاويذ التى يطلقون عليها سافيز Saphies والتى يضعها الزنوج حول أجسامهم ، وتضـم هذه الأحجبة والتمائم بضـع آيات من القرآن الكريم ، التى يكتبهـا بعض الشـيوخ المسلمين على قصاصات من ورق ويبيعونها للبسطاء من أهل البـلاد الذين يعتبرونها ذات تأثير كبير • وبعض الزنوج يضعون هذه الأحجبة حول أجسامهم لتقيهم عضات الأفاعى والتماسيح • ومما يذكر بهذه المناسبة أنهم عادة ما يربطون هذه الأحجبة (السـافيز) حول كواحل أقدامهم بجلد أفعى أو تمساح • وبعضهم يستخدمها أثناء الحروب لتقيهم أسلحة الأعداء ، لكن الاستخدام الشائع لهذه التمائم والأحجبة هو الوقاية من الأمراض وللوقاية من آلام الجوع والعطش واسترضاء القوى العليا ، طلبا لتأثيرها الطيب على ظروف الحياة وأحداثها •

السحر والكتابة :

ومن غير الممكن ألا نعجب من التأثير المذهش للخرافة ، فغالب الزنوج على الوثنية ويرفضون تماما العقيدة الاسلامية ولم ألتق بانسان سواء أكان مسلما Bushkreen ، أم كافرا الا ويؤمن ايمانا قاطعا بجدوى هذه التعاويذ والأحجبة • الحق أن كل أهل البلاد فى هذه الأنحاء يعتبرون الكتابة أمرا مرتبطا بالسحر وأنها ـ أى الكتابة ـ ليست من سنة النبى (صلى الله عليه وسلم) وانما هى من عمل السحرة •

السابع والثامن من ديسمبر

النعبع لحماية المدن وضمان تبعية الزوجات لأزواجهن

وفى السابـــع من ديسمبر غـــادرت قرية كونجور Konjour ونمت فى قريـــة مالا (مالينج Mallaing) وفى الثـامن من ديسمبر حوالى الظهر ، وصـلت الى كولور Kolor وهى مدينـة كبيرة لاحظت

بالقرب من مدخلها نوعا من الألبسة التنكرية Masquerade مصنوعة من اللحاء معلقة على الشجر ؛ ولما استفسرت عنها ، قيل لى انها شىء ذو صلة بالممبو جمبو Mumbo Jumbo ، وهو بمثابة « بعبع bugbear » موجود فى مداخل كل مدن الماندنجو ويستخدمه كل الوثنيين من أهل البلاد لضمان تعلق نسائهم بهم (الضمان ولاء نسائهم لهم وعدم خروجهن عن طوعهم) ، فالكفرة Kafirs يتزوج الواحد منهم أى عدد من النساء دون حد أقصى طالما كان قادرا على الاحتفاظ بهن ، ولما كان النزاع ينشب بين النسوة بين الحين والآخر ، فان المعارك تقوم داخل الأسرة الواحدة وتصل الى ذروتها بحيث لا يستطيع الزوج الاحتفاظ بسلطانه عليهن ولا يستطيع فرض السلام داخل بيته (بين أفراد أسرته) • وفى مثل هذه الحالات يعتبر تدخل البعبع أو الممبو جمبو Mumbo Jumbo أمرا ضروريا ، ودائما ما يكون حاسما •

ويتنكر محقق العدالة (من المفترض أنه الزوج أو شخص تلقى تعليماته من الزوج) فى زى الممبو جمبو (البعبع) آنف الذكر ، ويتسلح بعصا معدنية كرمز للسلطة العامة ، ويعلن عن مقدمه (عندما تصبح خدماته مطلوبة وقدومه ضروريا) بصرخات مدوية فى الغابة أو الأحراج القريبة من المدينة ويبدأ فى التعبير عما يريد قوله بالايماءات (التمثيل الايمائى ـ البانتومايم) عند اقتراب الليل ويدخل الى البنتانج Bentang وسرعان ما يجتمع كل السكان لاستطلاع الأمر •

ومن السهل أن يفترض الانسان أن هذا العرض غير مستساغ بالنسبة للنساء ، لأن الشخص المتنكر فى ثياب البعبع (ممبو جمبو) غير معروف يقينا بالنسبة لهن ، فكل امرأة متزوجة تفترض أنها هى المقصودة بزيارة البعبع (الممبو جمبو) ولكنهن لا تجرؤن على رفض الظهور عند توجيه الدعوة • وتبدأ الطقوس البعبعية (الممبو جمبوية) بالأغانى والرقص ويستمر ذلك حتى منتصف الليل • وفى حوالى هذا الوقت (منتصف الليل) يركز الممبو (البعبع) على المذنبة (الآثمة) وتتم محاصرة الضحية البائسة فى الحال ، وتجرد من ملابسها لتغدو عارية وتربط ويهوى عليها الممبو بعصاته بقسوة ووحشية وسط صياح الجميع وسخريتهم • ويلاحظ أن النسوة يكن هن الأعلى صياحا وشماتة فى أختهن البائسة ، ويظل البعبع (الممبو) يضرب ويضرب حتى يطل نور الصباح فيضع نهاية لهذا العقاب الذى يدل على القسوة وقلة الشهامة •

٢١ ديسمبر ١٧٩٥

وفي صباح الواحد والعشرين من شهر ديسمبر اتفقت للحصول على قارب Canoe لنقل أمتعتي ، وعبرت النهر الذى وصل ماؤه الى ركبتي وأنا راكب حصاني ، وكان الماء رائقا جدا حتى انه يمكن رؤية قاع النهر عندما يكون المرء واقفا على الشاطيء •

وعند الظهر تقريبا دخلنا فاتكوندا Fatteconda عاصمة بوندوى Bondou ، وبعد فترة يسيرة تلقيت دعوة لمنزل واحد من أهل البلاد فليس هناك مبنى عام (مبنى حكومى) واحد فى أفريقيا ، فقد اعتاد الغرباء أن يقفوا فى البنتانج Bentang أو أى مكان يتردد عليه الناس بكثرة حتى يتلقوا دعوة للاقامة عند أحد السكان • وقد قبلنا الدعوة ، وبعد ذلك بساعة أتانى شخص يخبرنى أنه قادم ليذهب بى للقاء الملك الذى يرغب فى رؤيتى فورا اذا لم أكن أعانى من ارهاق شديد •

واصطحبت مترجمى معى وتبعت مبعوث الملك حتى أصبحنا خارج المدينة تماما وعبرنا بعض حقول القمح (أو الذرة) واعترانى شك مفاجيء فتوقفت وسألت الدليل : أين نحن ذاهبون ؟ فأشار الى رجل يجلس تحت شجرة على مسافة غير بعيدة وقال ، ان الملك يفضل الاقامة فى مكان منعزل فى بعض الأحيان تجنبا لزحام الناس وأن أحدا ما لن يقترب منه الا أنت ومترجمك • وعندما تقدمت أبدى الملك رغبة فى أن آتى وأجلس الى جواره على الحصيرة ، وبعد أن سمع أخبارى لم يبد أية ملاحظات لكنه سأل عما اذا كنت أرغب فى شراء أى عبيد أو بضائع ، ولما سمع اجابتى بالنفى أبدى دهشة واستغرابا ومع هذا ، فقد أبدى رغبة فى أن أعود اليه فى المساء ليقدم لى بعض المؤن •

وهذا الملك يسمى ألمامى Almami وهو اسم مغربى Moorish (بربرى) ، رغم أنهم يقولون انه ليس مسلما ، بل كافر Kafir من الوثنيين • وكنت قد سمعت أنه قد تصرف بجفاء شديد مع الماجور هوجتون وتسبب فى نهبه وسلبه • ومع أن تصرفه معى فى هذه المقابلة كان أكثر تحضرا ، الا أن ذلك لم يبعد توجس الشر عن نفسى • ولما كنت الآن فى قبضته تماما ، فقد فكرت ووجدت أن أفضل وسيلة لتمهيد طريقى هى تقديم هدية له ، لذلك فعندما ذهبت اليه فى المساء أخذت معى علبة بارود وبعض العنبر وبعض التوباكو ومظلتى ، ولأننى كنت أتوقع

أن يتم تفتيش متاعي ، فقد خبأت بعض الأدوات البسيطة في سقف الكوخ الذي أقيم به ، ولبست معطفي الأزرق الجديد حتى أضمن احتفاظي به ٠

وكل منازل هذا الملك وكذلك منازل أفراد أسرته محاطة معا بأسوار طينية عالية مما يجعلها تشبه قلعة كبيرة ٠ أما في الداخل فان هذا المجمع السكني للملك وأسرته مقسم الى قاعات Courts ، ففي الموضع الأول في المدخل يقف رجل حاملا على كتفه بندقية قديمة الطراز Musket ، وجدت الطريق المؤدي لجلالته معقدا من الصعب استيعابه فلابد للمرء من المرور في ممرات كثيرة وعند كل باب في هذه الممرات يقف حرس،وعند وصولنا الى مدخل القاعة التي يقيم بها الملك خلع مترجمي ودليلي نعالهما ، وفقا للعادات المتبعة في تلك المنطقة وراح الدليل يردد اسم الملك مرات عديدة حتى أجابه وهو داخل القاعة ، ولما دخلنا وجدنا الملك جالسا على حصيرة ومعه شخصان ، فأعدت على مسامعه ما سبق أن قلته له عن هدف رحلتي وعن سبب مروري ببلاده ٠ وبدا — على أية حال — غير مقتنع تماما ففكرة الرحلة حبا للاستطلاع ورغبة في المعرفة كانت فكرة جديدة تماما بالنسبة له ٠

البيض تجار دائما :

فقد كان الملك يرى أنه من غير الممكن أن يتكبد أي انسان مشاق السفر ويعرض نفسه للأخطار لمجرد رؤية البلاد والسكان ٠ وعلى أية حال ، فعندما أريته عينات مما أحمله وكل ما يتعلق بي بدا مقتنعا وتأكد شكه ، بل وأصبح موقنا تماما أن كل رجل أبيض لابد أن يكون تاجرا ٠ وعندما قدمت هديتي له بدا مسرورا تماما ، وأبدى بهجة خاصة بالمظلة فراح يطويها ويبسطها مرات عديدة ٠ وهو يبدي استغرابه بشدة ، وأبدى الشخصان الآخران الحاضران استغرابهما الشديد أيضا ، وبدا لفترة غير فاهم لكيفية عمل هذه الآلة (المظلة أو الشمسية) ٠وبعد هذا كنت على وشك الاستئذان الا أنه رغب الى في البقاء لحظة وبدأ مقدمة طويلة في مدح البيض وأفرط في ذكر ثرائهم ومدح صفاتهم ، وراح بعد ذلك يبدي اعجابه الشديد بمعطفي الأزرق واسترعت أزراره الصفراء اهتمامه على نحو خاص ، واقترح على أن أهديه له وأكد لي — ليعزيني عن فقده — أنه سيلبسه في الاحتفالات والمناسبات العامة ، وأنه سيقول لكل من يراه أنه هدية مني مما يدل على كرمي ٠ ولما كان من غير المألوف أن يرفض غريب طلب ملك ، ولما كنت في قبضته ويستطيع أن يجبرني على تسليمه له — فقد وضعت كل ذلك في إعتباري وخلعت معطفي ووضعته تحت قدميه ٠

خاف الملك من فصد دمه :

وعند عودتى أهدانى قدرا كبيرا من المؤن وأبدى رغبة فى رؤيتى مرة أخرى فى الصباح ، فحضرت اليه فى الصباح فوجدته جالسا على سريره ، وأخبرنى أنه مريض وأبدى رغبة فى أن أجرى له فصدا لدمه (أن أسحب قليــلا من دمه) فلم أتوان عن ربط ذراعــه وأظهرت مبضعى (مفصدى ــ بكسر الميم وتشــديد الفــاء Lancet) وعندئــذ خانته شجاعته وطلب منى متوسلا أن أؤجل العملية الى ما بعد الظهيرة ، لأنه شعر بتحسن ــ على حد قوله ــ عما كان عليله قبل ذلك وشكرنى للطفى واستعدادى لخدمته •

هل نقعتنى امى فى الحليب ؟

وقد لاحظ الملك أن نساءه كن تواقات لرؤيتى وطلبى أن أوثرهن بزيارتى ، فأصدر الملك أمرا لبعض الحاضرين ليقودونى اليهن ، فدخلت دون توان الى القــاعة المخصصــة للنســاء فأحطن بى ، وطلب بعضــهن مركبات دوائية ، وطلبت أخريات عنبرا ، وكن جميعا راغبات فى فصد دمائهن وهو علاج أفريقى مشهور • لقد كن عشر نساء أو اثنتى عشرة • وكلهن شابات وجميلات ويضعن فوقه رءوسهن حليا ذهبية وحبات عنبر •

امتدحت الأنوف الأفريقية الفطساء :

وقد مازحننى بكثير من الحكايــات المسلية فى مواضــيع شتى ، وتحدثن على نحو خاص عن بياض بشرتى وبروز أنفى ، وأصررن على أنهما ــ أى بياض بشرتى وبروز أنفى ــ أمران غير طبيعيين ، فبياض بشرتى يرجع الى أن أهلى قد غمســونى فى الحليب بعد ولادتى ، أما أنفى فقد كان أهلى يجذبونه الى الخارج كل يوم حتى اتخذ هذا الشكل غير الأفطس• أما من ناحيتى فلم أعلق على ما قلنه بالنسبة لأنفى وبشرتى ، وانما رحت أمتدح بشدة الجمال الأفريقى فرحت أبدى اعجابى بجلودهن الصقيلة اللامعة الفاحم سوادها وأنوفهن الفطساء الجميلة ، ولكنهن قلن ان المديح (أو التملق flattery) أو كمــا عبرن « الكــلام الشــبيه بالعســل أو الفم الذى ينقط عسلا honey-mouth » ليس من الأمور المطلوبة فى بوندو Bondou • وعلى أية حال ، فقد أهدييننى ــ زدا على اطرائى لهن ــ جرة من عسل النحل وبعض السمك وأمزن بارسالها لى الى مكان اقامتى، ورغبن الى أن أعود لزيارة الملك مرة أخرى قبل الغروب •

وقد حملت معي عند زيارة الملك بعض الخرز وورقا للكتابة ، فقد جرت العادة أن يقدم المرء بعض الهدايا الصغيرة عند الاستئذان في الرحيل، وقد أهداني الملك مقابل ذلك خمسة دراهم drachms (؟) من الذهب وهو مقدار تافه وعبر عن مودته لي قائلا ، ان هذا القدر يفيدني في شراء المؤن أثناء الرحلة وأخبرني – بأدب – أنه بالرغم من أن العرف قد جرى على تفتيش أمتعة كل من من يمر ببلاده ، الا أنه يعفيني من ذلك ويترك لي حرية مغادرة بلاده في أي وقت أريده .

وعلى هذا ، فانني غادرت فاتيكوندا Fatte Conda في صباح الثالث والعشرين من شهر ديسمبر ، وفي حوالى الساعة الحادية عشرة وصلت الى قرية صغيرة حيث قررنا البقاء للراحة ، وبعد الظهيرة أخبرني رفاق السفر أن هذه القرية تمثل الحدود الفاصلة بين بوندو Bondou وكاجاجا Kajaaga وأنها منطقة خطرة بالنسبة للمسافرين وقد يكون من الضروري أن نتابع السفر ليلا حتى نصل الى منطقة أكثر أمنا . ووافقت على هذا الاقتراح واستأجرت دليلين يرشداننا أثناء سيرنا في الغابات ، وشرعنا في السفر بمجرد أن نام أهل هذه القرية التي تمثل الحدود بين المملكتين ، وكان القمر متلألئا .. لقد جعل المنظر وقورا ومؤثرا : ركود الهواء وأصوات الحيوانات المتوحشة وعزلة الغابة . ولم ينبس أحدنا ببنت شفة الا همسا ، فقد كنا جميعا متوترين منتبهين ، وراح كل واحد يبدي حكمته وذكاءه لي بأن يشير الى الذئاب والضباع التي تنسل كالظلال من شجرة لأخرى .

الوصول الى قرية كيمو Kimmoo

وفي الصباح وصلنا لقرية كيمو ، حيث أيقظ أدلتنا واحدا من معارفهم وتوقفنا لنقدم للحمير بعض الذرة ولنشوي بعض الفول السوداني Grand nuts لأنفسنا ، ثم واصلنا مسيرنا حتى وصلنا – بعد الظهيرة – الى قرية جوج Joeg في مملكة كاجاجا Kajaaga .

ولأننا أصبحنا الآن في بلد جديد (مملكة جديدة) وبين شعب مختلف في كثير من الجوانب عن الشعب الذي تركناه لتونا في بلاد بوندو ، لذا فسأتوقف عن الاستطراد حتى أقدم للقارىء تقريرا عن بوندو (التي غادرناها) وسكانها من الفوله (بفتح الفاء والواو) Foulah .

عودة للحديث عن مملكة بوندو :

يحـد بوندو من الشرق بمبوك Bambouk ، ويحدها من الجنوب الشرقي والجنوب تندا Tenda وبراري سمباني Simbani Wilderness ويحدها من الجنوب الغربي وولي Wooli ويحدها من الغرب فوتـاتور Foota Torra ويحدها من الشمال كاجاجا Kajaaga .

ومملكة بوندو تشبه مملكة وولي Wooli تغطي الغابات معظمها ، لكن أرضها أكثر ارتفاعا بل وتصبح تلالا مرتفعة ونحن في اتجاه نهر فاليمي Faleme • وفيما يتعلق بخصوبة الأرض فالقرية هنـا ليست شديدة الخصوبة ، وأعتقد أن هذا هو الوضع في سائر أنحاء أفريقيا •

بين نهري غمبيا والسنغال :

ومن موقع بوندو المتوسط بين نهر غمبيا ونهر السنغال • يصبح المكان بمثابة ملاذ (ملجأ) كبير لكل من تجار الرقيق ، الذين يمرون عادة به أثناء قدومهم من الساحل ذاهبين للمناطق الداخلية ، والتجار الموسميين الذين يأتون هنا من المناطق الداخلية لشراء الملح •

ويدير الماندنجو والسيراوولي المستقرون في المنطقـة هـذه التجارة المتنـوعة ، ويتاجر هؤلاء التجار أيضا مع جديوما Gediumah (لعـلها غدامس ؟!) وغيرها من بلاد البربر ويقايضون القمح والأقمشة القطنية الزرقاء بالملح ، ويقايضون القمح والأقمشة آنفة الذكر مرة أخرى بالدنتيلا والأدوات الحديدية والزبد وكميات قليلة من التبر (تراب الذهب) ، ويبيعون أيضا بخورا (أصماغا ذوات رائحة طيبة) في حقـائب صغيرة تحوي كل حقيبة منها حوالي الرطل • وينثر هذا الصمغ (البخور) على جمرات ملتهبة فينتج عن ذلك رائحة طيبة يستخدمها الماندنجو في تعطير أكواخهم وملابسهم • أما الجمارك (الرسوم) المفروضة على المسافرين فمرتفعة جدا ، ففي معظم المدن يتم دفع بار bar عن كل حمل حمار من البضائع الأوربية • وفي فاتيكوندا Fatteconda نجد أن المقر الملكي يحصـل كضريبة عامة : قطعـة قماش هنـدي indian baft (؟) أو بندقية musket وست زجاجات مليئة ببارود البنادق • وعن طريق هذه الضرائب (والجمارك والرسوم) يزود ملك بوندو نفسه تزويـدا جيـدا بالأسلحة والذخائر ، مما يجعل الدول (الممالك المجاورة تخشاه وتهابه •

حديث عن الفولة (الفولانى) (٦٢) :

ويختلف السكان فى طباعهم وعاداتهم الوطنية عن الماندنجو والسيراوولى ، لذا فهم أى السكان من أهل بوندو ، يخوضون حروبا متتالية مع هؤلاء الماندنجو والسيراوولى • ومنذ عدة سنوات عبر ملك البوندو نهر فاليمى Falemé بجيش كثيف وبعد معركة قصيرة ودموية الحق هزيمة ساحقة بقوات سامبو Samboo ملك بابموك Bambouk الذى اضطر للتوسل طلبا للسلام وتنازل لملك البوندو عن كل المدن الواقعة على الشاطئ الشرقى لنهر فاليمى Falemé .

والفولة (بفتح الفاء والواو) بشكل عام ذوو سحنة سمراء مصفرة وملامحهم دقيقة وشعرهم ناعم حريرى ، وهم – بعد الماندنجو – أكثر الشعوب (الجماعات) أهمية فى هذا الجزء من أفريقيا • ويقال ان موطنهم الأصلى هو منطقة فولادو Foolado وهى كلمة تعنى بلاد الفولة (بفتح الفاء والواو) ، ولكنهم يمتلكون حاليا كثيرا من الممالك الأخرى متباعدة عن بعضها تباعدا كبيرا • وعلى أية حال ، فان ملامحهم ليست واحدة – تماما – فى المناطق المختلفة ، سواء فى بوندو أم فى الممالك الأخرى التى أقمنا فيها بالقرب من حدود بلاد البربر Moorish territories ، فالفولة القريبون من الحدود البربرية أكثر صفرة من الفولة المقيمين فى الدول التى تقع الى الجنوب منها •

والفولة فى بوندو يميلون للاعتدال واللطف ولكن مبادئ القرآن (الكريم) غير المتشددة جعلتهم أقل كرما مع الغرباء ، والفولة أكثر تحفظا فى تصرفاتهم مع الغرباء من الماندنجو • والفولة يعتبرون كل الشعوب الزنجية أدنى منهم منزلة ، وعند حديثهم عن الشعوب أو الأمم المختلفة يدرجون أنفسهم ضمن الشعوب البيضاء (غير الزنجية) •

حكومة الفولة :

وتختلف حكومة الفولة عن حكومات الماندنجو فى أنهم أكثر صرامة فى تطبيق الشريعة الاسلامية ، فكل زعماء الفولة Chiefmen (باستثناء الملك) والغالبية العظمى من سكان بوندو من المسلمين ، ينظرون لسلطة الشريعة وتعليمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) (*) باعتبارها أمرا حاسما لا يفكر أحد فى تجاوزه • وعلى أية حال ، فعند ممارستهم لامور

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

عقيدتهم وشريعتهم ، فانم لا يتعصبون بشدة ضد مواطنيهم (من غير الفولة) الذين مازالوا محتفظين بخرافاتهم القديمة . والفولة لا يعرفون الاضطهادات الدينية فالاضطهاد الديني أمر غير ضروري بالنسبة للمسلمين ، لأن دين محمد (صلى الله عليهم وسلم) له القدرة على الانتشار بوسائل أكثر فعالية بكثير من الاضطهاد الديني ، وذلك بانشاء كتاتيب (مدارس صغيرة) في المدن المختلفة ، حيث يتعلم الأطفال الوثنيون والمسلمون قراءة القرآن (الكريم) وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويركز علماء الدين المسلمون على الجوانب العقلية وصياغة حياة وشخصية تلاميذهم ، بحيث لا يمكن بعد ذلك تغييرها أو تعديلها . وقد زرت كثيرا من هذه المدارس الصغيرة (الكتاتيب) أثناء تقدمي في المنطقة ، ولاحظت بسعادة ما يتحلى به التلاميذ من طاعة مطلقة وودت من كل قلبي أن لو كانوا يتلقون دروسا أفضل ودينا أنقى .

صلة اللغة العربية بالاسلام :

وقد دخلت اللغة العربية هذه الأسماء مع دخول الدين الاسلامي لذلك ، فالفولة (بفتح الفاء والواو) يعرفون هذه اللغة على نحو ما (بشكل سطحي غير عميق) . أما لغتهم الوطنية فهي لغة سلسة لكن شيئا لا يدعو للسرور يوجد في طريقة نطقها ، فالغريب اذا سمع شخصين من الفولة يتحدثان بلغتهما الوطنية ، ظن أنهما يتشاحنان أو يتعاركان . وفيما يلي الأرقام من الواحد الى العشرة بلغة الفولة :

١ ـ جو	Go
٢ ـ ديدى	Deddeé
٣ ـ تيتى	Tettee
٤ ـ نى	Nee
٥ ـ جوى (بتعطيش الجيم)	Jededdee
٦ ـ جيجو (بتعطيش الجيم)	Jouee
٧ ـ جديدة (بتعطيش الجيم)	Jededdee
٨ ـ جى تيتى (بتعطيش الجيم)	Je tettee

٩ ـ جى نى (بتعطيش الجيم) Je Nee

١٠ـ سابو Sappo

وتفوق الفولة فى أعمال الرعى والزراعة أمر يسترعى النظر، فحتى على شاطىء نهر غمبيا فمعظم حقول القمح (أو الذرة) لهم وقطعانهم أكثر عددا وأجود نوعا من تلك التى يمتلكها الماندنجو ، وهم فى بوندو Bondou ذوو ثراء عريض ويستمتعون بكل ضرورات الحياة وينفقون ببذخ ، ويظهرون مهارة كبيرة فى ادارة قطعانهم مما يجعلها أليفة مطيعة ، وعند اقتراب الليل يجمعون هذه القطعان من الغابات ويضعونها فى زرائب يسمونها كرى Korrees (٦٣) وتقام هذه الزرائب بالقرب من القرى ، وفى وسط كل زريبة (كرى) يوجد كوخ صغير يقيم به راع أو راعيان لحراسة القطعان ليلا خوفا من تعرضها للسرقة ، ولاشعال النيران حول الزريبة والمحافظة على استمرار اشتعالها ، لاخافة الحيوانات المتوحشة ومنعها من الاقتراب .

ويحلب الفولة قطعانهم صباحا ومساء ، والحليب الذى تدره قطعانهم ممتاز ، وهم يستخدمونه كغذاء ولا يتركونه حتى يتحول الى روب (زبادى) تماما . والقشدة المستخلصة منه سميكة جدا ويستخرجون منها الزبد بخضه (تحريكه) فى يقطينات ضخام (٦٤) large-Calabash وبعد ما يسخن هذا الزبد تسخينا طفيفا للتخلص من بعض الشوائب يحفظ فى جرار فخارية صغيرة ، ويمثل الزبد جزءا فى معظم وجباتهم ، كما يستخدمونه لدهان رءوسهم وأحيانا أيديهم وأذرعهم .

ورغم وفرة الحليب ، فان الفولة بل وكل سكان المنطقة لا يعرفون فن صناعة الجبن . ولشدة ارتباطهم بالأسلاف فانهم ينظرون بكراهية لكل ما يعتبرونه بدعة أو أمرا جديدا .

وهم يمتلكون ـ بالاضافة للمواشى التى تعتبر هى ثروتهم الرئيسية ـ خيولا جيدة . ويبدو الفولة كعنصر مخلط من العرب والأفريقيين .

* * *

المحرر :

وبعد أن مر منجو بارك عبر كاجاجا وبلاد السيراوول، وتحدث عن تجارة الذهب والعبيد ، وصل بارك الى كاسون Kasson ، حيث عامله ملكها بود وسمح له بالمرور ليصل الى كارتـــا Kaarta .

كارتـــا *KAARTA*

ظنونى ملكا هبط من السماء :

غادرنا كارانكالا Karankalla صباح الثـــانى عشر من شـــهر فبراير ووصلنا الى كيمو Kemmoo بعد رحلة نهارية قصيرة ، لقد كنا نسير ببطء أكثر من المعتاد ، وكنا نسلى أنفسنا أثناء الطريق بجمع الفاكهة من الأشجار القريبة من جانبى الطريق ، وقد حدث أن ابتعدت قليلا عن رفاقى ، ولم أعد متأكدا ان كانوا أمامى أم خلفى ، فارتقيت أرضا مرتفعة ليرونى ، وبينما كنت فى طريقى لهذا المرتفع أقبل من بين الأشجار زنجيان على حصانين ، وكانا مسلحين بالبنادق ، ولما رأيتهما توقفت تماما ، فتوقفا هما بدورهما تماما ، وراحا ينظران الى بدهشة وقد بدت عليهما ملامح الارتباك ، ولما تقدمت منهما ازدادا ارتباكا وخوفا ، وقد ولى أحدهما هاربا بأقصى سرعة بعد أن ألقى على نظرة ملؤها الفزع ، أما الآخر فقد ألجمه الفزع فوضع يديه فوق عينيه وراح يتمتم بصلوات وأدعية ، ثم لحق برفيقه . وبعد حوالى مائة متر فى اتجاه الغرب تقابلا بمحض الصدفة مع المرافقين لى ، وقصا عليهما القصة المرعبة . لقد كان واضحا أن رعبهما قد هيأ لهما أننى روح هائلة (كائن غير بشرى) ، وقد أكد أحدهما أنه أحس عند رؤيتى بهبة ريح باردة تهبط عليه من السماء وكأنها ماء بارد سكب على رأسه . وفى الظهيرة تقريبا رأينــا على البعد عاصمة كارتـــا Kaarta التى تقع وسط سهل مكشوف ، والمنطقة المحطية بها على مدى ميلين قد اجتثت غاباتها لاستخدام أخشابها كمواد للبناء وكوقود ، ودخلنا المدينة فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر .

وتقدمنا ــ دون توقف ــ الى ساحة أمام مقر الملك ، وقد أحاطت بى من جانب تلك العيون الفضولية المحملقة ، لكننى لم أحاول النزول من فوق حصانى بل بعثت بصاحب الأرض land lord (؟) وابن مادى كونكو Madi Konko ليخبرا الملك بوصولى ، وسرعان ما عادا ومعهما

مبعوث من الملك أخبرني أن الملك سيراني في المساء ، وأمر مبعوث الملك – في الوقت نفسه – بتدبير محل اقامة لى ، ورأى ألا يدع الزحام يسبب ازعاجا لى ، فقادنى الى حوش جعل على بابه رجلا يحمل عصا لابعاد جماهير المحتشدين عنى ، ثم أرانى كوخا كبيرا قال لى انه مكان اقامتى ، وما كدت أجلس فى هذا الكوخ حتى دخلت الجماهير لرؤيتى ، وكان من المستحيل – لكثرتهم ، الابقاء عليهم فى الخارج ، وازدحم الكوخ عن آخره . وبعد أن ترانى مجموعة وتوجه بعض الأسئلة تخلى مكانها لمجموعة أخرى تملأ الكوخ مرة ثانية ، وهكذا دواليك ثلاث عشرة مرة •

وقبل مغرب الشمس بقليل أرسل الملك يخبرنى أن وقته يسمح ، وأنه يرغب فى رؤيتى فتبعت رسوله عبر عدد من الحيشان (جمع حوش) ، محاطة بأسوار عالية ، ولاحظت آكواما من الحشائش الجافة جعلت كهيئة التبن كعلف للخيول اذا ما حوصرت المدينة • وعندما دخلت فى القاعة (الحوش) التى يقيم بها الملك اعترتنى الدهشــة من العدد الكبير من الأشخاص الذين يحيطون به كمـا دهشت للنظام والترتيب والسيطرة عليهم ، وكانوا جلوسا ، أما المحاربون منهم فقد جلسوا عن يمين الملك ، أما النســاء والأطفــال فعن يســاره ، وقد خلوا مكانا بينهم لمرورى • أما الملك – واسمه ديزى كورابارى Daisy koorabarri فلا يتميز عن رعيته بلباس يختص به ، وانما بجلوسه فوق مصطبة طينية مرتفعة بحوالى القدمين وقد بســط فوقها جلد نمر • وهذه المصـطبة هى كل ما يميزه كملك ، وعنـدما جلست أمامه على الأرض عرضـت عليه كل الظروف والأسباب التى دفعتنى للمرور ببــلاده ، والأسباب التى دعتنى لطلب حمايته ، وقد أبدى اقتناعا كاملا بما قلته ، لكنه قال انه ليس فى مقدوره فى الوقت الحاضر أن يقدم لى مساعدات كثيرة ، لأن كل أنواع الاتصال بين (مملكة) كارتا و (مملكة) البامبــارا Bambarra منقطعة منذ فترة ، ولأن ملك البمبارا المسمى مانسونــج Mansong كان قد دخــل بجيشه فولادو Foolado وهو فى طريقه الى كارتا Kaarta ، فليس ثمة أمل فى وصولى الى بمبارا بأى من الطرق المعتادة والا كنت كمن يأتى من أرض الأعداء وأصبح عرضة للسلب بالتأكيد أو أعامل كجاسوس • وقال لى الملك ان بلاده اذا نعمت بالســلام (ابتعدت عن هذه الحرب) ، فيمكننى البقاء بها حتى تسنح ظروف أفضل ، لكن اذا استمرت الأحوال كما هى

عليه الآن ، فانه لا يود بقائى فى كارتا Kaarte مخافة أن تقع بعض الأحداث التى تسبب لى الأذى فيقول أهل بلدى (الانجليز) انه (أى الملك) قد قتل رجلا أبيض ، ونصحنى بناء على ذلك بالعودة الى كاسون Kasson وأن أبقى هناك حتى تضع الحرب أوزارها وقدر نهاية الحرب فى غضون ثلاثة شهور أو أربعة ، وبعدها فانه – ان كان على قيد الحياة – سيكون سعيدا لرؤيتى ، أما اذا وافته منيته فان أولاده سيولوننى حق الرعاية ٠

...

وهذه النصيحة كانت بالتأكيد مخلصة وربما تعرضت للوم بسبب عدم الأخذ بها لكننى قدرت أن الشهور الحارة تقترب ، واعترانى الفزع من قضاء الموسم الممطر فى داخل أفريقيا ، بالاضافة الى عدم رضائى عن العودة لبلادى دون أن أخطو خطوات مهمة فى مجال هذه الكشوف – كل هذه العوامل جعلتنى أصمم على الاستمرار فى رحلتى ٠ ومع أن الملك لم يستطع أن يزودنى بدليل الى بمبارا ، فاننى رجوته أن يجعلنى بصحبة رجل يذهب معى الى قرب حدود مملكته ، ولما وجد الملك أننى مصمم على الاستمرار فى رحلتى – أخبرنى أن هناك طريقا واحدا مازال صالحا للاستخدام وهو طريق خال من الأخطار ، وهو أن أذهب من كارتا الى المملكة البربرية لودامار Moorish Kingdom of Ludamar ، ومن هناك يمكننى المرور بطريق دائرى (غير مباشر) الى بمبارا ٠ واذا رغبت فى سلك هذا الطريق ، فانه (أى الملك) يعين أناسا لصحبتى الى جارا Jarra وهى المدينة الحدودية عند لودامار Ludamar ٠وسألنى بشكل خاص عن الطريقة التى عوملت بها منذ غادرت غمبيا ، كما سألنى بطريقة لا تخلو من مزاح عن عدد العبيد الذين أتوقع أن آخذهم معى عند عودتى لبلادى ٠ وكان على وشك أن يستمر فى الموضوع الا أن رجلا يركب حصانا مغربيا (بربريا) ، كان يتصبب عرقا – دخل الحوش وقال ان لديه أخبارا مهمة ، وسرعان ما خلع الملك خفه وهى اشارة تعنى أن يغادر الغرباء المكان ، فاستأذنت لكننى طلبت من خادمى أن يبقى قريبا من المكان ليجمع بعض المعلومات عن الأخبار التى أتى بها هذا المبعوث ٠ وبعد حوالى ساعة عاد خادمى وأخبرنى أن جيش البمبارا قد غادر فولادو Foolado وأنه فى طريقه الى كارتا ، وكان الرجل الراكب حصانا ، والذى رأيته قادما للملك أحد المستطلعين أو المراقبين الذين عينهم الملك ، وكان من بين مجموعة من المستطلعين لكل منهم موقعه الذى يراقب منه (وعادة ما يتم الاستطلاع من الأماكن المرتفعة) تحركات العدو ٠

الدعوة للصلاة بدق الطبول لا باقامة الأذان :

وفي المساء ، أرسل لى الملك خروفا جيدا ففرحنا به ؛ لأن أحدا منا لم يذق طعــاما طوال النهار ، وبينما كنا منشغلين في اعداد العشاء تم الاعلان عن صلاة المساء (صلاة المغرب غالبا) (*) ولم يكن ذلك عن طريق الأذان كما هو معتاد وانما بقرع الطبول ، والنفخ في أسنان الفيلة الضخمة المجوفة لتكون كالأبواق ، والصوت الصادر من جراء هذا النفخ ذو طابع ميلودى رخيم شجى ، وهو أقرب للصوت الانسانى ــ فيما أرى ــ من أى صوت تصدره آلة أخرى • ولأن الجانب الرئيسى من جيش الملك ديزى Daisy كان أثناء هذه الفترة الفاصلة فى كيمو Kemmoo لذا ، فقد ازدحمت المساجد بالمصلين وقد لاحظت أن كتائب المسلمين تشكل نصف جيش كارتا تقريبا •

وفي الثالث عشر من شهر فبراير أرسلت ــ أثناء النهار ــ مسدسى وقرابه (بكسر القاف وفتح الراء) الجلدى كهدية للملك ، وأبديت رغبة شديدة لمغادرة البلاد التى أصبحت بسرعة قاعدة حربية وتوسلت لرسول الملك أن يخبره برغبتى فى مغادرة كيمو Kemmoo بالسرعة التى يراها الملك ملائمة وأن يزودنى بدليل •

وفي غضون ساعة أرسل الملك رسوله ليشكرنى على هديتى ، كما أرسل ثمانية فرسان ليصحبونى الى جارا Jarra ، وقد أخبرونى أن الملك يرغب أن أذهب الى جارا بأقصى سرعة ممكنة،لأنهم يودون العودة قبل حدوث معركة حاسمة بين جيشى بمبارا وكارتا • وبناء على ذلك فقد غادرنا كيمو مصحوبين بثلاثة من أبناء الملك وحوالى مائتى فارس وقد تعطفوا بالنظر فى أمرى أثناء الرحلة •

تعليق المحرر :

[وقد قبض البربر على بـارك وسـجنوه وهو يحاول دخول بمبارا من مملكة لودامار المجاورة] •

البربــر

وعند وصولى الى جارا أقمت فى منزل دامان جمعة Jumma وهو تاجر رقيق غامبى Gambian Slatee ، وكان هذا الرجل قد سبق له أن

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

اقترض بضائع من الدكتور ليدلى Laidley ، الذى أعطانى أمرا بالحصول على نقود بما يساوى ستة عبيد ، ورغم أن هذا الدين قد مضى عليه خمس سنوات ، فان جمعة كان على استعداد للاعتراف به ووعدنى بأن يقدم لى ما يستطيع تدبيره من مال ، لكنه أبدى أسفه أنه قد لا يستطيع دفع أكثر مما يساوى عبدين فى ظروفه الحالية • وعلى أية حال ، فقد ساعدنى فى مقايضة خرزاتى وما أملكه من عنبر بالذهب وهو مادة (أى الذهب) يسهل حملها ويمكن اخفاؤها عن عيون البربر •

ان الصعوبات التى واجهناها بالفعل ، والأوضاع غير المستقرة فى المنطقة ، وفوق كل هذا وحشية البربر وقسوة طباعهم ، قد أرهبت المرافقين لى وأرعبتهم تماما • لدرجة أنهم صرحوا أنهم على استعداد للاستغناء عن أية مكافأة موعودة ولا يتقدمون خطوة واحدة صوب الشرق • والحقيقة أن الخطر المتمثل فى عقولهم أن يحاصرهم البربر ويبيعوهم كرقيق – أصبح اليوم أكثر وضوحا ولم أستطع أن أنكر عليهم هذا التفكير • وفى هذا الموقف اعتزلنى المرافقون لى ، وطريق عودتى أصبح مقطوعا بسبب نشوب الحرب ، وطريق استمرارى أو تقدمى يستلزم رحلة مدتها عشرة أيام للوصول للمملكة البربرية moorish Country ، لذا فقد طلبت من دامان جمعة Daman أن يحصل لى على تصريح من على زعيم أو حاكم لودامار Ludamar الذى قد آمر عبر بلاده – دون ازعاج – الى بلاد البمبارا ، واستأجرت أحد عبيد دامان Daman ليصحبنى الى هناك بمجرد وصول هذا الاذن أو التصريح • وقد حمل الرسول الرسالة (طلب التصريح) الى على حاكم لودامار الذى كان فى ذلك الوقت معسكرا بالقرب من بينوم Benowm ، ولما كان تقديم هدية مسألة ضرورية لضمان نجاح المهمة ، فقد أرسلت له خمسة أثواب من قماش قطنى اشتريتها من دامان جمعة ببندقية صيد خفيفة ، وانقضت أربعة عشر يوما ، وفى مساء السادس والعشرين من شهر فبراير وصل أحد عبيد الزعيم على ومعه تعليمات أن يصطحبنى بأمان حتى جومبا Goomba وقال لى ان على أن أدفع له ثوبا من القطن الأزرق مقابل حضوره • وقد لاحظ خادمى المخلص أننى على وشك الرحيل دون اصطحابه فعرض أن يصطحبنى وأخبرنى أنه كان يود أن أعود أدراجى ، لكنه لم يفكر أبدا فى التخلى عنى وانما كان جونسون هو الذى نصحه بذلك ليحثنى على العودة سريعا الى غمبيا •

وفى ٢٧ فبراير سلمت معظم أوراقى الى جونسون ، ليرجع بها الى غمبيا بالسرعة الممكنة واحتفظت بنسخة منها لنفسى ، تحسبا لوقوع حوادث غير مرغوبة • وتركت عند دامان ربطة من الملابس والأشياء الأخرى التى

لم تعد الحاجة لها ماسة ، لأنني كنت أود أن أختزل أمتعتي أو أتخفف منها بقدر الامكان حتى أقلل من وازع البربر لسلبنا ٠

وغادرنا جارا قبل الظهر ونمنا في ترومجومبا Troomgoomba وهي قرية لها سور غير مرتفع يسكنها خليط من الزنوج والبربر ، وفي اليوم التالي (٢٨ فبراير) وصلنا الى قرى Quira وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه وصلنا الى كمبي Compe بعد رحلة مرهقة في منطقة رملية ٠ وكمبي هذه مكان به ماء (منتجع مائي) تابع للبربر ، وانطلقنا من هـذا المكان وظللنـا حتى صباح اليـوم التالي ، حيث وصلنا الى دينا Deena وهي مدينة كبيرة مثـل جارا Jarra ومبـانيها مشيدة من حجارة وطين ٠ والبربر هنا يفوقون الزنوج عددا ، فعدد البربر في دينا أكبر من عددهـم في جارا ، وقد تجمع البربر حول كوخ الزنجي الذي أقيم عنده وعاملوني بغطرسة شديدة تفوق الوصف ، وراحوا يستهجنون مني ويصيحون ويسيئون معاملتي ، بل انهم بصقوا في وجهي بقصد اثارتي فأتيح لهم فرصة لمحاصرة متاعي ولما لم أتح لهم هذه الفرصة ، تناقشوا ووصلوا الى قرار حاسم وهو أنني مسيحي وبالتالي ، فان سلبها حلال وفقا لأحكام الشريعة الاسلامية ٠

تعليق المترجم :

[يعلم المثقفون حتى من غير المسلمين أن الشريعة الاسلامية لا تقر ذلك ، والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك أكثر من أن تدخل تحت حصر ، أما سلب بارك ، بل وقتله بعد ذلك فلا يرجع لكونه مسيحيا،وانما لكونه ممثلا لقوى تريد تحويل مسار التجارة بما يضر بمصالح البربر الذين ينقلون بضائع غرب افريقيا عبر الصحراء الكبرى ويعيدون تصديرها للعـالم ، قائمين بدور الوسيط التجـاري الذي يحقق أرباحا طائلة ، وما ذكره بارك في ثنايا رحـلاته خاصة رحلته الأخيرة سنة ١٨٠٥ ٠ ان موقف البربر من هذه المحاولات الكشفية لغرب افريقيـا لا يختلف عن موقـف المصريين (المماليـك) والبنـادقة من كشف طـريق رأس الرجاء الصالح ووصـول البرتغاليين للهنـد وجلب بضـائعها مباشرة ، بعد الغـاء دور الوسيط الذي كان يقوم به المماليك والبنادقة ، ومن هنا فقد تحالف البنادقة المسيحيون معالمماليكالمسلمين ضد البرتغاليين في مرحلة من المراحل] (٦٥) ٠

وبناء عليه ، فقد فتحوا حقائبي (أجولتي) وسرقوا مني كل شيء راقهم • ولما وجد رفاقي أن الجميع سلبوني دون مراعاة لأية قيمة أصروا على العودة الى جارا •

وفي اليـوم التـالي (٢ مارس) بذلت قصارى جهدي ، لأقنع رفاقي بالاستمرار معي لكنهم أصروا على عنادهم خوفـا من البربر المتعصبين ، فاتخـذت قرارا بالاستمرار في الرحلة بمفردي • وفي الصباح التالي وفي حوالي الساعة الثانية غادرت دينـا Deena ، كان القمر يغمر الأرض بنوره لكن أصوات الوحوش حتمت على أن أكون حذرا •

وعندما وصـلت لبقعة مرتفعة على بعد حوالي نصف ميل من دينـا سمعت شخصا ما يهتف بي • ولما نظرت خلفي وجدت غلامي (خادمي) المخلص يجري خلفي ، وأخبرني أن رجـل الزعيـم على قد عـاد الى بنوم Benowm وأن الزنجي التابع لدامان على وشك العودة الى جارا، لكنه أردف قائلا انه لاشك في أنني اذا توقفت قليـلا فانه سيقنعه بالسـفر معنا ، فتوقفت ، وبالفعـل عاد فتـاي بعد حوالي ساعة ويصـحبته الزنجي ، فواصلنا رحلتنـــا في أرض رمليـــة ، يغطيهـا نبـات الصقلاب الضخم Ascelepies gigantea (٦٦) حتى منتصف النهار ، حتى وصلنا لمجموعة أكواخ منعزلة ورأينا مظهر الماء على بعد يسير فأرسلت فتاي ليملأ القربة a Soofroo (؟) ، لكن زئير أسد كان من المحتمل أن يكون في المكان نفسه دفع الفتى المذعـــور للعودة ، وبعـــد الظهـر وصلنا لمدينة معظم سـكانها من الفولة (بفتح الفـاء والواو) ، واسم المدينة سـامامنجكوز Samamingkoos .

أسراب الجراد :

وفي الصباح التالي (٤ مارس) اتخذنا طريقنا الى سمباكا Sampaka فوصلنا في حوالي الساعة الثانية • وفي الطريق اليها لاحظنا أعدادا هائلة من الجراد ، وأصبح لون الأشجار أسود لفرط ما عليها من جراد ، لقد التهم هذا الجراد كل أخضر مر به ، انه يجعل الشجرة جرداء في لحظات، فيتركها عارية بلا أوراق ، وهذه الحشرات تتبع في طيرانها اتجاه الريح التي كانت في هذا الموسم تهب من الشمال الشرقي واذا تغـير اتجاه الريح ، فلا أحد يعرف الى أين ستتجه هذه الحشرات لتجمع غذاءها فكل طريق تمر به يصيبه الخراب •

الحرب بين البربر والبمبارا :

ومدينة سمباكا Sampaka مدينة كبيرة ، وعندما نشبت الحرب بين البربر والبمبارا هاجم البربر مدينة سمباكا هجوما متكررا ، لكنهم انسحبوا بعد أن لحقت بهم خسائر فادحة ، الا أن ملك البمبارا اضطر بعد ذلك للتنازل عنها (عن مدينة سمباكا) وكل المدن الأخرى حتى جومبا Goomba طلبا للسلام مع البربر • وفي مدينة سمباكا أقمت في منزل أحد الزنوج كان يمارس صناعة بارود البنادق • وقد أرانى حقيبة من النترات nitre البيضاء جدا ، لكن بلوراتها كانت أصغر بكثير من البلورات المعتادة • وهم يجلبون هذه النترات بكميات كبيرة من البرك التى تمتلىء فى الموسم الممطر فتلجأ اليها القطعان ابتغاء التبرد أثناء حر النهار• وعندما ينبخر الماء تظهر النترات بيضاء بوضوح على الطين فيجمعها أهل البلاد وينقونها بطريقتهم الخاصة ليجعلوها تتوام مع أغراضهم ، ويحصلون على الكبريت من البربر الذين يجلبونه من منطقة البحر المتوسط وتتم العملية بسحق المواد المختلفة معا فى هاون خشبى • وتتباين البلورات تباينا كبيرا فى الحجم ، وصوت انفجاره – بلا شك – بنفس حدة صوت انفجار بارود البنادق الأوروبى •

زحام لرؤية رجل أبيض :

وفى الخامس من مارس غادرنا سمباكا نهارا ، وفى حوالى الظهر توقفنا قليلا فى قرية تسمى دنجالى Dangali وفى المساء وصلنا الى دالى Dalli وقد رأينا على الطريق قطيعين كبيرين من الجمال ترعى ، وعندما أدار البربر جمالهم لترعى ربطوا كل جمل من قدميه الأماميتين لمنعه من الشرود • لقد حدث هذا لأن هذا اليوم كان يوم عيد (مهرجان) فى دالى Dalli وكان الناس يرقصون أمام منزل دوتى Dooty ولكنهم عندما علموا أن رجلا أبيض وصل لمدينتهم تركوا الرقص وقدموا الى حيث أقيم، وهم يسيرون فى خطى منضبطة مثنى مثنى تتقدمهم فرق العزف الموسيقى• لقد كانوا يعزفون على نوع من آلات النفخ (الفلوت) ، ولكن بدلا من أن ينفخوا فى ثقب فى الجانب ، فانهم ينفخون فوق الطرف بشكل مائل (أو منحرف) وطرف هذه الآلة نصف مغلق بقطعة خشب رقيقة : وهم يتحكمون فى الثقوب الجانبية بأصابعهم • وقد استمروا فى الرقص والغناء حتى منتصف الليل وقد أحاط بى – فى منتصف الليل تقريبا – زحام شديد وكان على أن أرضى حبهم للاستطلاع بالبقاء ثابتا •

وفى السادس من شهر مارس توقفت هنا فى فترة الصباح، لأن بعض أهل المدينة ممن كانوا ذاهبين الى جومبا Goomba فى اليوم التالى كانوا

راغبين فى اصطحابنا ، الا أنه لتجنب زحام الناس الذين اعتادوا عادة التجمع مساء ، فقد ذهبنا الى قرية من قرى الزنوج تقع الى الشرق من دالى Dalli تسمى قرية سامى Samee ، فاستقبلنا دوتى Dooty بكرم بالغ اذ نحر خروفين أملحين ودعا أصدقاءه للاحتفال معه بتناول اللحم ٠

بيرة (جعة) الزنوج :

وفى السابع من شهر مارس ، كان الأمير Landlord فخورا غاية الفخر لاستضافته رجلا أبيض ، حتى انه أصر على بقائى معه ومع أصدقائه حتى تخف الحرارة فى المساء فيصحبنى الى القرية التالية ٠ وقد قبلت هذه الدعوة فلم يبق أمامى لأصـل الى جومبا Goomba سوى يومين ولم أعد أخشى البربر ٠ لقد قضـيت وقتاً سعيدا قبـل الظهر مع هؤلاء الزنوج البؤساء ، فصحبتهم مقبولة فهم بما يتمتعون به من لطف وكياسة يتناقضون تناقضاً حادا مع البربر القساة المتوحشين ، ومما يجعل السمر معهم لطيفا تناولهم الجعة (البيرة) التى يصنعونها بتخمير الذرة بالطريقة التى سبق أن وصفتها فى فصل سابق ، ولم أذق أفضل من هذه البيرة فى بريطانيا العظمى ٠

تبخر الحلم :

وأثناء هذه السعادة ، وطنت نفسى على أن كل خطر متوقع من البربر Moors قد انتهى ٠ وحملنى الخيال بجناحيه الى نهر النيجر ، وصور لى خيالى آلافا من المناظر المبهجة – الا أن الحلم سرعان ما تبخر ، وجذبنى الواقع الى أرضه فقد دخل الكوخ جماعة من البربر – بشكل غير متوقع – وضاع بدخولهم حلمى الذهبى ٠ لقد قال هؤلاء البربر انهم قد أتوا بناء على أوامر الزعيم على لنقلى الى معسكره فى بنوم Benowm وقالوا اننى ان رفضت أجبرونى – وفقا للأوامر على اصطحابهم بالقوة ، وأسقط فى يدى وغشينى الرعب واعترتنى الدهشة خاصـة وأن البربر راحوا يؤكدون ويكررون أنه لا خوف على ، وقد أضافوا أن زيارتهم هذه لى سببها رغبة فاطمة زوجة الزعيم على فى رؤيتى ، فقد سمعت فاطمة كثيرا عن المسيحيين وتود رؤية أحد منهم ، وقالوا ان الزعيم على قد يعطينى هدية لطيفة ويرسل معى شخصا يصحبنى الى بمبارا ٠ ولما وجدت أنه لا فائدة من المقـاومة اسـتعددت لصـحبتهم واستأذنت سـيدى Landlord (؟) وصـحبه وصحبنى فتاى (خادمى) المخلص (لأن ديمانه قد ولى هاربا بمجرد رؤية البربر) ووصلنا الى دالى Dalli فى المساء وراقبنا البربر بصرامة أثناء الليـــل ٠

وفى الثامن من شهر مارس وصلنا عبر طريق دائرى داخل الغابات الى دنجالى Dangali حيث نمنا •

وفى اليوم التاسع من شهر مارس ، تابعنا رحلتنا حتى وصلنا بعد الظهر الى سمباكا • وفى الطريق رأينا جماعة من البربر مسلحين تسليحا جيدا أخبرونا أنهم كانوا يبحثون عن عبد هارب،ولكن أهل المدينة أخبرونا أنهم كانوا يحاولون سرقة بعض الماشية من المدينة فى الصباح لكنهم لم يفلحوا •

وفى صباح اليوم التالى (١٠ مارس) بدأنا رحلتنا الى سامامنجكوز Samamingkoos ، وفى الطريق لحقنا بامرأة وولدين ومعهم حمار ، وقد أخبرتنا أنها كانت ذاهبة الى بميارا ، لكن جماعة من البربر اوقفوهم فى الطريق سلبوها معظم ملابسها وبعض ذهبها ، مما اضطرها للعودة الى دالى Dalli حتى يختفى القمر till the festmoon was over . وفى الليلة نفسها شوهد القمر الجديد الذى يبشر بدخول شهر رمضان ، فأوقدوا نيرانا كثيرة فى سائر أنحاء المدينة وظهرت مؤن كثيرة وطعام وفير أكثر من المعتاد فى هذه المناسبة •

البربر يهددون بقتل فتاى :

وفى الحادى عشر من شهر مارس كان البربر مستعدين للسفر نهارا، ولكن ــ لأننى كنت قد عانيت كثيرا من العطش أثناء الطريق ــ فقد طلبت من فتاى أن يملأ قربة ماء Soofroo لاستخدامى الشخصى ، ولأن البربر أكدوا لى أنهم لن يأكلوا شيئا أو يشربوا حتى مغرب الشمس • وعلى أية حال ، فاننى لما وجدت حرارة الشمس مفرطة ، والغبار يعمى البصر ، أدركت أهمية قربتى التى ملأتها بالماء • وعند وصولنا الى دينا ذهبت لأقدم واجبات الاحترام لأحد أبناء الزعيم على ، ولما ذهبت وجدته جالسا فى كوخ منخفض ومعه خمسة أو ستة من أتباعه يغسلون رءوسهم وأقدامهم ويستنشقون ويتمضمضون • وقد أجلسونى سريعا وقدم لى بندقية ذات ماسورتين وطلب منى صبغ الخزنة باللون الأزرق،واصلاح أحد التترباسين (المفرد : ترباس)، وقد وجدت صعوبة بالغة فى متابعة ما يقوله وعلى أية حال ، فقد قال اننى اذا لم أستطع اصلاح البندقية ، فان على أن أقدم له ــ فى الحال ــ بعض السكاكين والمقصات ، ولما قال له فتاى الذى كان يقوم بدور المترجم اننى لا أمتلك سكاكين أو مقصات ، التقط مسدسه بسرعة ووضع فوهته على أذن فتاى وهدد بقتله ليسقط جثة فى المكان نفسه ، ولم يحاول البربر نزع المسدس (البندقية) منه ، وقد أشار لنا

بالتراجع • وقد شعر الفتى برعب شديد وحاول الهروب ليلا ولكن البربر الحذرين أعادوه فقد كانوا يحرسوننا بعيون يقظة ، فقد كان الحارس ينام ليلا عند باب الكوخ وبالتالى يستحيل على أحد أن يخرج دون أن يدوسه •

الصمغ يرطب الفم :

وفى الثانى عشر من شهر مارس غادرنا دينا فى اتجاه بنوم Benowm ، وفى حوالى الساعة التاسعة وصلنا الى قرى Korree فاستعد البربر لاتخاذ طريق جنوبى نظرا لندرة المياه ، وقد ملأنا قربتنا وواصلنا رحلتنا على أرض رملية حارة تغطيها أشجار متقزمة stunted shrubs حتى الساعة الواحدة ، حيث أجبرتنا حرارة الشمس على التوقف لكن ماءنا قد نفد ، ولم نستطع المكوث أكثر من خمس دقائق جمعنا خلالها قليلا من الصمغ gum وهو بديل ممتاز للماء اذا وضع فى الفم رطبه فيبعد لفترة آلام العطش •

بنويم : مقر الزعيم على :

وفى حوالى الساعة الخامسة رأينا مدينة بنويم Benowm مقر الزعيم على ، وبدا للعين عدد كبير من الخيام ذوات المنظر القذر ، وكانت متناثرة بغير نظام على مساحة كبيرة وظهرت قطعان جمال كثيرة بين الجبال، وكذلك قطعان الماعز والماشية • ووصلنا لضواحى المعسكر قبل غروب الشمس بقليل ، وحصلنا على قليل من الماء بعد أن توسلنا توسلا شديدا ، وسرعان ما أحس الجميع بوصولى وألقى الذين كانوا يسحبون المياه من الآبار جرادلهم (جمع جردل) ،وخرج من كانوا فى الخيام وركبوا خيولهم وأقبل الرجال والنساء والأطفال يعدون نحوى وسرعان ما وجدت نفسى وسط زحام شديد ، حتى اننى لم أكن أستطيع الحركة الا بمشقة وقد سحب أحدهم ثيابى وجردنى آخر من قبعتى وأوقفنى ثالث ليتفحص أزرار صدريتى (بضم الصاد وتشديد الياء) وصاح رابع : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ونبهنى مهددا بضرورة ترديد هذه الكلمات • ووصلنا أخيرا الى خيمة الملك (الزعيم) حيث وجدنا جمعاً غفيرا من الناس رجالا ونساء • لقد كان الزعيم على (الملك) يجلس فوق وسادة من جلد أسود وكان يقص قليلا من الشعر من شاربه ، وقد وضعت احدى الحاضرات أمامه مرآة • لقد بدا رجلا كبير السن ذا سمت عربى (بدوى) ذا لحية كثة بيضاء ، وقد تفحصنى بعينين ثاقبتين وسأل البربر ان كنت أتحدث باللغة العربية فلما أجابوه بالنفى أبدى دهشة عظيمة ولاذ بالصمت • وكان المحيطون به ــ وخاصة النساء ــ مندهشين اندهاشا كبيرا وانهالوا

يسألون آلاف الأسئلة وراحوا يفتشون كل جزء من ملابسي فبحثوا في جيوبي وأجبروني على فك أزرار صدريتي وتفحصوا جلدي الأبيض ، بل وقاموا بعد أصابع يدي وقدمي ليتأكدوا مما اذا كنت — حقا أنتمي للجنس البشري أم لا • وبعد فترة وجيزة أذن المؤذن لصلاة المغرب ، وقبل أن يتوجهوا للصـلاة قال لي البربر الذين يعملون كمترجمين ان الزعيم على وشك أن يقدم لي شيئا آكله،ولما نظرت حولي لاحظت بعض الصبية يحضرون خنزيرا بريا كانوا قد ربطوه الى احدى حبال خيمة ، وأشار الزعيم على لي أن أقتله (أذبحه) وأعده للعشاء ، ورغم أنني كنت جوعان للغاية لكنني لم أفكر في تنـاول أي جزء من حيوان يكرهه المسلمون Moors ، لذا فقد أخبرته أنني لم آكل لحم الخنزير قبل ذلك • عندما فكوا وثاق الخنزير آملين أن يهاجمني ، لأنهم يعتقدون أن الخنـازير تبغض المسيحيين بشدة ، لكنهم أساءوا التقدير لأن الخنزير — بمجـرد أن فكوا وثاقه — بدأ يهاجم دون تمييز كل شخص يتصادف وجوده في طريقه ، ثم لجأ في خاتمة المطاف عند أريكة (أو مصطبة) الملك • وهكذا تفرق الجمع ، وقد قادوني الى خيمة عند الزعيم (الملك) علي ولكنهم لم يسمحوا لي بالدخول ولا سمحوا لي بلمس أي شيء • وقد طلبت شيئا آكله فأحضروا لي بعد وقت طويل قليلا من الذرة (القمح) المسلوق وملحا وماء في أوان خشبية ، وفرشوا حصيرة على الرمال أمـام الخيمة ، وفوق هذه الحصـيرة قضيت ليلتي يحيط بي حشد من الفضوليين •

أنـا والخنزير :

وعندما أشرقت الشمس أقبـل الزعيم علي يرافقـه بعض أتباعه لزيارتي ، وفهمت أنه أمر باعداد كوخ لاقامتي يقيني من الشمس فانتقلت اليه فوجدته مريحا ، ووجدته مشيدا من أعواد القمح الجافة ومساحته الداخلية تأخذ شكل مربع ، أما سقفه فمسطح أيضا ومن أعواد القمح الجافة أيضا ، وقد تم تدعيم الكوخ بأعمدة من الأخشاب كانوا يربطون الى أحدها الخنزير البري الذي أشرت اليه آنفا • وقد تم ربط هذا الخنزير في هذا المكان — بالتأكيد — بناء على أوامر الزعيم علي ، وكان هذا الخنزير بئس الرفيق لي في سكنى هذا ، لأنه كان سببا في تجمع الصبية حوله ، يضربونه بالعصي ويتسلون بايذائه حتى وصلوا به الى ذروة السخط ، فانفلت من رباطه وراح يعض كل شخص يطوله • •

البربر ينظرون الى ككائن غريب :

وما كدت أستقر في هذا الكوخ الجديد حتى تجمع البربر ليراقبوني ، لكنني وجدت ما يقومون به بمثابة حفل استقبال مزعج ، فقد كنت مضطرا

لخلـع جوربى ، وأن أريهم قدمى ، بل وكنت مضـطرا لخلـع جاكتتى وصـدريتى لأريهم كيف يمكن ارتداء هذه الملابس وكيف يمكن خلـعها ، وأبدوا اعجابا بالأزرار ، وكنت أكرر عملية خلع الملابس وارتدائها كلما طلب أحد الزوار ذلك ، وظللت على هذه الحال : أفك الأزرار وأعيد عقدها ، وأخلع الملابس وأعيد ارتداءها من الظهر حتى حلول الليل . وفى حوالى الساعة الثامنة أرسل لى (الزعيم) على يدعونى لتناول العشاء ، الذى لم يتعد بعض الكسكوس Koustkous والملح والماء ، وكان طعاما مقبولا خاصة أننى لم أتناول طعاما منذ الصباح .

وقد لاحظت أن البربر يراقبون الكوخ ليلا بانتظام وينظرون داخل الكوخ مرارا ليروا ان كنت أنام مثلهم أم لا ، ولما غلبت العتمة تماما أضاءوا المكان باشعال بعض الحشائش الجافة . وفى حوالى الساعة الثانية صباحا دخـل أحـد البربر الكوخ الذى أقيم به ربما لسرقة بعض أشيائى وربما لقتلى ، وقد جال بالمكان ووضع يده على كتفى . وفى الليل يكون الزوار — فى أحسن الأحوال — موضع شك ، لذلك فقد انتفضت بمجرد أن وضع هذا البربرى يده على ، فاضطرب البربرى وتعثر فى فتاى (خادمى) فسقط بوجهه على الخنزير البرى الذى عض ذراعه ، فصرخ صراخا حادا ، فنبه صراخه من كان فى خيمة الملك فأسرعوا ظنا منهم أننى هربت أو أنوى الهرب وركب بعضهم خيولهم واستعدوا للاحقتى ، ولاحظت أثناء ذلك أن (الشيخ) على لم يكن نائما فى خيمتـه وانما وجـدته قادما وهو راكب حصانا أبيض من خيمة أخرى صغيرة على بعد غير يسير . والحق أقول لكم ان طغيان هذا الرجل واستبداده وقسوته تجعله حذرا من أى شخص من الأشخاص المحيطين به ، حتى عبيده وخدمه لا يعرف الواحد منهم أين ينام . ولما شرح له البربر سبب هذه الضجة ، عاد من حيث أتى ورجع كل من قدم ، وبذلك أتيح لى أن أنام بهدوء حتى الصباح .

١٣ مارس :

وبدأ اليوم وانتهى بالاهانة نفسها والاثارة والاستفزاز فقد تجمع الصبية ليضربوا الخنزير البرى ، وأقبـل الرجال والنساء لازعاج هذا النصرانى . من المحال بالنسبة لى أن أصف سلوك أناس قد درسوا الأذى كعلم هم خبراء فيه ، وأتقنوا فن اهانة المخلوقات البائسـة التى يقودها سـوء حظها الى العيش بين ظهرانيهم ، فيكفى أن يلاحظ المرء أن فظاظة البربر ووحشيتهم وتعصبهم تعد من خصائصهم التى تميزهم عن سائر البشر ، وقد أتيح لهم أن يمارسوا طباعهم السيئة هذه على ، وأنا غريب

ولا يحميني أحد كما أنني نصراني - ان كل ذلك كان كافيا لنزع كل ذرة من الانسانية من قلب البربري فاذا أضفت الى كل ذلك أنهم يعتقدون أنني جاسوس ، سهل عليك أيها القارىء أن تتخيل سوء الموقف الذي كنت فيه ، وأن كل شيء حولي يدفعني للخوف. وعلى أية حال ، فانني تحملت كل اهانة وأطعت كل أمر حتى لا أعطي للبربر فرصة الشماتة ، فلم تمر أية فترة في حياتي أثناء اقامتي معهم - متثاقلة من مشرق الشمس الى غروبها ، فقد كنت مجبرا على أن أعاني من سلوكهم الفظ واهاناتهم المتوحشة - انهم أكثر الأجناس فظاظة على ظهر البسيطة .

* * *

عينني البربر في وظيفة حلاق :

ورغم أن البربر كسولون، فانهم لا يدعون أي شخص تحت سيطرتهم الا واستفادوا منه استفادة كاملة ومارسوا عليه سيادة صارمة ، فقد كانوا يرسلون فتاي (خادمي) دمبا Demba لجمع الأعشاب الذابلة لتكون علفا لخيول (الشيخ) علي ، وبعد تداولهم الأمر بينهم وجدوا عملا لي . فعينوني في وظيفة حلاق وهي وظيفة محترمة . وكان علي أن أجري أول عرض لي في الحلاقة في الحضرة الملكية (حضرة الزعيم علي) وأن أتشرف بحلق رأس ابنه الأمير الصغير - أمير لودامار Ludamar ، فجلست فوق الرمل وجلس الصبي - بعد تردد - الى جانبي. وأعطوني موسيا يبلغ طولها ثلاث بوصات تقريبا ، وأمروني بالحلاقة ، وبسبب قلة خبرتي في مجال الحلاقة ، وربما أيضا بسبب عدم ملاءمة الموسى للحلاقة - فقد أحدثت جرحا بسيطا في رأس الصبي ، وقد لاحظ الملك (الشيخ علي) أنني لا أتقن امساك الموسى فأدرك أن رأس ابنه في أيد غير مدربة ، فأمرني أن أترك الموسى وأخرج من الخيمة . واعتبرت هذا ظرفا سعيدا فلم أعد حلاقا بعد ذلك ، وبذلت جهدي لأبدو غير مفيد ولا أتقن شيئا - فتلك أفضل الطرق لاسترداد حريتي .

١٨ مارس :

وصل أربعة من البربر من جارا Jarra ومعهم مترجمي جونسون ، فقد حاصروه قبل أن يعرف شيئا عن احتجازي ، وقد أحضروا معهم مجموعة الملابس التي كنت قد تركتها في منزل دامان جيمة لاستخدامها في حالة عودتي عن طريق جارا . وقد قاد هؤلاء البربر جونسون الى خيمة (الشيخ) علي ، وتفحصوا مجموعة الملابس ، وأرسلوا في طلبي لأشرح

لهم كيفية استخدام هذه الملابس وغيرها من الأدوات • وعلى أية حال ؛ فقد كنت سعيدا أن أجد جونسون قد أودع أوراقي لدى احدى زوجات داماث جمعة • ولما أشبعت فضول الشيخ على فى شرح كيفية استخدام الملابس وغيرها من الأدوات ، أعادوا ربطها ووضعوها فى حقيبة كبيرة من جلد البقر وجعلوها في ركن الخيمة • وفى المساء نفسه أرسل (الشيخ) على ثلاثة من رجاله ليخبروني أن لصوصا كثيرين يحومون حول المكان لذا ، فمن الضرورى أن أحضر كل ممتلكاتى لخيمته حتى لا تتعرض للسرقة ثم حملوا كل ما يتعلق بي بالفعل الى خيمة على ، حتى الملابس الكتانية التى كان من الضرورى أن ألبسها لأنها مناسبة فى هذا الجو الحار المترب ، ولم أستطع أن أحتفظ بقميص واحد • وعلى أية حال ، فان عليا قد خاب أمله فلم يعثر بين ممتلكاتى على أية كميـة من الذهب والعنبر كمـا كان يتوقع • وليتأكد أنه لم يفلت منه شيء من مقتنياتى فقد أرسل فى صبيحة اليوم التالى الأشـخاص أنفسهم ليتـأكدوا أنني لم أخف شيئا ، فراحوا بفظاظتهم المعهودة يفتشون كل جزء من ملابسى وسليبونى كل ذهبى وكل ما معى من عنبر ، وأخذوا ساعتى وواحدة من البوصلات التى أحتفظ بها ، فقد كنت — لحسن الحظ — قد دفنت البوصـلات الأخرى فى الرمال ، وهـكذا لم يترك لى رجال على شيئا ، ولم يبق لى إلا ما ألبسـه ، وتلك البوصلات التى دفنتها فى الرمال •

البوصلات تشير لقبر امى :

وقد حرك الذهب والعنبر جشع البربر تحريكا شديدا ، أما البوصلة فسرعان ما أصبحت موضوعا للخرافة (فالشيخ) على كان شغوفا لمعرفة السبب الذى يجعل ابرة البوصلة تشير دوما نحو الصحراء الكبرى ، وقد احترت فى كيفية الاجابة اجابة مناسبة له • ولما أدركت أن اظهار جهلي سيجلب مزيدا من التشكك فى أمرى ويؤكد عدم رغبتى فى اطلاعه على الحقيقة ، فقد قلت له ان أمى مقيمة فى مكان بعيد يقع فيما وراء الصحراء الكبرى ، وأن ابرة البوصلة (قطعة الحديد) تشير دائما الى مكان وجودها حتى لا أضل الطريق اليها ، واذا ماتت أمى فان ابرة البوصلة تدلنى الى قبرها • فنظر على الى البوصلة بدهشة مضاعفة وراح يديرها ويديرها ، لأنه لاحظ أن ابرتها تشـير فى كل الأحوال الى الإتجاه نفسه ، فرفعها بحذر وأعادها الى وذكر أن شيئا من السحر يكمن فيها كما يظن ، وأنه يخشى أن يحتفظ بآلة خطيرة كهذه •

اقتراح بفقء عيني اللتين تشبهان عيون القطط :

وفي ٢٠ مارس اجتمع رؤساء القبائل (الزعماء Chief men ، في خيمة (الشيخ) على للتباحث في أمري . وكانت قراراتهم متباينة رغم أنهم جميعا كانوا غير متعاطفين معي ، فقد رأى بعضهم قتلي ، ورأى آخرون الاكتفاء بقطع يدي اليمنى ، وكان الرأي الغالب كما أخبرني ابن علي ــ وهو صبي في حوالي التاسعة من عمره حضر الى مساء ــ هو ما اقترحه عمه (أخو علي) ، اذ حث أخاه (علي) على فقء عيني اللتين تشبهان عيني القطة ، وقد وافق كل البربر الحاضرين على هذا . وعلى أية حال ، فان والد الصبي (علي) قد أرجأ تنفيذ ذلك حتى تحضر الأميرة فاطمة وتراني وكانت الأميرة في ذلك الوقت في مناطق تقع الى الشمال .

٢١ مارس :

وقد ذهبت للملك في الصباح الباكر يعتريني القلق على مصيري ووجدت عددا من البربر متجمعا عنده ، فوجدتها فرصة لمعرفة ما يحاك ضدي ، فبدأت الحديث بالتوسل اليه بالاذن لي كي أعود الى جارا Jarra ولكنه رفض ذلك بشكل صريح وقال ان زوجته (الأميرة فاطمة) لم ترني بعد وأن علي أن أمكث حتى تعود من بنون Benown وبعدها تكون لي الحرية في الرحيل ويعيد لي حصاني الذي أبعدوه عني بعد وصولي بيوم .

ومع أن هذا الرد لم يرضني ، الا أنني تظاهرت بالسرور فلم يكن الا أمل قليل في امكانية الهروب في هذا الموسم من السنة ، حيث الحرارة لاهبة وحيث تنعدم المياه في البراري لذا ، كان علي الانتظار حتى يحل الموسم المطير أو تتاح لي ظروف أفضل . ان هذا التسويف الممل يوما بعد يوم ، بالاضافة لفكرة السفر عبر الممالك الزنجية في الموسم المطير ــ كل ذلك قد جعلني متوترا غاية التوتر فكنت أقضي الليل قلقا متوترا وقد وجدت نفسي في الصباح محموما ، فتدثرت جيدا بمعطفي حتى أعرق بشدة ونمت . وبينما أنا كذلك دخلت مجموعة من البربر الى الكوخ ونزع المعطف من فوقي بفظاظتهم المعهودة ، فأشرت لهم أنني مريض وأرغب في النوم وذهبت توسلاتي أدراج الرياح فلم تزدهم آلامي الا غلظة وشماتة . لقد كنت أتعرض للاهانة بشكل مستمر أثناء فترة أسري مما جعل حياتي عبئا علي . لقد كنت أثناء فترة أسري أحسد العبد على وضعه وما يتمتع به ، وفي ظل هذه الظروف ورغبة في التخلص من الاهانات المتلاحقة ، ولقناعتي أن الموت قد يكون هو النتيجة التي لا مفر منها ، فقد خرجت من الكوخ واتجهت الى مجموعة أشجار ظليلة غير بعيدة عن المعسكر وانطرحت راقدا ، وحتى

هنا كانت العيون تلاحقني • وأقبل ابن علي يعدو بحصانه ـ مع جماعة من البربر ـ نحوى ، وأمرني أن أنهض وأتبعهم فتوسلت اليهم أن أبقى حيث أنا ولو لساعات قليلة ، ولم يعيروا كلامي اهتماما كبيرا ، وبعد أن تفوهوا بقليل من عبارات التهديد سحب أحدهم مسدسه من جرابه الجلدى المثبت في قربوس (حنو) (*) سرجه ، وصوبه نحوى وجذب الترباس مرتين بلا مبالاة ، حتى انني شككت حقا فيما اذا كان المسدس معمرا ، ولما رأيته على وشك الضغط على الزناد توسلت اليهم أن يكفوا ، وعدت معهم الى المعسكر • ولما دخلنا خيمة على وجدناه سعيدا للغاية ، فأخذ المسدس من الرجل وراح يسلى نفسه بتحريك مخزن البارود في هذه البندقية القديمة وفتحه وغلقه عدة مرات ، وأخيرا تناول وعاء البارود (القرن المجوف الذى يحتفظ فيه بالبارود) وجهز البندقية لاطلاق النار ، ونظر الى نظرة تهديد ووعيد وصوب البندقية ناحيتي وقال باللغة العربية كلاما لم أفهمه • فطلبت من فتاى (خادمي) الذى كان يجلس أمام الخيمة أن يسأل (الشيخ) على عن الجرم الذى ارتكبته ، فقيل لى انني خرجت من المعسكر دون اذن (الشيخ) على ، فشكوا في أنني أخطط للهرب ، وحذروني من أن ذلك اذا تكرر مرة أخرى ، فان الأوامر قد صدرت بالفعل بأن يطلق أى شخص يراني خارج المعسكر ـ النار علي •

* * *

تعليق المحرر :

[وبعد أن رأته الأميرة فاطمة سمحوا له بالذهاب الى جارا ، ومنها هرب الى بمبارا] •

الهــروب

٢٧ يونيو :

وفي حوالى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر تلقينا تحذيرا مؤداه أن ديزى Daisy كان في طريقه الى جارا ، وأن الجيوش المتحدة قد ولت هاربة أمامه دون اطلاق النار ، ومن الصعب أن أصف الرعب الذى اجتاح أهل المدينة بسبب هذه الأخبار : فالحق أن ولولة النساء وصراخ الأطفال والفوضى والهروب قد ساد في كل مكان ، مما جعلني أشك أن جيش كارا Kaara قد دخل بالفعل • ورغم أن كل ما لدى من أسباب كانت تجعلني

(*) الحنو : (بكسر الحاء وسكون النون) الجزء المرتفع المقوس من السرج ـ (المترجم) •

أسعد بتصرف ديزى حيالى عندما كنت فى كيمو Kemmoo ، فلم تكن لدى رغبة في أن أقدم نفسي لجيشه مخافة أن يظنوني أحد البربر خاصة أثناء الفوضى التى تصاحب الحروب · لذا ، فقد ركبت حصانى وأخذت معى جوالا كبيرا من القمح (الذرة) وسرت حتى وصلت الى سفح تل صخرى فترجلت وصعدت — وحصانى أمامى — حتى وصلت لقمة التل فجلست ورحت أنظر نظرة شاملة للمدينة والمناطق المحيطة بها ، ولم أكن بقادر على تقديم يد العون للبؤساء المصابين بالهلع ، فتزاحموا يدفع بعضهم بعضا وراحوا يقودون خرافهم وماعزهم وأبقارهم ·· الخ ويحملون ما يقدرون على حمله من المؤن وقليلا من الملابس · لقد ضج الطريق بالصياح والفوضى ولم يكن كثيرون من العجائز والأطفال بقادرين على السير وقد اضطر الناس لحملهم أسوة بالمرضى ، ولم يكن من سبيل غير هذا ، اذ أن تركهم يعنى تعريضهم للهلاك ·

وفى حوالى الساعة الخامسة وصلنا الى مزرعة صغيرة تابعة لبعض أهل جارا ، وكانت هذه المزرعة تسمى كاديجا Kadeeja ، وهنا وجدت دامان جمعة وجونسون ، وكانا مشغولين بملء غرائز ضخمة بالقمح والذرة وتحميلها على عجل لتكون مؤونة لأسرة دامان أثناء الطريق ·

٢٨ يونيو :

غادرنا كاديجا Kadeeja فجرا ومررنا ببلدة ترونجومبا Troongoomba دون أن نتوقف عندها ، ووصلنا بعد الظهر الى قرى Queira ومكثت بها ليومين ، لأريح حصانى وأجدد نشاطه فقد أرهقه البربر ارهاقا لا مزيد عليه، كما كان على أن أنتظر حتى يصل بعض الماندنجو Mandingo والزنوج الذين هم فى طريقهم الى بمبارا ·

وبعد ظهر الأول من شهر يوليو بينما كنت أجول بحصانى فى الحقول ، وصل الى قرى Queira رئيس عبيد (الشيخ) على وأربعة من البربر وأقاموا فى منزل دوتى Dooty وقد أرسل مترجمى جونسون صبيين لمتابعة أحاديثهم — لشكه فى هدف زيارتهم — وقد جمع أخبارا مؤداها أن لديهم أوامر باعادتى معهم الى بباكر Bubaker · وفى مساء هذا اليوم تم ارسال اثنين من البربر لتفقد حصانى واقترح أحدهما العودة بحصانى الى كوخ دوتى، لكن الآخر رأى أنه لاجدوى من ذلك لأنه لا يمكننى الهرب على حصان هزيل كهذا · ثم سألوا : أين نمت ؟ ثم عادوا لرفاقهم ·

لقد كانت هذه الأحداث تحذيرا كأنه صوت الرعد ، فلم أكن أخشى شيئا خشيتي من الوقوع في قبضة البربر مرة أخرى ، فلم أكن أتوقع الا أن يقتلوني ، لذا فقد قررت الاتجاه فورا الى بمبارا فهذا هو التصرف الوحيد المؤدي لانقاذ حياتي ، والذي سيحقق هدف رحلتي ، وشرحت خطتي لجونسون الذي أيدها لكنه لم يبد رغبة في صحبتي ، فقد أجاب بجدية أنه يفضل أن يفقد ما تبقى له من أجر على أن يستمر في الرحلة أبعد من هذا ، وأخبروني أن دامان قد وافق على أن يعطيه ثمن نصف عبد مقابل خدماته في المساعدة في اصطحاب مجموعة عبيد الى غمبيا ، وانه ـ أي جونسون ـ مصمم على انتهاز هذه الفرصة للعودة الى زوجته وأسرته •

ولما فقدت الأمل في اقناعه باصطحابي قررت أن أنطلق بمفردي ، وفي حوالي منتصف الليل جهزت ملابسي التي كانت تتكون من قميصين وبنطلونين ومنديلين وصدرية علوية وأخرى تحتية وقبعة وحذاءين ومعطف، ولم يكن معي خرزة واحدة ولا أي شيء آخر ذي قيمة يساعدني في شراء مؤن لي أو علف لحصاني •

وفي الفجر تقريبا أتى جونسون ـ الذي كان يتنصت على البربر ـ وهمس في أذني بأنهم نائمون • لقد حانت اللحظة الحاسمة التي ستحدد مصيري فاما أن أنعم بالحرية أو أقضي أيامي أسيرا • وهبت نسمة باردة حلوة صافحت جبيني ، فمصيري سيتحدد هذا اليوم فقد كان من الحمق أن أضيع الفرصة الوحيدة التي لاحت للهرب وركبت ورحت أمشي الهوينى بين الزنوج الذين كانوا نائمين أمام أكواخهم في الهواء الطلق ، وودعت جونسون ورجوته أن يحفظ الأوراق التي أودعتها لديه ، وأن يخبر أصدقائي في غمبيا أن صحتي جيدة وأنني في طريقي الى بمبارا •

وسرت في حذر شديد ، خائفا أترقب وآوي الى كل شجرة ودغل وأتنصت وأنظر خلفي خوفا من أن يلحقني فرسان البربر حتى ابتعدت قرابة ميل عن المدينة ، واعترتني الدهشة عندما اكتشفت أنني على مقربة من قرى Korree التابعة للبربر ، وتبعني الرعاة زهاء ميل يصيحون بي ويحصبونني ولما ابتعدت عنهم واستعدت آمالي السعيدة في الهرب ، حطم أملي صوت يناديني ولما نظرت خلفي رأيت ثلاثة فرسان من البربر يعدون خلفي بأقصى سرعة ويصوبون بنادقهم ذوات الماسورتين تجاهي ، فأيقنت ألا أمل في الهرب فأدرت حصاني وسرت نحوهم فقلب اثنان منهم حقيبة ملابسي ، أما الثالث فكان يصوب بندقيته نحوي وقال لي انه يتحتم على أن أعود الى علي •

عندما يتردد عقل الانسان محتارا – لفترة – بين الرجاء واليأس ، فيركن الى جانب ثم يسرع الى الجانب الآخر ، بمعنى أن يتردد عقله بين المتناقضات ، فانه يركن الى حساب أسوء الأمور التى يمكن أن تحدث . وقد كان هذا هو موقفي ، فقد ركبت حصانى وعدت مع هؤلاء البربر دون اهتمام غير مكترث بحياتى ، وقد تلاشـت من أمامى كل مسرات الدنيـا بسبب ما أواجهه من صعوبات . لكن تغييرا غير متوقع سرعان ما حل فغير نظرتى للأمور فعند مرورنا خلال دغل كثيف الشجر أمرنى أحد البربر بفتح حقيبتى وأن أريهم محتوياتها ، فلما تفحصوها لم يجدوا ما يستحق أن يأخذوه الا معطفى ، فانتزعه أحدهم وارتداه ، ونظروا اليه على أنه شيء ثمين جدير بأن يأخذوه ، وقد كان المعطف ذا فائدة كبيرة بالنسبة لى فاننى أستخدمه ليقينى المطر نهارا ويحمينى من الناموس ليلا ، فتوسلت اليهم ليعيدوه الى وحاولت نزعه منه فلم يستجيبوا لتوسلاتى وركب اثنان منهم ومعهم غنيمتهم هذه وانطلقا ، ولما حاولت أن أتبعهما ضرب الثالث – الذى بقى معى – رأس حصانى وأخبرنى أنه لا يجب أن أتقدم أكثر من ذلك .

لقد فهمت الآن أن أحدا لم يرسل هؤلاء البربر للقبض على والعودة بى وانما كان قصدهم نهبى وسرقة ما معى ، فوجهت حصانى مرة أخرى ليعدو شرقا وهنأت نفسى بالنجاة رغم ما تعرضت له من بربرية . وأسرعت بحصانى فى البرارى لأبتعد عن البربر حتى وجدت نفسى قريبا من بعض الصخور العالية ، وتذكرت أننى رأيتها قبل ذلك فى طريقى السابق من قرى Queira الى دينـا Deena . وغيرت اتجاهى قليلا للشمال ولحسن حظى فقد وجدت الطريق المناسب .

* * *

تعليق المحرر :

[وبعد صعوبات شديدة صحب بارك مجموعة من أهل كارتا Kaartans الهاربين ، كانوا يودون العمل فى خدمة ملك بمبارا – فوصل بذلك الى النيجر] .

***

النيجـــر

١٣ يوليو :

لقد واصلنا مسيرتنا في الصباح ٠٠ وكانت الطرق مبتلة وزلقة ، لكن المنطقة كانت في الغاية من الجمال تزخر بالمجاري والنهيرات التي ترتفع مياهها وتزداد بسبب الأمطار ٠ وفي حوالي الساعة العاشرة وصلنا الى خرائب (بقايا) لحقها الدمار بسبب الحرب منذ ستة أشهر ، وحتى يمنع الجيش المنتصر بناء القرية مرة أخرى تم احراق شجرة البنتانج Bentang الضخمة ، التي كان أهل القرية قد تعودوا قضاء النهار في ظلالها ، كما تم هدم الجدران وتخريب كل ما يجعل المكان قابلا للسكنى ٠

وفي حوالي الظهر اعترى حصاني التعب الشديد ، حتى انني لم أعد قادرا على ملاحقة رفاقي فترجلت وطلبت منهم أن يسبقوني وقلت انني سألحق بهم حالما يستريح حصاني قليلا ، لكنني وجدتهم غير راغبين في مفارقتي ، فقد قالوا ان الأسود كثيرة في هذه الأنحاء ، ومع أنها قد لا تهاجم الذين يسيرون في مجموعات ، الا أنها سرعان ماتهاجم الانسان ان كان منفردا أي يسير وحيدا ٠ لذا فقد تم الاتفاق على أن يبقى أحدهم بصحبتي ليساعدني في حث حصاني على المسير ، وأن يسبق الآخرون الى جالو Galloo ليدبروا مكانا للاقامة وليجمعوا علفا للخيول قبل حلول الليل٠ وقد قدت حصاني وجعلته يسير أمامي ، يصاحبني هذا الزنجي الفاضل ، وفي حوالي الساعة الرابعة بدت لنا جالو ، وهي مدينة كبيرة تقع في واد خصب وجميل وتحيطها صخور عالية ٠

ولأن رفاقي كانوا ينوون الاقامة في ضواحي المدينة (جالو) ، فقد حصلوا على خروف من الدوتي Dooty (العمدة ؟) ، كما أمكنني تدبير كميات كبيرة من القمح (الذرة) لحصاني ، لحسن الحظ ٠ وفي هذا المكان نفخوا في أسنان الفيلة (المجوفة) ليعلنوا بدء صلاة المغرب ، على النحو نفسه الذي جرى في كيمو Kemmoo .

وفي بكور صباح اليوم التالي (١٤ يوليو) شكرت سيدي my Landlord لكرمه ، وراح رفاقي يؤدون صلاتهم ، بينما واصلنا نحن المسير ، وقد وصلنا في غضون ثلاث ساعات الى مورجا Moorja وهي مدينة كبيرة حققت شهرة بسبب تجارتها في الملح الذي يجلبه البربر هنا بكميات كبيرة ، ويبادلونه بالقمح (الذرة) والملابس القطنية ٠ ولأن معظم الناس هنا يدينون بالاسلام ، فان شرب البيرة ممنوع على المسلمين

وعلى الكافرين أيضـا Kafirs الا في محلات مخصصـة لهذا الغرض ، ويطلقون على البيرة اسم نيو دولو Neo dollo ومعنـاها روح القمح أو الذرة Corn-spirit • وفي احدى هذه الحانات رأيت حوالي عشرين شخصا جالسين حول وعاء كبير ملئ بهذه البيرة وهم في حالة مرح صاخب، وكان كثيرون منهم في حالة سكر بين • والقمح هنا متوفر بكثرة ، وأهل البلاد يتآلفون مع الغرباء تماما • لقد أرسل لنا أناس مختلفون كميات كبيرة من القمح والحليب تكفي لثلاثة أضعافنا ، ورغم أننا مكثنا هنا يومين فلم ألحظ أى قصور في كرمهم •

وفي صباح اليوم السادس عشر من شهر يوليو شرعنا مرة أخرى في المسير ، مصحوبين بأربعة عشر حمارا محملة بالملح ، قاصدين سانساندنج Sansanding • لقـد كان الطريق ذا طابع خيـالى فقد كان بين تلين صخريين الا أن البربر يكمنون فيه - في بعض الأحيان - لسلب الغرباء • وبمجرد أن وصلنا للمنطقة المكشوفة شكرنا قائد قافلة الحمير المحملة ملحا لمصاحبتنا له مسافة طويلة ، وأبدى رغبته الآن أن نتابع مسيرنا • وغربت الشمس قبل أن نصـل الى داتيلبو Datilboo • وفي المسـاء تعرضنا لاعصار قمعى مروع tremendous tornado وأدى هذا الاعصار الى تسوية المنزل الذى كنا نقيم فيه بالأرض ، وسالت الأمطار في نهيرات وبحار ، وانطفأت النيران ، فتركنا بقايا المنزل لنقضى الليل فوق أكوام من الحطب (خشب الوقود) كانت في أحد الأركان •

١٧ يوليو :

غادرنا داتيلبو Datilboo • وفي حوالى الساعة العاشرة مررنـا بقافلة عائدة من سيجو Sego وكانت محملة بالفئوس والحصر وغير ذلك من الأدوات المنزلية • وفى الساعة الخامسة وصلنا الى قرية كبيرة ، وكنا قد اعتزمنا قضاء الليل بها ، ولكن الدوتى Dooty لم يستقبلنا • ولما غادرنا هذا المكان لاحظت أن حصانى مرهق فاضـطررت للترجل والسير معـه ، وحل الليـل قبل أن نصل فانيمبو Fanimboo وهى قريـة صغيرة ، ولما سمع الدوتى Dooty (حاكم القرية أو العمدة) أننى رجل أبيض أحضر ثلاث بنادق قديمة لأصلحها له ، واستاء كثيرا عندما علم أننى لا أستطيع اصلاحها •

١٨ يوليو :

لقـد واصلنا رحلتنا وأحسسنا بالجوع في الصباح ، لأننا كنا قد تناولنا - في المساء - عشاء خفيفا ، وحاولنا تدبير بعض القمح من القرية

لكننا لم نلتقط • ولكن الآن فضاعدا تصبح المدن أكثر عددا والأرض ا
لم تستغل في الزراعة تمثل مراعي خضبة لقطعان كبيرة من الماشية ، وتف
أعداد كبيرة من الناس يوميا الى سجو ويعودون ، والسكان هنا أقل ك
مع الغرباء •

لقد راح حصاني يضعف يوما بعد يوم وأصبح غير مفيد لي كثير
فقد كنت مضطرا لتركه يسير أمامي معظم النهار ولم أصل الى جيوزو
Geosorro حتى الساعة الثامنة مساء • وقد وجدت رفاقي يتشاح
مع الدوتي Dooty (العمدة) الذي رفض رفضا قاطعا أن يعطيهم أية د
أو يبيعهم اياها • ولأن أحـــدا منا لم يكن قد ذاق طعـاما طوال الاثن
والعشرين ساعة الماضية ، كنا عرضة لأن نصوم يوما آخر • ووجدنا
توسلاتنا للحصول على الطعام غير مجدية وكنا في الغاية من الارهاق
فنمت واستيقظت في حوالي منتصف الليـل فسمعت أخبارا (٦٧) تد
للبهجة ، فالطعام آت ، وقد أدى قدوم الطعام الى أننا قضينا بقية الليل
سرور وسعادة حتى الفجر •

١٩ يولية :

وواصلنا رحلتنا على أمل التوقف في قرية دولنكيابو olinkeaboo
في الليلة التالية ، وسرعان ما سبقني رفاقي لأن خيولهم أفضل حالا
حصاني • وقد سرت حافي القدمين خلف حصاني فقابلت قافلة من حو
عشرين عبدا قادمة من سيجو Sego • وكان العبيد مربوطين من رقـا
بحبال مجدولة من شرائح جلد ثور ، كل سبعة معا (في حبل واحد) و
كل سبعة رجل يحمل بندقية قديمة الطراز • وكانت حالة عبيد كثير
تدعو للرثاء ، وفي مؤخرة القافلة خادم سيدي محمد الذي تذكرت أ
سبق أن رأيته في معسكر بنون Benown وسرعان ما عرفني وقد أخبر
أن هؤلاء العبيد في طريـقهم إلى مراكش Morocco عن طريـق لودام
Ludamar والصحراء الكبرى •

وبعد الظهر قابلت أثناء تقدمي صوب دولنكيابو Doolinkeaboo
حوالي عشرين من البربر يركبون خيولا ، وكانوا هم أصحاب قافلة العبـ
الآنف ذكرها • لقد كانوا مسلحين تسليحا جيدا بالبنادق قديمة الطر
وكانوا شغوفين بمعرفة أمري لكنهم لم يكونوا غلاظ الأكباد كبني جنسه
وقد علمت منهم أن سيدي محمد ليس في سيجو وانما ذهب الى كانك
Kancaba لجلب تراب الذهب (التبر) •

(★) الأخبار باللغة المحلية هي كينيتانا Kinnenata .

ولما وصلت الى دولنكيابو Doolinkeaboo . علمت أن رفاقى قد تابعوا مسيرهم ، وكان حصانى قد بلغ من التعب مبلغا يحول بينى وبين السير فى اثرهم • وقد قدم لى دوتى المدينة (العمدة) جرعة ماء طلبتها منه ، ولم يكن لدى شك فى أننى سأعوض التعب الذى واجهته بأن أنعم بعشاء طيب ونوم مريح • ولسوء الحظ أننى لم أحظ بأى منهما فلم يزد كرم العمدة عن جرعة الماء التى قدمها لى بناء على طلبى ، وكان الليل ممطرا عاصفا •

٢٠ يوليـة :

وفى الصباح حاولت الحصول على بعض المؤن من الدوتى بالتوسل تارة وبالتهديد تارة أخرى • لكن محاولاتى ذهبت أدراج الرياح ، بل لقد تسولت بعض القمح من احدى العبيد بينما كانت تغسله من ماء البئر وشعرت بالخزى عندما رفضت • وعلى أية حال ، فعندما ذهب الدوتى الى الحقل أرسلت لى زوجته قبضة دقيق خلطتها بالماء وشربتها فكانت هذه الوجبة هى افطارى • وفى حوالى الساعة الثامنة غادرت دولنكيابو Doolinkeaboo ، وعند الظهر توقفت لخمس دقائق عند زريبة ضخمة Korree فأعطانى أصحابها من الفولة (بفتح الفاء والواو) بعض الحليب • ولما سمعت أن زنجيين فى طريقهما الى سيجو كنت سعيدا بصحبتهما ، وفى حوالى الساعة الرابعة توقفنا عند قرية صغيرة حيث تقابل أحد الزنجيين ببعض معارفه ، فدعانا لوليمة ، فقدم لنا طبقا من حليب رائب وجريش (من قمح) ويسمى سينكاتو Sinkatoo وبيرة مصنوعة من قمحهم ، وقد انضمت النساء للوليمة وهو أمر لم ألحظه قبل ذلك فى أفريقيا • وكان لكل من حضر الوليمة الحق فى أن يشرب كيف شاء وأية كمية يريد وكان الواحد منهم يومئ للآخرين برأسه عندما يشرع فى الشرب ، وعندما يضع الواحد منهم القرعة (٦٩) يقول برَكا berka (٧٠) ومعناها شكرا لك وقد بدا من حضر الوليمة من رجال ونساء — سكارى لكنهم لم يكونوا مشاكسين •

ولما غادرنا هذا المكان مررنا بعدة قرى كبيرة حيث كانوا يدعوننى بربريا ، وكنت موضوعا جديرا بالتناول عند أهل بمبارا الذين رأونى وأنا أسير خلف حصانى ، فكانوا يضحكون من قلوبهم لغرابة منظرى ، فقال أحدهم : لقد كان فى مكة •• ألا ترون ملابسه ، وسألنى آخر ان كان حصانى مريضا • وعرض على ثالث شراء حصانى ، لذا فقد كنت أعتقد أن العبيد كانوا خجلين من صحبتى • وقبل حلول الليل دبرنا أمر مبيتنا فى قرية صغيرة حيث دبرت بعض الطعام لنفسى وبعض الذرة لحصانى ، بعد أن

دفعت فيهما ثمناً معتدلا وهو أحد الأزرار ، وقيل لى اننى سوف أرى نهر النيجر في صباح اليوم التالى ، مبكرا • ويسمى أهل هذه المنطقة نهر النيجر باسم جوليبا Joliba ومعناها الماء العظيم أو المجرى الكبير • والأسود هنا كثيرة ، لذا فهم يغلقون بوابات القرية بعد الغروب بقليل ولا يسمح لأحد بالخروج • ان الأفكار التى راحت تراودنى عن رؤية نهر النيجر فى الصباح منعتنى من النوم ، وأمرجت حصانى وأصبحت مستعداً للانطلاق قبل الفجر ، لكن اغلاق بوابات القرية خوفاً من الحيوانات المتوحشة اضطرنى للانتظار حتى فتحها • لقد حدث أن هذا اليوم كان يوم سوق فى سيجو ، وكانت الطرق مزدحمة بالناس يروحون ويجيئون حاملين معهم مختلف البضائع • لقد مررت بأربع قرى كبيرة • وفى الساعة الثامنة شاهدنا دخاننا فوق سيجو Sego ..

••• وقد وافقوا على تقديمى للملك فركبنا وعبرنا أرضا سبخة ، وكنت أنظر بعين قلقة حولى بحثا عن النهر ، وصاح أحد المرافقين لى قائلا: انظر النهر فنظرت أمامى فوجدت الهدف الكبير لرحلتى •• إنه النيجر العظيم يتألق تحت أشعة الصباح • انه فى عرض نهر التيمز Thames عند وستمنستر Westminster ويَنساب بهدوء صوب الشرق ، فأسرعت اليه وشربت من مائه وشكرت الله سبحانه أن كلل جهودى بالنجاح •

ولم يثر دهشتى كون النيجر ينساب نحو الشرق ، رغم أننى عندما غادرت أوربا كان يعترينى شك كبير فى ذلك وكنت أكثر ميلا الى أنه ينساب نحو الغرب ، ولكن المعلومات التى جمعتها من قبائل زنجية مختلفة أثناء رحلتى أكدت لى أن مجراه العام يتجه نحو مشرق الشمس ، كان الماجور هوجتون قد جمع معلومات عن النهر بطريقة شبيهة بالطريقة التى اتبعها الماجور هوجتون •

وتتكون سيجو عاصمة البمبارا التى وصلتها الآن من أربع (مدن) محددة كما قيل لى ، اثنتان على الشاطىء الشمالى للنيجر وتسميان سيجو كورو Sego Korro وسيجو بوجى Buji واثنتان على الشاطىء الجنوبى هما سيجو سو Soo كورو ، وسيجو سى See كورو ••• وبعض مبانى سيجو مكون من طابقين •• ويرى المرء فى كل ميدان مسجدا ••• ويقيم ملك البمبارا فى سيجو سى See كورو ، وقد وظف عددا كبيرا من عبيده فى نقل الناس عبر النهر من شاطىء الى آخر ، ولا يحصل من الفرد الواحد لقاء عبوره أكثر من عشر كواريات (المفرد كوارى) •

القوارب :

ويتكون كل قارب من جذعي شجرتين ضخمتين ، وهما مربوطان معا ، لا جنبا الى جنب وانما موصولان في نهاية طرف كل جذع عند بداية طرف الجذع الآخر ، وقد حفرا (قعرا) ، ويكون موضع وصلهما معا هو منتصف القارب بالضبط ، وليس له صار (دقل) ولا ظهر (دك Deck) ومع هذا فهو متسع جدا فقد رأيت في أحدها أربعة خيول وعددا من الأشخاص يعبرون النهر .

البربر :

ولما وصلنا الى مكان عبور النهر لنصل الى حيث يقيم الملك ، وجدنا عددا كبيرا ينتظرون في ممر العبور وكانوا ينظرون الى بدهشة صامتة ، ولما تطلعت في وجوههم ميزت عددا من البربر بينهم ، وكان العاملون على القوارب يتسمون بالسرعة والنشاط ، ولم أستطع العبور بسرعة للزحام الشديد فجلست على شاطىء النهر أنتظر أن تتاح لى فرصة مناسبة .

سيجو مدينة عظيمة في قلب أفريقيا :

ان اتساع هذه المدينة (سيجو) وكثرة عدد القوارب في النهر وعمران المدينة بالسكان والأراضي الزراعية المحيطة بها ، كل أولئك يعطي انطباعا بالحضارة والعظمة . انني لم أكن أتوقع أن أجد مدينة على هذا النحو في قلب أفريقيا .

في انتظار عبور النهر :

انتظرت أكثر من ساعتين دون أن تتاح لى فرصة عبور النهر ، وكان الناس الذين مروا بي قد حملوا معلومات الى مانسونج الملك ، مؤداها أن رجلا أبيض ينتظر عبور النهر للالتقاء به ، فأرسل على الفور أحد رجاله المهمين ليقول لى أن الملك لا يستطيع رؤيتى الا اذا عرف سبب مجيئك لبلادنا .

لماذا أتيت لبلادنا ؟

وأكثر من هذا فقد أخبرني أنه لا يمكن عبور النهر دون اذن الملك ، ونصحني أن أقضي الليل في قرية بعيدة عن سيجو حددها لى ، وفي الصباح سيأتي ليزودني بتعليمات أخرى . لقد كان ما سمعته غير مشجع ،

غير أنه لم يكن ثمة مناص من تنفيذ هذه الأوامر ، فذهبت للقرية وأصابني الحزن ، إذ لم يسمح لي أحد أن أكون ضيفا عليه فقد نظر لي الجميع بخوف ودهشة ٠

في ظل شجرة وبغير زاد :

فاضطررت لقضاء ما بقي من النهار تحت شجرة وبلا زاد ٠ وفكرت كيف يمر الليل في هذا المكان والريح تعوي من حولي ، وكان الجو ينبىء بهطول أمطار كثيفة ولن تكف أصوات الحيوانات المفترسة عن صك مسامعي ٠ انني سأضطر لتسلق شجرة ومحاولة أخذ قسط من الراحة بين فروعها حتى شروق الشمس ٠ وعلى أية حال ، فما كاد المساء يحل وبينما أهيىء نفسي لقضاء الليل هنا وقد تركت حصاني يرعى بحرية رأتني امرأة عائدة من عملها في الحقل ٠

امرأة رقيقة القلب :

وتوقفت المرأة تلاحظني واستنتجت أنني متعب ومرهق ، فشرحت لها وضعي فنظرت الي بعطف شديد فأمسكت باللجام والسرج ، وطلبت مني أن أتبعها وأدخلتني كوخا وأشعلت مصباحا وفرشت حصيرا وقالت لي عليك بقضاء الليل هنا ، ووجدت أني جوعان فانسلت لتحضر لي طعاما وسرعان ما عادت حاملة سمكة طيبة ٠٠ وقدمتها لأتناول عشائي ٠٠٠

رجل أبيض بلا أم ولا زوجة :

واستدعت المـــرأة نســـاء أسرتها اللائي وقفن ورحن يحملقن في بدهشة ، وسهرن يغزلن القطن حتى وقت متأخر من الليل ٠ وكن يهون من عناء عملهن بالغناء وكنت أنا موضوع احدى الأغنيات ٠ اذ غنت احدى الفتيات أغنية عني وكانت الأخريات يرددن وراءها وترددت الأغنية ، بينما كان الهواء بديعا تكسره روح الحزن التي كانت تشع من الأغنية ، وفيما يلي ترجمة دقيقة للأغنية :

الريـــح تعوي

والمطر يهطل

بينما أقبل الرجل الأبيض البائس .

واهنـــا حزينـــا

ليجلس تحت الشجرة
ليس له أم تقدم له الحليب
ولا زوجة تطحن له القمح

ويردد الكورس :

دعونا نرحم الرجل الأبيض
فليس له أم تقدم له الحليب
وليس له ... الـخ

... لقد تأثرت كثيرا بهذا العطف ونمت ملء جفني ، وفى الصباح قدمت لمضيفتى العطوف زوارين نحاسيين من الأربعة الباقية فى معطفى.. وهذا كل ما استطعت تقديمه لها لقاء عطفها .

٢١ يوليو :

قضيت فى القريـة طوال النهار أتحدث مع الأهـالى الذين أتـوا وتزاحموا لرؤيتى ، وعندما بدأ المساء لم يكن الأمر يسيرا بالنسبة لى فلم يصـل من طرف الملك أى رسـول ، وبدأ الناس يتهامسون بما يفيد أن مانسونج (الملك) قد تلقى تقارير غير مشجعة بشأنى من البربر ومن تجار الرقيق المقيمين فى سيجو ، جعلته يتشكك فى أهداف رحلتى .. وأخبرنى بعض أهل القرية أن أعدائى كثيرون وليس على أن أتوقع تعاطفا .

٢٢ يوليو :

فى حوالى السـاعة الحادية عشرة وصـل رسول من الملك ولم يكن ما يحمله من أخبار بمرض لى تماما ، فقد سأل على نحو خاص عن الهدايا التى أحضرتها للملك ، وبدا غير راض عندما أخبرته أن البربر سرقوا منى كل شىء ، ولما اقترحت أن أذهب للملك أخبرنى أن أنتظر حتى ما بعـد الظهر حتى يرسل الملك فى طلبى .

٢٣ يوليو :

وصلنى رسول من مانسونـج (الملك) بعد الظهر ، وكان يحمل حقيبة وأخبرنى أنه يسعد الملك أن غادر القرية القريبة من سيجو . ولأنه يود لك رحلة سعيدة فـانه يقـدم لك أربعـة آلاف كوارى Kowries ،

لتتمكن من شراء المؤن أثناء رحلتك ، واذا كان هدفي حقيقة هو الوصول الى جنى Jinnie ، فانه سيصحبني الى سانساندنج Sansanding .
وقد احترت في فهم تصرف الملك ، لكنني عرفت من خلال مناقشاتي مع الدليل أن مانسونج لم يكن لديه مانع من استقبالي ، لكنه وجد أنه قد لا يكون قادرا على حمايتي من مكر السكان البربر ومكائدهم • ومن تم فقد كان تصرفه حصيفا ومتحررا • ان الظروف التي صاحبت ظهوري في سيجو Sego قد أثارت في عقل الملك شكوكا عن كوني أريد التعمية على سبب قيامي بهذه الرحلة ، وربما قد ناقش متسائلا ــ كما فعل دليلي ــ عن مدى معقولية قدومي من بلاد نائية وتعرضي لأخطار جمة لأرى نهر جوليبا Jolibe • أليس في بلادي نهر أم أن هذا النهر يختلف عن سائر الأنهار • ان هذا بالاضافة لمكائد البربر كان كافيا للاعتقاد بأن الرجل الأبيض الموجود الآن ، في بلاده في الغاية من البؤس لابد أن يكون له دافع قوى يجبره على تحمل هذه المشاق •

***

بارك يقرر العودة

وفي حوالى الساعة الرابعة وصلنا مورزان Moorzan وهي مدينة لصيد السمك على الشاطىء الشمالى ، ومنها عبرت النهر الى سيلا Silla وبقيت فيها حتى حل الظلام ، تحت شجرة يحيط بي مئات من البشر وكانت لغتهم تختلف اختلافا كبيرا عن لغة مناطق بمبارا الأخرى • وعلمت أنه كلما أوغلنا شرقا أصبحت لغة البمبارا أقل استخداما وأنني اذا وصلت الى جنى Jenné وجدت معظم الناس يتحدثون لغة مختلفة يسميها الزنوج لغة جنى كومو Jenné Kummo ، ويسميها البربر لغة السودان (كلام سودان) Kalam Soudan .

وقد سمح لى الدوتى بعد أن توسلت اليه كثيرا ــ بدخول عريشه his baloon لأحتمي من المطر ، لكن المكان كان رطبا مقبضا ، وقد اشتدت بي نوبة الحمى أثناء الليل • لقد بدأت أفكر جديا في تقدير موقفي فقد هدني المرض وأرهقني الجوع وفك التعب عظامي ، وغدوت أسير شبه عار ولم يعد معي أى شيء ذى قيمة أدبر به أمر طعامي ولباسي واقامتي • لقد اقتنعت الآن من خلال تجارب مريرة أن العقبات التي سأواجهها اذا قررت الاستمرار في الرحلة ــ هي عقبات فوق الطاقة • فالأمطار الاستوائية كانت تهطل بكل عنفها ، فحقول الأرز والمستنقعات تفيض بالماء

فى كل مكان ، وفى غضون أيام قلائل يصبح السفر مستحيلا الا نهريا • والكوارى kowries المتبقية مما أعطاه لى ملك بمبارا لم تعد كافية كى أؤجر قاربا Canoe لينقلنى الى مسافة طويلة ، ولم آكن آمل كثيرا أن أعيش على صدقــات الآخرين فى منطقة يحظى فيها البربر بنفوذ كبير • وفوق كل هذا ، فقد أدركت أن تقدمى سيجعلنى شيئا فشيئا بين قوى متعصبة ، وقد أدركت عنـدما كنت فى سيجو Sego وسانسانديـنـج Sansanding أننى اذا حاولت حتى أن أصل الى جنى ، فقد ألاقى حتفى بلا هدف ، فأموت وتموت نتائج اكتشافاتى معى ، اللهم الا اذا كنت فى حماية أحد ذوى النفوذ منهم وهو أمر لم أقدر على الفوز به • ومن ناحية ثانية فان الجانب الآخر للصورة كان كئيبا مظلما ، فالعودة الى غمبيا سيرا على الأقدام لمئــات الأميال عبر مناطق وبــلاد غير معروفة مســألة ــ عند تأملها ــ ليست هينة ، ومع ذلك لم يكن هنـــاك بديل آخر خاصة وأننى هالك لا محالة ان حاولت متابعة رحلتى شرقا • وآمل أن يقتنع القارىء بأننى كنت على حق فى امتناعى عن التوغل ــ الى الشرق ــ آكثر من ذلك •

* * *

أما وقد وقر فى ذهنى أن أعود متجها الى الغرب ، فقد وجدت لزاما على ــ قبل مغادرة سيلا Silla أن أجمع من التجار البربر والزنوج كل ما أستطيع من معلومات عن نهر النيجر فى اتجاهه صوب الشرق ، وعن أوضاع الممالك القريبة من النهر ومدى امتدادها ، والملاحظات القليلة التى سأدرجها فيما يلى جمعتها من مصادر مختلفة ، وأميــل الى أنها معلومات صادقة •

تقع مدينة جنى Jenne الى الشرق من سـيلا برحلة قصيرة قوامها يومان• وتقع جنى على جزيرة صغيرة فى النهر ويقال انها زاخرة بالسكان، فسكانها آكثر عددا من سكان سيجو ذاتها ، بل وآكثر عددا من سكان أية مدينة أخرى من مدن بمبارا ، وبعد جنى بيومين (تجاه الشرق) يتسع نهر النيجر ليصـــبح بحيرة كبيرة تسمى ديبى Dibbie ومعناها البحيرة المظلمـــة ، وعنــد عبور هذه البحيرة من الغرب الى الشرق لا يرى راكب القارب برا طوال نهار كامل ، ومن هذه البحيرة تتشعب عدة مجار (فروع)، سرعان ما تكون فرعين كبيرين ، أحـــدهما يتجه نحـو الشمال الشرقى والآخر يتجه نحو الشرق ، ويتــلاقى هذان الفرعــان عند كبرا Kabra الواقعة الى الجنوب من تمبكتو Tombuctoo برحلة مدتها يوم واحــد • وتعــد كبرا بمثابــة ميناء أو مرسى لسفن تمبكتو والأراضى الواقعة بين

الفرعين آنفي الذكر تسمى جنبالا Jinbala ويسكنها الزنوج ، والمسافة بين جنى Jenné وتمبكتو رحلة مدتها اثنا عشر يوما ٠

ومن كبرا Kabra يتجه فرع النهر الى جنوب بلاد الحوصة (بفتح الحاء وتسكين الواو) أو الهوسا Houssa بعد رحلة مدتها أحد عشر يوما، وتبعد بلاد الحوصة عن النهر برحلة مدتها يومان ، أما عن مصب النهر فان كل أهل البلاد الذين تناقشت معهم كانوا يجهلونه تماما ٠ فمصالحهم التجارية قلما تدعوهم الى التوغل في النهر الى أبعد من تمبكتو والهوسا ، ولأن أهداف رحلاتهم لا تتعدى التجارة وجمع الثروة ، فانهم قلما يهتمون بمجرى النهر أو جغرافية المنطقة ٠ وعلى أية حال ، فهناك احتمال كبير أن نهر النيجر يعد بمثابة وسيلة مواصلات سهلة ومهمة بين أمم متباعدة ٠ فكل المعلومات المتوفرة لدى تؤكد أن كثيرا من التجار الزنوج الذين يصلون الى تمبكتو والهوسا (الحوصة) من الشرق ، يتحدثون لغات مختلفة عن لغات البمبارا أو أية مملكة أخرى يعرفونها ٠ ومع هذا فحتى التجار لا يعرفون مسار النهر ، والذين يتحدثون العربية منهم يصفون النهر بكلمات عامة ، كأن يقولون انه ــ كما يعتقدون ــ يجرى حتى نهاية العالم ٠

* * *

تعليق المحرر :

[وعند عودة بارك أثناء الموسم المطير وجد أن البربر قد حرضوا ملك Mansong ضده ، ومع أن قليلا من القرويين قد ساعدوه ، فقد واجه متاعب في رحلته التى خاض فيها المناطق السبخة والمستنقعات ، وأثارت الحيوانات المتوحشة فيه الرعب،وظل على هذا المنوال حتى وصل الى كاماليا Kamalia وفيها استقبله احد المسلمين بكرم بالغ ، وكان اسم هذا المسلم كارفا تاورا Karfa Taura وقد غمره هذا الزنجى المسلم بكرم بالغ واستضافه حتى توقف المطر ، فانضم الى قافلة عبيد فى طريقها الى غمبيا] ٠

* * *

كارفا تاورا

Karfa Taura

الزنجى المسلم

عنـد وصـولى الى كاماليا Kamalia دلونى على بيت أحد المسلمين الزنوج واسـمه كارفا تاورا ، وكون أخـوه كريمـا معى فى كينييتـو Kinyeto وأنا مدين له بهذا الكرم • وكان كارفا تاورا يجمع قافلة عبيـد ليبيعهم للأوربيين فى غمبيـا بمجـرد انتهـاء الموسم المطير • لقد وجدته جالسـا فى عريشه his baloon يحيط به عـدد من تجـار الرقيـق slatees المرشحين للالتحـاق بالقـافلة • وكان يقـرأ لهم فى كتاب باللغة العربية وسألنى والابتسامة تملأ وجهه ان كنت أفهم ما يقرأ ؟ ولما أجبت بالنفى طلب من أحد الـ slatees أن يبحث عن الكتاب الصغير الشيق الذى أحضره معه من المناطق الغربية • وعندما فتحت هذا المجلد الصغير اعترتنى الدهشة وغمرنى السرور فقد كان هو كتاب الصلوات Book of Common Prayer سر كارفا سرورا كبـيرا عندما علم أننى أستطيع قراءته • لأن بعض الـ Slatees الذين سبق لهم أن رأوا الأوربيين على الساحل قد لاحظوا أن لون جلدى (الذى غدا الآن أصفر شديد الصفرة لطول المرض) وطول لحيتى ، ورثاثة ثيابى ، وفقرى البادى يخرجنى من زمرة الرجال البيض ، بل وأبدوا هواجسهم لكارفا ذاكرين له أننى ربما كنت عربيا متنكرا • وعلى أية حال ؛ فان كارفا بعد أن اقتنع أننى قادر على قراءة هذا الكتاب لم يعد يحمل شكا تجاهى ووعدنى متلطفا بكل مساعدة يمكنـه القيـام بها • وقد أخبرنى ــ فى الوقت نفسـه أنه من المستحيل عبور برارى جالونكا Jallonka لشهور كثيرة قادمة فهناك ما لا يقل عن ثمانية أنهر سريعة الجريـان تعوق الطريق ، وقال انه ينوى الاتجاه الى غمبيا بمجرد أن تصبح هذه الأنهار قليلة المياه يسهل خوضها ، وبمجرد أن يصبح من السهل احراق الحشائش ، ونصحنى أن أبقى فى ضيافته وأن أرحل بصحبته • وقد أبدى ملاحظة مفادها أن أفضل وقت يمكن للرجل الأبيض أن يقطع فيه هذه المنطقة منفردا هى الفترة التى لا تستطيع فيها قوافل أهل البلاد قطعها ، لكننى كنت أدرك أن مثل هذه المحاولة ــ بالنسبة لى ــ مسألة شبه مستحيلة الا أنه ليس أمامى خيار الآن فليس لدى مال أزود به نفسى ، وليس أمامى الا أن أتسـول أثناء تنقلى من مكان الى آخر أو أن ألاقى حتفى جوعا • لقد نظر الى كارفا الآن بجدية كاملة وسألنى ان كنت أستطيع العيش على تناول طعام أهل البلاد لأنه ــ كما أكد لى ــ لم يسبق له أن رأى رجلا أبيض • وقد أضاف قائلا اننى اذا رغبت فى

البقاء معه حتى ينتهي المطر ، فانه سيقدم لى طعاما كافيا وكوخا لأنام فيه ، وبعد أن يصحبني بأمان الى غمبيا فانه يتوقع مني مقابلا لذلك ، فسألته ان كان ثمن عبد جيد يعد مقابلا منـاسبا ، فأجاب بالايجاب ، وسرعـان ما أمر باعداد كوخ لاقامتي وكنت ممتنا للغاية لهذا الرنجي الخير الذى اولاه لوردت موارد التهلكة •

وفى الكوخ الذى تم اعداده لاقامتي كانت هناك حصيرة لأنام عليها ، وزير فخارى للماء ، وقرعة لأشرب فيها (قرعة مجوفة ومجففة) ، وكان كارفا يرسل لى من منزله وجبتين فى اليوم وأمر عبيده بامدادى بخشب الوقود والماء ، الا أنه لا كرم كارفا ولا هذه التجهيزات المريحة كانت قادرة على شفائى من الحمى التى أضعفتنى كثيرا ، والتى كانت وطأتها تزداد يوما بعد يوم • وقد حاولت جهد الطاقة أن أخفف من محنتى ، الا أنه فى اليوم الثالث لوصولى ، وجدت نفسى واهنا للغاية لا أكاد أقدر على السير بينما كنت ذاهبا مع كارفا لزيارة بعض أصدقائه — وقبل أن نصل للمكان الذى كنا قاصديه ، وجدت نفسى أترنح وأسقط فى حفرة كانوا يحملون منها الطين لبناء كوخ ، فهرع كارفا لمواساتى متمنيا لى شفاء سريعا وأكد لى أننى اذا مكثت فى الكوخ ولم أخرج ولم أعرض نفسى للرطوبة فسأشفى سريعا ، وقد صممت على اتباع نصيحته وكمنت فى الكوخ لكن الحمى لم تفـارقنى وظلت صحتى فى تدهور طوال خمسة أسـابيع متتالية ، وفى بعض الأحيان كان فى مقدورى أن أزحف لأجلس ساعات قليلة فى الهواء الطلق خارج الكوخ ، وفى أحيان أخرى لم أكن قادرا على النهوض فأقضى الساعات مبتئسا وحيدا وقلما كان يزورنى أحد الا سيدى كارفا ، الذى كان يأتينى يوميـا للاطمئنان على صحتى • ولما بدأ سـقوط المطر يقل ، وبدأت المنطقـة تنعم بشىء من الجفاف — فـارقتنى الحمى ، لكننى كنت لا زلت واهنا لدرجة أننى لم أكن أسـتطيع الوقوف منتصبا ، ولم أكن أستطيع أن أحمل الحصيرة لأضعها تحت شجرة تمر هندى tamarind القريبة ، لأنعم برائحة حقول الحنطة وأبهج عينى بمنظر المنطقة — الا بشق النفس • وقد وجدت نفسى أخيرا فى حالة طيبة فنعمت بوقتى ، بفضل بساطة الزنوج وكرمهم ، وبفضل قراءة المجلد الصغير الذى قدمه لى كارفا •

وفى الوقت نفسه ، فان كثيرين من تجار الرقيق Slatees الذين أقاموا فى كامالیا Kamalia قد أنفقوا كل ما معهم من مال ، وأصبحوا الى حد كبير معتمدين على كرم كارفا وراحوا يرمقوننى بعيون حاسدة وابتدعوا كثيرا من الحكايات التافهة والمغرضة للحط من شأنى فى نظر كارفا •

وفي بداية شهر سبتمبر وصل من سيجو Sego تاجر رقيق من سيراوولى Sera-Wooli ، ومعه خمسة عبيــد وقد نشر هذا الرجل أيضا عددا من التقارير الخبيثة عني ، لكن كارفا لم يلتفت لكل مكرهم وظل يبدى لى من اللطف والكياسة ما كان يبديه قبل سماع هذه الحكايات · وذات يوم بينما كنت أتحدث مع العبيد الذين أحضرهم تاجر السرى ــ وولى آنف الذكر طلب منى أحدهم أن أعطيه بعض الطعام فأخبرته أننى غريب وليس لدى ما أعطيه له فقال : « لقد أعطيتك طعاما عندما كنت جائعا · أنسيت الرجل الذى قدم لك حليبا في كرانكالا Karankalla ؟ ، وأضاف قائلا وهو يتنهد : «ولكن الحديد لم يكن يومئذ حول ساقي!» وسرعان ما تذكرته . توسلت للحصول على بعض الفول السوداني من الكارفا لأقدمها له مقابل ما سـبق من كرمــه · وقد أخبرني أنه قد وقـــع في أيدى البمبــارا Bamberrans بعد معركة في جوكا Joka وتم ارساله الى سيجو فاشتراه سيده الحالى وقاده الى كاجاجا Kajaaga ··· وكان كل العبيد الآنف ذكرهم أسرى حرب ··· وفي أول ديسمبر اعتزم كارفا شراء العبيد فجمع كل ما له من أموال في بلده ، وفي التاسع عشر من الشهر المذكور ذهب مع ثلاثــة من تجار الرقيق الى كانكابــا Kankaba، وهي مدينة كبيرة على ضفاف النيجر وسوق كبيرة للرقيق ، وكان معظم العبيد الذين باعهم في كانكابا من البمبارا ··· ولما غادر كارفا فاماليا Famalia واعتزم العودة في غضون شهر ، غادرت أثناء غيابه بصحبة مسلمين طيبين كبار السن good old Bashreen كانوا معلمين فى كتاتيب كاماليا Kamalia .

ولأننى أصبحت بمفردى الآن ، فقد انتهزت الفرصة لتدوين ملاحظاتى عن مناخ المنطقة وانتاجها ولجمع معلومات أكثر دقة عن أهل البلاد ، وركزت الاهتمام على الفروع المهمة للتجارة الأفريقية ممثلة فى تجارة الذهب والعاج والرقيق · لقد كان هذا كل ما أنجزته فى كاماليا ·

* * *

تجارة الرقيــق :

١٩ ابريــل :

لقد حل أخيرا يوم رحيلنا ، وكم كنا فى شوق الى حلوله ! ونزع تجار الرقيق Slatees الحديد (السلاسل) من عبيدهم وتجمعوا (التجــار والعبيد) أمام منزل كارفا حيث ربط كل تاجر (حزمة) العبيد الخاصة به · وكانت القافلة عند مغادرة كاماليا ، تضم سبعة وعشرين عبدا للبيع وممتلكات كارفا وأربعة تجار رقيق آخرين ، وقد انضم لنا خمسة عبيد عند مدينة مارابو Maraboo وثلاثة عند بالا Bala ، فأصبح جملة عبيد

قافلتنا خمسة وثلاثين عبدا ، أما عدد الأحرار فأربعة عشر رجلا ، وكان مع كل رجل منهم زوجة أو زوجتان بالاضافة للجوارى وقد اصطحب شيخ الكتاب (ناظر المدرسة) الذى كان فى طريقه للعودة الى وورادو Woradoo موطنه الأصلى ـ ثمانية من تلاميذه ، وبذلك يلغ عدد الأحرار والجوارى ثمانية وثلاثين فردا ، وبذلك يكون اجمالى عدد أفراد القافلة ثلاثة وسبعين • وكان من بين الأحرار ستة مغنين (اللفظ المحلى للمغنين هو جيليكياس Jili Keas) كانوا بين الحين والحين يرفهون عنا ويزيلون متاعبنا ، كما كان وجودهم بيننا سببا فى ترحيب الغرباء بنا • وعندما غادرنا كاماليا تبعنا لمسافة تقرب من نصف ميل ـ معظم سكان المدينة ، كان بعضهم يصيح ، وآخرون يصافحون أقاربهم ممن معنا فى القافلة ويلوحون لهم ، ولما وصلنا لموضع مرتفع يمكننا منه رؤية منظر لمدينة كاماليا ، فصدرت الأوامر لأفراد القافلة بالجلوس فى مكان واحد معا ووجوههم متجهة صوب الغرب ، أما أهل المدينة فرغبوا أن يتجمعوا فى مكان آخر ووجوههم صوب كاماليا • وفى هذا الموقف قام ناظر الكتاب (المدرسة) وتاجران من تجار الرقيق بالوقوف بين المجموعتين وأدوا صلاة طويلة وقورة وبعدها داروا حول القافلة ثلاث مرات ، ورسموا علامات برءوس رماحهم وراحوا يرتلون التعاويذ والرقى ، وعند انتهاء هذه الطقوس انطلقت القافلة دون وداع رسمى لأصدقائهم • لقد ظل عدد كبير من العبيد فى الحديد (مسلسلين) عدة سنوات ، وقد أدى الاجهاد الكبير الذى تعرضوا له فجأة بالاضافة للأحمال الثقيلة التى يحملونها فوق رءوسهم ، الى حدوث تقلصات حادة وآلام فى سيقانهم ، وكان علينا ألا نتقدم الا اذا سحبنا عبدين بالحبال وأن نسمح لهما بالسير ببطء حتى وصلنا الى قرية مارابو Mareboo وهى قرية مسورة حيث كان فى انتظارنا بعض من يرغب فى الالتحاق بقافلتنا • وقد توقفنا فى هذه القرية ساعتين لاتاحة فرصة لهؤلاء الغرباء لتحميل مؤنهم ثم الاستمرار معنا حتى بالا Bala ، التى وصلناها فعلا حوالى الرابعة عصرا • ويعيش سكان بالا فى هذا الموسم بشكل رئيسى على الأسماك التى يصطادونها بوفرة من المجارى المائية القريبة ، وقد مكثنا هنا حتى بعد ظهر اليوم التالى الموافق لليوم العشرين من الشهر ثم تقدمنا الى قرية ورمبانج Worumbang وهى القرية الحدودية للماندنج Manding من ناحية جالونكادو Jallonkadoo • وبينما كنا نزمع دخول برارى جالونكا قدم لنا أهل قرية ورمبانج قدرا كبيرا من المؤن ، وفى صباح اليوم التالى الموافق للواحد والعشرين من الشهر دخلنا الغابات الواقعة الى الغرب من ورمبانج Worumbang• وبعد أن قطعنا فى سفرنا فى الغابة شوطا قصيرا عقدنا اجتماعا ، لبحث ما اذا كنا سنستمر فى طريقنا فى الغابة أو نذهب الى كنيتاكورو

فنوفر مؤن يوم ، وكنيتاكورو Kinytakooro هذه المدينة تابعة لبلاد الجالونكادو Jallonkadoo . وبعد مناقشة الأمر استقر الرأى بعد فترة على أن نتخذ طريقنا الى كينيتاكورو Kinytakooro ولأن الرحلة اليها تستغرق يوما كاملا ، فكان علينا أن نستريح استعدادا للرحلة ففتح كل منا أوعية مؤنه وأخرج مقدار قبضة أو قبضتين من الطعام وأحضره الى حيث يجلس كارفا وتجار الرقيق الآخرون . ولما أحضر كل فرد نصيبه تم وضع الطعام فى أوان من يقطين (قرعات مجوفة) وتلا شيخ الكتاب (ناظر المدرسة) دعاء قصيرا مؤداه أن يحفظنا الله سبحانه ورسوله المبارك (*) من اللصوص والأشرار وأن يبارك طعامنا ويعيننا على السفر وبمجرد انتهائه من الدعاء شرع كل واحد فى تناول طعامه وشرب قليلا من الماء ، ثم شرعنا فى السفر مسرعين حتى وصلنا لنهر كوكورو Kokoro أحد فروع نهر السنغال وهناك توقفنا حوالى عشر دقائق . لقد كانت ضفاف النهر مرتفعة جدا واتضح من الأعشاب والأشجار التى خلفها المجرى أن المياه ترتفع فيه أكثر من عشرين قدما فى الموسم المطير ، أما الآن فالنهر غير ممتلىء ويبدو كمجرى صغير يدير طاحونة بالكاد لكنه ملىء بالأسماك ، ونظرا لوجود عدد من التماسيح به ولخطورة عبوره فى الموسم المطير،فان أهل البلاد أسموه كوكورو Kokoro وهى كلمة تعنى النهر الخطر . ومن هذا المكان واصلنا سفرنا وبعد الظهر عبرنا فرعين صغيرين من فروع هذا النهر . وعند الغروب تقريبا تجلت لنا كنيتاكورو Kinytakooro وهى مدينة كبيرة مربعة فى وسط سهل زراعى كبير ومزروع،وتوقفنا عن أن ندخلها حتى يلحق بنا من تخلف من القافلة . وخلال رحلة هذا النهار تعرضت جاريتان : امرأة وفتاة من ممتلكات تاجر رقيق بالا Bala لتعب شديد ولم تستطيعا مسايرة القافلة فسحبتا بقسوة وضربتا بالسياط . وفى حوالى الثالثة بعد الظهر بدأتا التقيؤ فعرف أنهما أكلتا الطين . وعادة أكل الطين هذه مسألة غير شائعة بين الزنوج أو رغبة منهما فى الانتحار . اننى لا أستطيع الجزم فى هذه المسألة.وسمح لهما بأن تستلقيا فى الغابة وبقى معهما ثلاثة رجال ، حتى تستريحا ولكن المرأة والفتاة والرجال الذين معهما لم يصلوا للمدينة حتى منتصف الليل ، حتى قرر تاجر الرقيق أخذهما عبر الغابة بحالتهما الراهنة واعادتهما الى بالا Bala وانتهاز فرصة أخرى لنقلهما .

وعند هذا الحد كنا فى أول مدينة خارج حدود الماندنج Manding فلاحظنا مراعاة للأصول واللياقة أكثر مما اعتدناه قبل ذلك . فقد طلب

(*) قد يكون بارك قد فهم خطأ ، فالمسلمون لا يطلبون الا من الله سبحانه وتعالى ، لكنهم يصلون على النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا يطلبون منه شيئا فقد توفاه الله منذ زمن طويل . وان كان بارك قد أحسن الفهم ، فهذا يعد من الخرافات الشائعة بين المسلمين غير المثقفين — (المترجم) .

من كل شخص أن يلزم موضعه من القافلة وسرنا صوب المدينة في موكب منظم تقريبا كالتالي : في المقدمة خمسة مغنين أو ستة ، جميعهم تابعون للقافلة يتبعهم الرجال الأحرار الآخرون ثم العبيد موثقين بالطريقة المعتادة، اذ ربطت الحبال حول رقابهم ، كل أربعة في حبل واحد ، ومع كل أربعة رجل مسلح برمح وبعد ذلك الجواري وفي المؤخرة زوجات تجار الرقيق • وعلى هذا النحو تقدمت قافلتنا حتى أصبحنا على بعد حوالى مائة ياردة من بوابة المدينة ، فشرع الرجال المغنون الكائنون في مقدمة القافلة بغناء أغنية طويلة دقيقة المعاني ، يمجدون فيها سكان المدينة ويمتدحون كرمهم المعروف وترحيبهم بالغرباء وصداقتهم للماندنجو • ولما دخلنا المدينة تقدمنا الى البنتانج Bentang ، حيث تجمع الناس حولنا لسماع تاريخنا (باللغة المحلية دانتيجى Dantegi) ، الذى قصه اثنان من المغنين على الملأ • فقد عدد المغنيان كل الوقائع والظروف التى مرت بها قافلتنا وبدءوا باليوم الذى نحن فيه ثم استمر السرد عكسيا ، بمعنى أنهم ذكروا يوم الوصول الى كامالیا أولا ثم أعقبوه بأخبار الأيام الخوالي • ولما انتهى المغنيان من سرد (التاريخ) ، قدم لنا رئيس المدينة هدية صغيرة ، وتمت دعوة كل من في القافلة من الأحرار والعبيد للمبيت وقدمت لنا المؤن •

* * *

واستمرت اقامتنا في كنيتاكورو Kinytakoroo حتى ظهر الثاني والعشرين من شهر أبريل ، ثم تحركنا صوب قرية على بعد سبعة أميال الى الغرب كان أهلها في حالة رعب خوفا من اعتداء الفولة Foulaas من الفولادو Fouladoo (؟) ، الذين كانوا في هذا الوقت يقيمون أكواخا مؤقتة صغيرة بين الصخور على جانب تل مرتفع قريب من القرية • لقد كان الموقف في غالبه مؤمنا ، اذ كانت القرية محاطة من كل الجهات بجروف شديدة الانحدار ما عدا من الناحية الشرقية حيث ترك أهل القرية ممرا يكفي لصعود شخصين معا • وفوق واجهة التل بعد هذا الممر آنف الذكر لاحظت وجود أكوام من أحجار ضخام ، أخبرني أهل القرية أنها معدة لقذف الفولة بها اذا حاولوا تجاوز التل •

وفي فجر اليوم الثالث عشر من الشهر غادرنا هذه القرية ودخلنا براري جالونكا Jallonka ومررنا خلال الصباح بخرائب مدينتين صغيرتين أحرقهما الفولة منذ فترة غير بعيدة ، ولابد أن النيران كانت كثيفة جدا ، لأنني لاحظت أن جدران الأكواخ قد تفحمت تماما وبدت مع البعد وكأنها مغطاة بطبقة من الطلاء الأحمر • وفي حوالى الساعة العاشرة وصلنا لنهر وندا Wonda وهو أكبر شيئا ما من نهر كوكورو Kokoro لكن مجراه

في هذا الوقت كان طينيا (عامرا بالطين) وقد أكد لى الكارفا أنه عامر بالأسماك ، وهذا صحيح فالأسماك متوفرة بدرجة كبيرة جدا حتى ان لمائة رائحة السمك • وحالما عبرنا هذا النهر أصدر الكارفا الأوامر لكل من في القافلة بضرورة أن يسيروا متجاورين معا ، ومن ثم فقد نظمنا أنفسنا على النحو التالى : فالمرشدون والشباب في الطليعة والنساء والعبيد في الوسط ، والأحرار في المؤخرة • لقد واصلنا مسيرتنا على هذا النحو خلال منطقة غابية لكنها جميلة تنتشر فيها تلال جميلة مختلفة ووديان وتحلق فيها طيور الحجل وتغطى وتمتلىء بالأيائل ودجاجات غينيا Guinea-fowls وظللنا كذلك حتى مغرب الشمس ، حتى وصلنا الى مجرى رائع اسمه كو مسانج Co meissang • لقد تعرت رقبتى وذراعاى للشمس طوال النهار وأصابنى الضر ، بسبب احتكاك بدنى بملابسى أثناء السير فغطت القروح والبثور رقبتى وذراعى ، فكنت سعيدا أن أنتهز الفرصة عند توقف القافلة عند الشاطىء فاستحممت في هذا النهر • فساعد ذلك ــ بالاضافة لبرودة المساء ــ على انعاشى • وقد توقفت قافلتنا بعد ذلك على بعد ثلاثة أميال الى الغرب من نهر كو مسانج آنف الذكر ، في غابة كثيفة أشجارها وأشعلنا النار بالليل • لقد كنا جميعا مرهقين لأننا قطعنا هذا اليوم ــ وفقا لتقديرى ــ ثلاثين ميلا ومع هذا فلم يشك أى منا ، وأمر كارفا بعض العبيد بجمع بعض فروع الأشجار لاستخدامها كسرير لى ، بينما كانوا يعدون طعام العشاء ، وبعد أن تناولنا طعامنا هذا المكون أساسا من الكسكسى Kouskous الذى سكبوا فوقه ماء مغليا ، وضعنا العبيد في القيود (الحديد) ثم انطرحنا نائمين ، لكن أصوات الحيوانات المفترسة سببت لنا ازعاجا أثناء الليل ، كما سبب لنا النمل ازعاجا لا مزيد عليه •

٢٤ أبريل :

وعند الفجر أدى المسلمون Bushreens صلاتهم وشرب معظم الأحرار قليلا من البوظة (المونتج Moening) وقدموا لكل عبد شيئا منه اذ بدوا أقل قدرة على تحمل ارهاق الرحلة ، وبدت احدى نساء كارفا عابسة مكفهرة فلما قدموا لى هذا المشروب رفضت • وبدأنا مسيرتنا بعد الفجر وظللنا طوال النهار نعبر منطقة صخرية فأصابت قدمى قروح كثيرة وأحزننى أننى لن أستطيع السير مع القافلة خلال النهار لكن ما طمأننى أننى وجدت رفاقى في القافلة أكثر ارهاقا منى • وكان الارهاق أكثر ما يكون وضوحا على جارية رفضت تناول طعامها صباحا وقد بدأت الآن تتأخر في المسير ، وتشكو بشدة من آلام في ساقيها فحملوا عبدا آخر حملها وأجبروها أن تسير في مقدمة القافلة •

سرب من النحل يهاجمنا :

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة بينما كنا نستريح الى جوار مجرى مائى صغير، اكتشف بعض أفراد القافلة خلية نحل فى شجرة مجوفة وراحوا يستخرجون العسل وسرعان ما هاجمنا سرب من النحل أكبر من جماعة النحل الموجودة فى الخلية وهاجمنا فجعل كل واحد فى القافلة يولى هاربا فى كل اتجاه • اننى لم أر أضخم من سرب النحل المهاجم هذا • لقد اتخذت حذرى منــذ البداية وأعتقد أننى الوحيد الذى لم يصب بأذى ونجــا من العقــاب • ولما ظن أعداؤنــا (سرب النحل) أن الوقت قد حان للكف عن ملاحقتنا وانشغل كل منا باخراج الزبان (بضم الزاى وتشديدها) الذى أصابه اكتشفنا أن الجارية البــائسة التى ذكرتها آنفــا وكان اسمها نيلى Nealee لم تكن معنا وأن عبيدا كثيرين تركوا أثناء هروبهم من النحل المهاجم ما كانوا يحملونه ، لذا كان لابد أن يرجعوا لاحضار ما تركوه •

نيلى البائسة ترش جسدها بالماء :

ولكى يتمكنوا من العودة بأمان أشعلنا النار فى الحشــائش فى المناطق الواقعة شرق خلية النحل، لتتولى الريح حمل النيران والدخان صوب الخلية ، حتى يتمكن العبيد من العودة الى قرب الخلية واحضــار ما خلفوه وراءهم ولينقلوا المرأة البائسة نيلى • لقد وجدوها منطرحة عند النهر منهكة تماما ، وكانت قد زحفت حتى وصلت للماء ورشت جسدها بالماء ظنا منها أن ذلك يبعد عنها النحل المهاجم ، لكن ثبت أن ما فعلته لم يجد فتيلا فقد لدغها النحل بضراوة •

ولما أخرج تجار الرقيق ما أصابها من زبان النحل بقدر ما أمكنهم غسلوها بالماء ووضعوا على جروحها أوراق الأشجار ، لكن المرأة البائسة رفضت باصرار أن تستمر مع القافلة ، وأعلنت أنها تفضل الموت على أن تخطو خطوة واحدة أخرى •

نيلى تحاول الهرب :

ورغم التودد والتهديد رفضت نيلى التحرك ، لكن بعد ضربها بالسوط عدة ضربات قليلة نهضت وشرعت فى المسير لأربع ساعات أو خمس ثم حاولت أن تجرى بعيدا عن القافلة ، لكنها كانت واهنة جدا فسقطت أثناء محاولتها الهروب بين الحشائش ، ورغم أنها لم تكن قادرة على النهوض الا أنهم ضربوها بالسوط مرة أخرى لكن دون جدوى ، فأمر كارفا بحملها

فوق الحمار الذى يحمل المؤن الجافة ، لكنها لم تستطع الجلوس كما كان الحمار عنيدا جدا ، ووجد كارفا وتجار الرقيق أنهم لا يمكنهم حملها بهذه الوسيلة ، وفى الوقت نفسه لم يكونوا راغبين فى التخلى عنها خاصة وأن رحلة هذا النهار على وشك الانتهاء ، لذا فقد هيأوا لها ما يشبه الهودج (الشقدوف) من البوص ووضعوها فيه وأمرا اثنين من العبيد بحمله ، أحدهما يحمله من الأمام والآخر يحمله من الخلف وسار العبيد الآخرون وراءهما وراح كل عبد يحل محل أحدهما بين الحين والآخر ، وظلت المرأة البائسة محمولة على هذا النحو حتى حل الليل ، ووصلنا الى مجرى مائى عند سفح تل يقال له جانكاران كورو Gankaran Kooro وفى هذا المكان توقفنا لقضاء الليل وتنـاول العشاء ، ولم نتناول الا القليل من الطعام وظللنا طوال اليوم التالى راحلين فى شمس حارقة ، وأحس العبيد الذين يحملون فوق رءوسهم أحمالا ثقيـلة بالتعب الشديد وراح بعضهم يعض أصـابعه .

مفهوم عض الأصابع عند الزنوج :

وعض الأصابع عند الزنوج اشارة مؤكدة الى أنهم قد وصلوا إلى أقصى درجات اليأس . لذلك سـارع تجار الرقيق بوضـعهم فى الحديد (تقييدهم) وبالنسبة للذين بدوا على وشك الهلاك فقد أراحوهم وربطوا أيديهم ، وفى الصباح كان كل العبيد قد استعادوا نشاطهم .

٢٥ أبريـل :

وفى صباح هذا اليوم استيقظت نيلى البائسة ، لكن أطرافها كانت متيبسة وتؤلمها ، حتى انها لم تستطع المشى أو الوقوف فحملوها كالجثة فوق حمار وقرر تجار الرقيق الابقاء عليها فى هذا الوضع ، بلف ذراعيها حول رقبة الحمار وجعل قدميها تحت بطنه وربطهما معا بحبال طويلة من لحاء الشجر ، لكن الحمار كان عنيدا جدا فلم تفلح معه شتى المحاولات للسير بحمله المربوط على ظهره بهذه الطريقة ، ولأن نيلى كانت كالجثة الهامدة لا تبذل أية محاولة للابقاء على بدنها فوقها الحمار ، فانها سرعان ما سقطت وزادت الجروح فى احدى ساقيها جروحا جديدة .

اذبحـــوا نيـــلى :

ولما فشلت كل المحاولات لحملها على التقدم مع القافلة سيرا أو حملا صاحت جموع القافـلة « كانـج تيجى :. كانـج تيجى Kang-tegi » وهذه الكلمات تعنى : « اقطعوا رقبتها . اقطعوا رقبتها » ولم أشأ أن

أرى منظر قطع رقبتها فتقدمت لأكون فى مقدمة القافلة ، وبعد مسيرة أكثر من ميل أتى الى أحد عبيد كارفا وقد حمل ملابس نيلى البائسة على طرف رمحه وقال : « لقد ضاعت نيلى » .

وتركوا نيلى لوحوش الغابة :

فسألته ان كان تجار الرقيق قد أعطوه ملابس نيلى كمكافأة لقيامه بذبحها ، فأخبرنى أن كارفا وشيخ الكتاب (ناظر المدرسة) رفضا قطع رقبتها وانما تركوها فى الطريق حيث ستلقى ـ بدون شك ـ حتفها وربما افترستها الحيوانات المتوحشة .

وعم الصمت والخوف :

لقد ترك مصير المرأة البائسة وصيحات المطالبة بذبحها التى أشرت اليها فيما سبق ـ تأثيرا قويا فى نفوس وعقول كل من فى القافلة ، مخافة أن يلقوا المصير نفسه وحثنا شيخ الكتاب (ناظر المدرسة) على الاسراع فأسرعنا وقد شملنا الصمت وعبرنا نهر فوركوماه Furkoomah وهو فى اتساع نهر وندا Wonda وفى رأس كل منا مصير نيلى البائسة . وعلى أية حال ، لقد كنت لا أكاد أسير الا بشق النفس رغم أننى تخليت عن حربتى وتخليت عن كل حمل يمكن أن يعوقنى .

قطيــع الفيـــلة :

وحوالى الظهر رأينا قطيعا كبيرا من الأفيال ، وقد مررنا دون ازعاج من هذا القطيع ، وفى المساء توقفنا بالقرب من دغل بوص (بامبو) كثيف لكننا لم نجد فى هذا الموضع ماء فاضطررنا لمواصلة السير أربعة أميال حتى وصلنا لمجرى مائى صغير حيث توقفنا لقضاء الليل ، لقد سرنا هذا النهار ـ وفقا لتقديرى ـ ستة وعشرين ميلا .

٢٦ ابريــل :

شكا هذا الصباح اثنان من تلاميذ شيخ الكتاب من آلام شديدة فى أرجلهم وأصبحت مشية أحد العبيد عرجاء ، فأخمصا قدميه أصيبا بكثير من القروح والبثور والتسلخات ، ومع هذا فقد استمررنا سائرين ، وفى حوالى الساعة الثانية بدأنا نصعد تلا صخريا هو تل بوكيكورو Bokikooro . ولم نصل الى الأرض المستوية فى الجانب الآخر من التل الا بعد الساعة الثانية ظهرا . لقد كان عبورنا هذا التل يمثل أكثر مراحل الطريق صخرية

وقد تألمت أقدامنا كثيرا ، وبعد وقت يسير وصلنا لنهر جميل ومتسع هو نهر بوكى Boki وقد خضناه وكان ماؤه يجرى رائقا هادئا وكان قاعه من صخر بركانى • وبعد حوالى ميل الى الغرب من هذا النهر وصلنا لطريق يؤدى الى الشمال الشرقى الى جادو Gadou ورأينا كثيرا من آثار حوافر الخيل على الرمال الناعمة وخمن تجار الرقيق أن جماعة من اللصوص مروا بهذا الطريق منذ فترة غير بعيدة لينهبوا احدى مدن جادو Gadou ، ومخافة أن يلتقى هؤلاء اللصوص بنا متتبعين آثار أقدامنا ـ صدرت الأوامر للقافلة أن تتفرق متخذة طريقها بين الحشائش المرتفعة وبين الأدغال •

وقبل حلول الليل بقليل عبرنا حواف التلال الى غرب نهر بوكى Boki . ووصلنا لبئر تسمى كلونج Cullong والكلمة تعنى بئر الرمال البيضاء وفى هذا المكان قضينا الليل •

٢٧ أبريل :

وغادرنا هذه البئر فى الصباح الباكر وسرنا بخفة يحدونا الأمل أن نصل لاحدى المدن قبل حلول الليل • وكان الطريق فى فترة ما قبل الظهر يمتد عبر أدغال بوص (بامبو) جافة كثيفة وشاسعة • وفى حوالى الساعة الثانية وصلنا الى مجرى مائى يقال له تنكولو Nunkolo فاستمتع كل منا بوجبة طعام خفيفة يتحتم أن تطبخ بماء هذا النهر وفقا لعادة غيبية خرافية • وفى حوالى الرابعة وصلنا الى سوسيتا Sooseeta وهى قرية صغيرة من قرى جالونكا Jallonka ، تقع فى منطقة (ولاية) كولو Kullo التى تشمل كل الأراضى الواقعة على شاطىء النهر الأسود ، وهو الفرع الرئيسى لنهر السنغال •

لقد كانت تلك أول تجمعات مساكن نراها ، منذ غادرنا القرية الواقعة الى الغرب من كنيتاكورو Kinytakooro • لقد قطعنا فى خمسة الأيام الأخيرة ما يزيد على المائة ميل •

❋ ❋ ❋

استطراد المحرر :

لقد لحق بارك بأصدقائه فى غمبيا آمنا ، ومن هناك عاد آمنا الى انجلترا ، بعد أن غاب عنها عامين وسبعة أشهر

فاستقبله أصدقاؤه فى الجمعية الأفريقية بحفاوة بالغة وحظى عمله المهم بتقدير عامة الناس • وقضى بارك عدة شهور فى كتابة تقرير عن رحلته وتم نشرها سنة ١٧٩٩ • وفى العام نفســه تزوج وظـل لعــامين لم يقرر خلالهما العمل الذى سيشـــغله ثم انتهى به المطـاف للعمـل كطبيب فى بيبلز Peebles • وعلى أية حال ، ففى سنة ١٨٠٣ قبل برضى دعوة وزير المستعمرات Colonial Secretary لقيـادة حملة كشفية تمولها الحـكومة لاستكمال اكتشافاته فى النيجر ، ورغم أن الحرب قد تجددت بين انجلترا وفرنسا الا أنه بدا رحلته فعــلا ســنة ١٨٠٥ • لقد كان التخطيط لهذه الرحلة سيئا فقد كان رفاقه الذين اصطحبوه غير قادرين على مواجهة المشاق وغير قادرين على تحمل الأمراض ولم يكونوا كثيرين بالقدر الكافى الذى يهيؤهم لحمايته حماية كافية من أى حاكم أفريقى ، ومن ثم فقـــد كان رفـاقه الذين يكونون الحملة المصاحبة له مجرد عبء ، بل وعائـق عاق نجاح الرحلة • بالاضــافة الى أن بـارك تأخر كثيرا ريثما تتـم الاعــدادات والتجهيــزات ، ومن هنا فقد شرع فى التوغل ، بينما الموسم المطير على وشك أن يبدأ •

نصوص من رحلة بارك المعنونة كالتالى :

Travels in the interior parts of Africa, with an account of a Subsequent mission to that Country in 1805. Vol. II, London, 1816.

* * *

التعليمات الموجهــة الى بارك

دوننج ستريت ، ٢ يناير ١٨٠٥ :

ســـيدى :

لقد قرر صاحب الجلالة أنه ينبغى ارسال حملة كشفية صغيرة الى مداخل أفريقيــا ، لمعرفة الحركة التجارية التى يمكن أن تنشأ بين رعايا صاحب الجلالة وأهل البلاد لمصلحة الطرفين ، وقد طلب الملك أن أخبرك أن جلالته قد اختارك لتنفيذ هذه المهمة ، نظرا لمعلوماتك التى اكتسبتها عن أمم أفريقيا ولرحلاتك السابقة التى بذلت فيها جهدا دؤوبا •

ولتنجز مهمتك هذه خير انجاز ، فان صاحب الجلالة قد منحك درجة فخرية (شرفية) وهي كابتن (قائد) في أفريقيا ، كما منح رتبة ليفتنانت الشرقية للسيد الكزندر أندرسون الذي أوصيت أن يصطحبك في رحلتك • وقد وقع الاختيار أيضا على السيد سكوت Scott ليرافقك باعتباره رساما • ونخولك الصلاحية لأن تضيف الى حملتك هذه أي عدد لازم للحملة عند وصولك الى جزيرة جورى Goree ، شريطة ألا يزيد عددهم عن خمسة وأربعين وسيأمر قائد (كومندا) الجزيرة بتدبير من تطلب ويضعهم تحت امرتك ، ويقدم لهم ما يلزمهم من الهبات وما يعوزهم من تشجيع لحثهم على الانضمام لحملتك •

كما أنك مخول بشراء أي عدد من العمال أو الصناع السود عند وصولك جورى ، ونترك هذا الأمر لتقديرك اذ ستشترى ما يحقق أغراض رحلتك ، ويمكنك الحصول على هؤلاء الصناع السود بأي طريق آخر عن الشراء •

وسوف تصل الى (جزيرة) جورى على متن مركب صاحب الجلالة ، وهو مركب شراعي وحيد الصاري اسمه يجنى Pugenie وستصدر التعليمات بتوجه هذا المركب الى سانت جاجو St. Jago وذلك حتى تتمكن من شراء خمسين حمارا لحمل أمتعتك ، ومن سانت جاجو سيواصل المركب ابحاره الى جورى •

والأمر متروك لك عند وصولك جورى فأنت الذي تقرر ما هو ضروري لتحقيق أهداف حملتك • وعليك أن تبحر في نهر غمبيا ثم تعبر الى السنغال ومن ثم الى شواطىء النيجر سالكا أكثر الطرق ملاءمة •

ان هدف رحلتك الكبير هو تتبع مجرى نهر النيجر الى أقصى ما يمكن أن تصل اليه ، وتكوين صلات وعلاقات مع الأمم المختلفة على شاطئيه ، وتجميع كل المعلومات الممكنة عنها (عن هذه الأمم) وأن تركز على النقاط المختلفة المدرجة في المذكرة التي سلمتها لي في الرابع من شهر أكتوبر الماضي •

ولك مطلق الحرية في أن تسلك أثناء عودتك لوطنك أي طريق تراه أكثر أمنا ، اما بالتوجه من داخل القارة الى الأطلنطي أو التوجه للقاهرة عن طريق طرابلس •

وأنت مخول فى سحب أى مبلغ تكون فى حاجة اليه بحيث لا يزيد عن ٥٠٠ جنيه استرلينى (خمسة آلاف) من خزانة صاحب الجلالة أو من بيت الصرافة التجارى فى لندن ٠

كامدن
Camden [مرسل للسيد منجو بارك المبجل] ٠

تــورنادو Tornado

١٠ يونيو ١٨٠٥ :

ما زال الجنــود مرضى ٠ وغادرنا ساتادو Satadoo عنــد شروق الشمس ، ووجدنا أن أشياء مختلفة من مؤننا قد سرقت ليلا ٠ لقد قطعنا فى فترة ما قبل الظهر أكثر من ميلين فوق مرو أبيض (كوارتز أبيض) كانت كتل منه متناثرة فى كل مكان ولم نر أى نوع آخر من الأحجار ٠ وكنا نحمل معنا قربة ماء كبيرة تحسبا لعدم وجود ماء أثناء الطريق ٠ وفى الساعة الحادية عشرة وصلنا لمجرى مائى ينساب الى اليسار منا يسمى مجرى بلاله Billallah حيث وجدنا به بعض الماء العكر ٠

وطارت قبعتى :

وتابعنا رحلتنا فى الساعة الثالثة والنصف واتجهنا نحو الجبال عبر برية صخرية صــلدة ، واعترى كثــير من حميرنا التعب ٠ ووصلت مقدمة قافلتنا شروندو Shrondo عند غروب الشمس وكنت فى مؤخرتها ، لأنه كان يتعين على أن أحمل أحــد الرجال المرضى على حصانى ، كما كان يتعين على أن أجر الحمير المرهقة ، لذلك لم أصل لمكان التوقف حتى الساعة العاشرة مساء وكنت مضطرا لترك أربعة حمير فى الغابة ٠ وشروندو مدينة صغيرة ٠ وتوقفنا كما هو المعتاد تحت شجرة على مسافة قصيرة من المدينة، وقبل أن نستطيع نصب خيمة واحدة من خيامنا فوجئنا باعصــار عات من النــوع القمعى heevy tornado فأصابنا جميعــا البلل ٠ وعنــدما حاولت تثبيت طرف احدى الخيام فى أحد فروع الشجر طارت قبعتى بعيدا ولم أجدها بعد ذلك ٠ لقد كانت الأرض حولنا مغطاة بالماء تماما ويبلغ عمقه ثلاث بوصات ٠ وقد داهمنا اعصار آخر من النوع نفسه فى حوالى الساعة الثانية صباحا ٠

النوم فى العاصفة :

لقد ترك الاعصار الأول الذى واجهناه عند وصولنا تأثيرا سيئا طويل المدى على صحة الجنود ، وأثبت أننا سنتعرض لحوادث مؤسفة فوضعت فى اعتبارى أن نصل الى شواطىء النيجر بأقل الخسائر ، فقد كان بيننا اثنان مصابان بالدوسنتاريا (الزحار) وعلى أية حال ، فان أحدهما قد شفى تماما أثناء المسير ، وكان مقدرا أن يشفى الآخر اذا لم يصبه ماء المطر فى بنيزيل Baniserile ، لكن المطر هطل فى منتصف الطريق فاصيب الجنود بالقىء ، رغم أنه لم يمض على هطوله أكثر من ثلاث دقائق وقد هوى بعض الجنود نائمين وقد بدوا وكأنهم سكارى، وشعرت برغبة شديدة فى النوم أثناء العاصفة فنمت على الأرض المبتلة رغم مقاومتى الشديدة للنوم ، ونام سائر الجنود على ما معهم من أشياء مبتلة •

تعليق المحرر :

[وبدأ الجنود الآن ينتشرون أثناء تقدمهم فى غير نظام] •

رحلة مؤلمة

٢٠ يونيو ١٨٠٥ :

عند شروق الصباح أطلقنا البندقية قديمة الطراز لتنبيه البارون ، الذى كان يحاول تتبع آثار حوافر الحمير ، ولأنه كان من العبث أن نبحث عنه فى هذه البرارى الشاسعة وفى الساعة السادسة والنصف أعدنا تحميل حميرنا وانطلقنا •

اصابة الجنود بالحمى :

وقد أصيب اثنان من الجنود البؤساء بالحمى وكان الطريق الذى سلكناه فى هذا الصباح صخريا ، فاستمررنا فى سفرنا هذا اثنى عشر ميلا بلا توقف ، حتى نصل الى مكان يتوفر فيه الماء وقبل وصولنا الى هذا الموضع الذى يحمل اسم بلور Bloore جلس الجندى الذى قدم أثناء الليل تحت ظل شجرة ولما رغبت اليه أن ينهض ليسير معنا ، قال انه مرهق جدا وانه سيلحق بنا بعد أن يستريح من عناء الحر ، فأخبرته أن موضع توقفنا حيث يتوفر الماء قد غدا قريبا ونصحته بكل الطرق ألا ينام • لقد

توقفنا فى أرض مرتفعة مستوية حيث لا مورد للمياه الا ما يتجمع فى التجويفات والحفر من المطر • وفى الرابعة والنصف لم نكن قد وصلنا الى بلور Bloore فأرسلت رقيب النظام فى الحملة لاحضار الجندى المتخلف وحمله على حصان • وعاد الرقيب عند الغروب وليس معه أحد وتبين أنه تجاوز موضعه بسبعة أميال ، فاستنتجت أن هذا الجندى المتخلف كان نائما تحت الشجرة ولم يره الرقيب ، فأخذت معى ثلاثة من المتطوعين وعدت للبحث عنه •

اشعال النار لابعاد الأسـود :

لقـد حل الظلام الآن فجمعنا كميات كبيرة من الحشائش الجافة ، ورحنا نشعل منها بين الحين والآخر بحيث تبقى النيران مشتعلة معنا دائما لابعاد الأسود ذوات العدد فى هذه الغابات ، ولما وصلنا للشجرة التى نام تحتها رأينا آثار مرقده وآثار أقدامه متجهة نحو الغرب فظننا أنه من الممكن أن يكون قد ضل الطريق أو فقد القدرة على تحديد الاتجاه •

وهكذا فقدنا احد جنودنا :

ولما لم نجد أحدا أطلقنا عدة طلقات من بندقيتنا وأشعلنا النار فى الحشائش وعدنا للشجرة مرة أخرى وفحصنا الأرض حولها ، فلم نر دماء ولا آثار أقدام أى حيوان متوحش ، فأطلقنا ست طلقات أخرى ، ولما بدا أن استمرارنا فى البحث أمر غير مجد (ذلك لأننا لم نكن نجسر على متابعة آثار أقدام الجندى المتجه غربا خوفا من أن نضل الطريق) لهذا ، فقد عدنا لخيامنـا •

لحم بقرة وحشية :

وفى المساء أطلق أحد أفراد شـعب (قبيلة) الايزاكو Isaaco المصـاحبين لنا النار على بقرة وحشية ، وقد طعمنا لحما وافرا من هذا الصيد • وكانت الذئاب هى أكثر ما سبب لنا ازعاجا فى الليل •

٣٠ يونيو ١٨٠٥ :

وانطلقنا فى هذا اليوم فى الصباح الباكر وهبطنا من المكان المرتفع الذى قضينا الليل به الى سهل أكثر خصوبة ، ورأينا أعدادا كبيرة من القرود فوق الصخور ، ووصلنا كاندى Kandy بعد مسيرة عشرة أميال وشعرنا جميعا بالارهاق الشديد • ولم تكن كاندى Kandy الا مدينـة

صغيرة • لقد كانت كاندى مدينة كبيرة قبل أن يستولى عليها ابن ديزى Daisy's son منذ حوالى عامين ويشعل فيها النيران فهجرها ساكنوها• وفى هـذا اليـوم سقط السـيد أندرسـون والسـيد سكوت مصابين بالحمى •

الأول من يوليو ١٨٠٥ :

غطينا حمل الخرز بجلدة بقرة وحشية وكانت احدى صررنا (جمع صرة) المليئة بالخرز Seed beeds ، قد سرقت بالليل ولم نستطع معرفة السارق • وقد قررنا أن نسرع فى المسير لقلة الأرز الذى نحمله ولعدم امكاننا شراءه فى هـذه المنـاطق ، لكن الرجال كانوا متعبين فأدركت أن الاسراع نوع من الطيش فقد يزيد فى ارهاق الحمير والرجال •

٢ يوليو ١٨٠٥ :

استمر تقدمنا وأصيب اثنان من الجنود بالحمى ، ولما أكملنا مسيرة حوالى ثلاثة أميال أصيب أحد هؤلاء الجنود وهو روجر ماميلان M'Millan بهذيان الحمى وأصبح من المستحيل أن يستمر معنا فتركناه فى قرية سانجيكوتا Sanjekotta • وقد تألمت كثيرا لأن الضرورة أجبرتنى على ترك هذا الرجل وهو مريض مع أنه خدم بلاده حتى صار كبير السن • فقد عمل كجندى مرة واحد وثلاثين عاما ، ورقى اثنتى عشرة مرة وأصبح رقيبا تسع مرات لكن الحظ لم يحالفه •

الوصـول الى كوينا :

ووصلنا الى كوينا Koeena حـوالى الساعة الثالثة وكنا بلا استثناء نعـانى من الارهاق وشـعرت بوطأة المـرض • وقـرية كوينا هذه مسورة وتحميها من ثلاث جهات جروف شديدة الانحدار • وهب اعصار شديد فى الساعة السابعة فأطفأ نيراننا وجعلنا نتزاحم داخل الخيمة •

اشبال لا خنـازير :

ولما خمدت العاصفة سمعنا صوت زئير أو دمدمة لا تشبه صوت الخنازير البرية ومع هذا فقد رأينـا أكثر من واحد منها يحوم حول دوابنا فأطلقنا طلقتين لابعادها ، لكنها لم تبتعد وظلت تدمدم حولنا فأوقدنا حشائش ورحنا نبحث مع الليفتننانت مارتين Martyn عنها واضعين فى اعتبـارنا أنهـا حيوانات متوحشـة • وقد اقتربنا من واحد من هـذه

الحيوانات وأطلقنا عدة طلقات بين الأشجار وصوبنا اليه طلقة فدخل بين الحشائش الطوال ، وعندما عدنا الى الخيام علمت بسؤالى لأهل البلاد أن الحيوانات التى نجد فى أثرها ليست خنازير ، وانما أسود صغيرة (أشبال) وأكدوا لى أننى اذا لم أكن طاردتها جيدا فقد تقتل أحد دوابنا ليلا • وفى حوالى منتصف الليل حاولت هذه الأشبال اقتناص أحد حميرنا ، مما كان بمثابة تحذير لباقى الحمير فقطعت حبالها وجرت بأقصى سرعتها بين خيامنا فتبعها شبلان ، وبذلك أصبح الشبلان قريبين منا جدا حتى ان أحد الحراس ضرب أحدهما بالسيف ولم يجسر على اطلاق النار خوفا من اصابة الحمير ••

٣ يوليو ١٨٠٥ :

غادرنا كوينا Koeena وتوقفنا أثناء حر النهار فى كومباندى Koombandi بعد أن قطعنا ستة أميال • وهنا كان على المرشد الوطنى الذى استأجرته من كاندى Kandy أن يعود ، فوافقت على أن يحملوا معهم حقيبة ماميلان M'Millan وبعض العنبر والخرز لشراء مؤن لهم أثناء طريق العودة ، لكن وصل ثلاثة أشخاص كانوا قد غادروا سانجكوتا Sanjeckota فى الصباح الباكر ، وأحضروا معهم حمارين للبيع وأخبرونا أن الجندى الذى تخلف عنا (ماميلان) قد مات أثناء الليل وان أهل المدينة قد دفنوه فى حقل قمح بالقرب من المدينة • واشترينا الحمارين لنحمل عليهما المرضى •

وخلفنا رفيق رحلة آخر :

وفى حوالى الساعة الثالثة غادرنا كومباندى Koombandi وكان السيد أندرسون والسيد سكوت فى الغاية من المرض ، لدرجة أنهما رغبا الى أن نبقى هنا ليلة ، وقد حثثتهما على أن يركبا حصانيهما ويستمرا • وبعد ثلاثة أميال الى الشرق من القرية أصبح وليم ألستون Alston واهنا جدا حتى انه سقط من فوق حماره وولى الحمار • والسيد ألستون أحد البحارة الذين كانوا ضمن طاقم سفينة صاحب الجلالة سكوريل Squirrel • وقد أجلسته فوق حصانى لكنى وجدته لا يستطيع الجلوس دون أحد يسنده فوضعته فوق حمار ، لكنه ظل مترنحا فوضعته مرة أخرى فوق الحصان وكلفت شخصا بالامساك به بينما أقود أنا الحصان ، لكنه كان مترنحا جدا لا يستطيع أن يمسك بنفسه وتوسل الى أن أتركه فى الغابة حتى الصباح ، وقد تركت معه مسدسا عامرا بالطلقات ووضعت بعض الطلقات فى قبعته •

وعند شروق الشمس وصلنا الى فونيلا Fonilla وهي قرية صغيرة مسورة على شاطئ نهر وندا Wonda الذى يسمى هنا النهر الأحمر Ba-Woolima ، أما من ناحية منبعه فيسمى النهر الأبيض Ba qui أما مجراه الأوسط فيطلق عليه وندا Wonda • وقد ارتفع ماؤه بسبب هطول الأمطار جنوبا ، وكان ماؤه عكرا مشبعا بالطين ولا يمكن اعتباره حتى وهو فى هذه الحال من بين الأنهار العظيمة •

٤ يوليو ١٨٠٥ :

اتفقت مع أصحاب قارب على حمل متاعنا ودوابنا ، لقاء ستين من البارات bars ولم يكن هنا الا قارب واحد ، لذا لم يتم نقل متاعنا ودوابنا الا قرب الظهر وكانت عملية نقل الحمير شاقة جدا • فقد كان النهر ضحلا وصخرى القاع فكانت الحمير تقف دون حراك بمجرد أن تلمس أقدامها قاع النهر • وقد بذل دليلنا ايزاكو Issaaco جهودا كبيرة فى دفع الحمير الى الماء وفى دفع القارب •

تمساح يهاجم ايزاكو :

ولما خشى ايزاكو أننا قد لا نتمكن من نقل الحمير أثناء النهار ، حاول أن يدفع بستة من الحمير عبر النهر فى موضع أقل عمقا ، فلما وصل الى منتصف المجرى اقترب منه تمساح وعضه من فخذه الأيمن وسحبه تحت الماء • وقد تحسس ايزاكو — بحضور بديهة تدعو للاعجاب — رأس الحيوان ودفع باصبعه فى عينه فتخلى عن فخذه ، وحاول ايزاكو أن يصل للشاطئ الأبعد واستل سكينه ، لكن التمساح عاد وأمسكه من فخذه الآخر وسحبه تحت الماء فعاد ايزاكو لحيلته القديمة ودفع بأصابعه فى عينى التمساح بعنف ، فتخلى التمساح عن فخذه ، ولما ظهر مرة أخرى بالقرب من سطح الماء بدا تمساحا غبيا أحمق ، ثم غاص الى القاع • وتقدم ايزاكو الى شاطئ النهر وهو ينزف بغزارة ، وحالما وصل القارب ذهبت اليه فوجدته مصابا بجروح غائرة • فقد كان طول الجرح فى فخذه الأيسر أربع بوصات ، أما فى فخذه الأيمن فلم يكن الجرح طويلا وانما كان عميقا ، بالاضافة الى جروح متفرقة فى ظهره بدت كبصمات لأسنان التمساح • وقد ضممت أطراف الجروح معا بأشرطة لاصقة ولففناها بضمادات ، وكان من رأى ايزاكو أن نسرع فى الوصول الى القرية التالية — ولم تكن بعيدة — قبل أن يشتد ألم جروحه ، فركب على أحد خيولنا الى قرية بولينكومبو Boolinkoomboo • لقد شعرت بوطأة المرض ولم أكن بمستطيع الوقوف دون أن أحس بدوار ، كما كان كل من معنا

يعانى من المرض حتى انهم نقلوا الأمتعة داخل الخيام بمشقة ، فقد كان الجو يؤذن بالمطر • وقد اعترتنى دهشة شديدة أن أرى ألستون Alston أمامى عاريا تماما ، وكان الوطنيـون من أهل البلاد قد سلبوه ملابسه ليلا • لقد كان ألستون قد شفى تماما من الحمى • وسبق لى أن أشرت الى ألستون فى صفحات سابقة فهو البحار الذى تركته فى الغـابة فى مساء اليوم السابق •

٥ يوليو ١٨٠٥ :

وضعنا الأمتعة على ظهور الحمير بمشقة ولم يكن لدينا فائض منها (الحمير) ليركبها المرضى ، لذلك فقد حملت أحدهم على حصـانى بينما سرت أنا خاصة وانى شعرت بتحسن بعد اصـابتى بالحمى ، وسرعان ما وصلنا بولينكومبو Boolinkoomboo ، فقد كانت قريبة لا تبعد عن مكان توقفنا أكثر من ميلين • ويطلق على هذه القرية أحيانا اسم مولاحرا Molaharre ولا يزيد سكانها عن مائة •

أكلوا حميرنـا :

وعندما جمعنا حميرنا وجدناها قد نقصت ثلاثة • وحتى الحمير التى لم تضع كان منها حمار مريض لا يقوى على خوض النهر وعبوره ، فأكله شعب (قبيلة) الفونيلا Fonilla . وقد أدى ذلك الى أنه لم تعد لدينا حمير لحمل المرضى •

كان الوضع مربكا محيرا ، فاذا تقدمنا بدون ايزاكو الى كيمينون Kiminoon واجهنا صعوبـات شديدة فأنـا أعلم أن أبناءها يعتبرون أشد اللصوص بأسا وأشهر قطاع طرق وأعتى مجرمين على طول الطريق• أما اذا توقفت حتى يشفى ايزاكو (وهو أمر بدا مشكوكا فيه) ، فان القافلة قد تتعرض لأمطار شديدة • ولم يكن ثمة شخص آخر أثق فيه بديلا لايزاكو ، وأسوأ ما فى الأمر أنه لم يعد معنا من الأرز الا ما يكفى يومين • والمنطقة تعـانى من نقص فى هذه الغلة • لكل هذا قررت أن أنتظر ثلاثة أيام أفحص بعدها جروح ايزاكو ، وفى الوقت نفسه أرسلت رجلين من قبيـلته الى سراكورا Serracorra مزودين بحمار وثـلاث سبحات من العنبر رقم ٥ ليشتروا بها أرزا •

٦ يوليو ١٨٠٥ :

لم يبق بصحة جيدة الا رجل واحد ، فالباقون اما مرضى أو واهنون، فاشتريت كل ما أستطيع من حليب ، وملأت اناء المعسكر الكبير بالماء وغليناه بعد أن وضعنا به لحاء لعلاج الحمى ، ووزعنا المشروب على المعسكر كل يوم ٠

٨ يوليو ١٨٠٥ :

رحنا ننتظر بقلق عودة الأشخاص الذين أرسلناهم لشراء الأرز ، وهم من قبيلة (شعب) ايزاكو ٠

٩ يوليو ١٨٠٥ :

عاد رجال قبيلة ايزاكو بعد الظهر ، وقد أحضروا معهم ١٢٣ رطلا من الأرز النظيف ٠ وقد بدت جروح ايزاكو متحسنة ٠٠٠

١٠ يوليو ١٨٠٥ :

غادرنا بولينكومبو Boolinkoomboo ومررنا الى الشمال الشرقى بثمانية أميال بقرية سرابابو Serrababoo التى يمر بالقرب منها مجرى مائى يسمى كنياكو Kinyaco ، تصل المياه فيه الى الركبة ويجرى الى الشمال الغربى ٠ وكان من الصعب عبوره بسبب وجود شقوق أو صدوع فى صخور قاعه ٠ لقد سقط عدد من الحمير وابتلت حمولاتها٠ وانطلقنا بعد ذلك نحو الشمال فوق حيود صخرية كانت هى الممر الوحيد بين سلسلة تلال ٠ وبعد أن تجاوزنا هذه الحيود سلكنا طريقا صخريا صعبا مسافة ستة أميال ، وقبل غروب الشمس بقليل وصلنا سابوسيرا Sabooseera فغمرتنا السعادة ٠

١٤ يوليو ١٨٠٥ :

بمجرد طلوع الفجر جمعنا الخيام وحملنا الحمير ٠ وتجمع أهل المدينة متزاحمين حولنا ٠ وكانوا قد سرقوا منا أثناء اقامتنا هنا أربعة معاطف وصرة خرز وبندقية ومسدسين وأشياء أخرى ٠

وخطفوا حقيبة جندى :

وقبل أن ننطلق متقدمين سمعنا طلقة تدوى فى المدينة ، رغم أننا أخذنا معنا أحد أبناء الملك على حصان كحام لنا ، وخطف واحد من أهل المدينة حقيبة أحد جنودنا من فوق الحمار ، فطاردته ومعى ابن الملك حتى لحقنا به لحسن الحظ واستعدنا الحقيبة ، لكن قبل أن نلحق بالقافلة استطاع رجل آخر من أهل المدينة خطف بندقية كانت مربوطة بأحد الأحمال ·

وهكذا تقدمنا ونحن فى حذر دائم ·· وبينما كنا نصعد جانبا صخريا من الطريق على بعد ميلين من مانياكورو Maniakorro سقط عدد من الحمير بحمولته · وسرت قليلا بعيدا عن الممر لأبحث عن منحدر أيسر ، وبينما كنت أقبض على بندقيتى بعناية وأنظر حولى أتى الى اثنان من أبناء نما Numma وطلب منى أحدهما أن أعطيه شيئا من السعوط (النشوق) ، ولأننى حدست أنهما لا يريدان سوءا ، لأننى رأيتهما قبل ذلك مع الملك وبين خيامنا ، فقد استدرت لأخبره أننى لم أحضر معى سعوطا (نشوقا) ، وأثناء استدارتى هجم الآخر واسمه ووسابا Woosaba وخطف بندقيتى من يدى وجرى بها بعيدا ، فقفزت من فوق (بردعة) الحمار وتبعته شاهرا سيفى ودعوت السيد أندرسون أن يعود ويطلب من أحد أن يهتم بحصانى ·

لصوص من سلالة ملكية :

وانطلقت طلقة صوب السيد أندرسون ولما تطلع رأى ابن ناما فشك أنه هو الذى أطلق الرصاص وسألنى مناديا ان كان يجب أن يطلق النار عليه ، ولحسن الحظ فاننى لم أسمع نداءه ربما لانشغالى باستعادة بندقيتى ، وربما أدى اطلاقه النار الى فقداننا نصف ما معنا من أمتعة · لقد هرب اللص على أية حال بين الصخور ، ولما عدت لخيامنا وجدت الرجل الآخر وهو من السلالة الملكية قد سرق معطفى ·

ابن الملك يجيز لنا اطلاق النار على اللصوص :

وذهبت لابن الملك الذى استأجرناه كدليل وأخبرته بما حدث ، وطلبت منه أن يدلنى على الطريقة المثلى للتصرف ما دامت أمتعتنا تسرق

فقال لى انه ما دام الأمر كذلك ، فان من حقنا أن نطلق النار على كل من يحاول سرقتنا • فأصدرت أوامرى بـأن يلزم الجنود أحمالنـا حاملين بنادقهم وهم على أهبة الاستعداد • أصبحت السماء غائمة تحجبها السحب ونحن على بعد خمسة أميال من المدينة وهب علينا اعصار عات • وبينما كان المطر يهطل خطف أبناء نما Numma بنادق ومسدسين بينما كنا نعيد تحميل الحمير •

توقفنا بين الصخور وأنزلنا الأحمال وأطعمنا الحمير وطبخنا بعض الأرز ، رغم أن السماء كانت تمطر بغزارة •

تحذير الصبية الزنوج :

وحذرنا أحد الصبية الزنوج أن ثلاثة أشخاص يقودون حميرنـا بعيدا فطاردت مع بعض الرجال هؤلاء اللصوص فهربوا بين السخور ، تاركين كل حميرنا لم يسرقوا منها حمارا واحدا ، رغم أنهم كانوا قد فكوا حبال ثلاثة حمير وربطوا حمارا رابعا الى شجرة • وجمعنا حميرنا وبدأنا نحملها، وبينما كنا نقودها شرد واحد منها لحوالى مائتى ياردة، واعترتنى دهشـة شديدة عندما رأيت رجلا يظهر من بين الصـخور ويأخذ حمل الحمار ويخرج سكينا ويمزق غطاء الحمل ليخرج ما به ، وقبل أن يلحقه أحد منا هرب مختبئا بين الصخور تاركا الحمل ، فأطلق السيد سكوت وأحـد الجنـود النـار فى اثره فلم يصيبوه • وتابعنا طريقنـا الذى كان صخريـا وأصدرت أوامرى باطلاق النار على كل من يحاول سرقتنـا • ولما وجدت أن بعض الحمير تترنح فى مواضع صعبة من الطريق طلبت من بعض الجنود نصف المرضى حراسـتها وجعلت هذه الحمير فى مؤخرة القافلة •• وقد رأيت اللصوص ينظرون للقافلة بمكر وهم فوق الصخور ، كما رأيتهم يعطون الاشارة لملائهم الذين تظاهروا بمساعدتنا فى تحميل الحمير ، فوضعت أحد الأحمال فوق حصانى كما وضعت حملا آخر فوق حصان أندرسون •••وعندما وصلنا لقـاع الممر استمر طريقنـا أكثر سهولة •••

١٥ يوليو ١٨٠٥ :

واصلنا رحلتنا فى الصباح الباكر وسرت مع جماعة من القافلة فى المؤخرة ولاننا كنا نسير ببطء فقد انفصلنا عن المقدمة • حملنا الخيول كالمعتاد ولما وصلنا لأرض مزروعة تحيط بقرية جانامبو Ganamboo ، تحلقنا حول أحد الجنود الذى أخبرنا أن عبدا خرج من بين الغابة وسرق بندقيته وحقيبته التى كانت مربوطة فوق الجمل •••

وجانامبو Genamboo مجرد قرية صغيرة مسورة ، وتقع الى الشمال الشرقى من مانياكرو Maniakorro بحوالى عشرة أميال ٠

الوصــول لنهر النيجــر

١٨ أغسطس :

لم يصلنى أى تقرير عن السيد سكوت ، الا أنه مازال فى كوميكومى Koomikoomi غــير قادر على مواصــلة الرحــلة ٠ وفى الســاعة السابعة غادرنا دونابيلا Doonabiia ولأن الحمير أصــبحت متعبة لم يكن ثمة مناص من تنزيل حمولاتها ووضعت أحد الأحمال فوق حصانى ، وكان الجنود مرهقين فلم يكن فى امكان أحد ـ خلا واحد ـ بقادر على قيادة حمار ، ولأن الطريق كان سيئا فاننا لم نصل الى توميبا Tomiba حتى غروب الشمس ، ولأنه قد بقى زهاء ثمانية عشر ميلا أو عشرين ميلا فى اتجاه الجنوب الشرقى ليصل أندرسون والحمالون المرافقون له الذين توقفوا فى قرية على الطريق حيث كانت تتوفر كميات من الجعة (البيرة) الجيدة ، فكان لابد أن نتوقف فنصبنا خيامنا وبمجرد أن فعلنا ذلك حتى هطلت الأمطار ، وظلت تهطل طوال الليل فجرى الجنود الى داخل القرية ٠ لقد قضيت ليلة مرهقة وكان على أن أمنع حميرنا من التهام قمح الأهالى وجعلنى ذلك أظل متيقظا معظم الليل تقريبا ٠

عن القوانين المحلية :

وحتى لا تتفلت المعلومات من ذاكرتى أسجل هنا أن العرف السائد بين الأفارقة فى حالة اذا ما أكل حمار زرع شخص آخر ٠ اذا كسر حمار ساق نبتة قمح واحدة كان من حق صاحب القمح الاستيلاء على الحمار اذا لم يرضه صاحب الحمار ، ومع هذا فليس لصاحب القمح أن يبيع الحمار أو يستخدمه فى أشغاله وانما من حقه أن يقتله (يذبحه) فالبمبارا Bambara يحبون جدا لحوم الحمير ٠ وغالبا ما يوضع هذا القانون (العرف) موضع التنفيذ ٠

١٩ أغسطس :

أحضر الحمالون الســيد أندرسون مبكرا وتقدموا به ، فوضــعنا الأحمال فوق حميرنا فى الحال وغادرنا تونيبا Toniba (ظهر الرقيب مكيل M'keal مصابا بهذيــان الحمى) وظللنا نصعد الجبال الواقعة

جنوب تونيبا حتى الساعة الثالثة ، حيث وصلنا الى قمة الحيد (الجرف) الذى يفصل نهر النيجر عن الفروع البعيدة للسنغال ، وتراجعت قليلا ووصلت الى أعلى التل لألقى نظرة أخرى على النيجر بمجراه العظيم فى السهل ٠

وبعد السير الشاق الذى عانينا منه كان منظر النهر خير عزاء لنا عن هذه المشقة ٠ لقد خفف من عناء الرحلة ، كما كان منظره خاتمة سعيدة لكننى عندما فكرت أن ثلاثة أرباع الجنود قد لاقوا حتوفهم فى الطريق ، وأننا نعانى الوهن وأوضاعنا غير مريحة وغير مشجعة فليس لدينا نجارون لصناعة القوارب لنواصل بها رحلتنا فى النهر ، وجدت أن وضعنا لا يبعث على المسرة ٠ وعلى أية حال ، فقد كان مما يبعث على السرور على نحو خاص أن مجموعة أوروبية قطعت أكثر من خمسمائة ميل فى هذه الأنحاء وكونت علاقة صداقة مع أهل البلاد (الوطنيين) ٠ ان هذه الرحلة تظهر بوضوح ما يلى :

أولا : بشىء من التدبير والحكمة يمكن نقل أية كمية من البضائع من غمبيا Gambia الى (نهر) النيجر ، دون خوف من أن يسرقها أهل البلاد ٠

ثانيا : اذا تمت هذه الرحلة فى الموسم الجاف ، فان المرء لا يتوقع أن يموت أكثر من ثلاثة رجال أو أربعة من جملة مكونة من خمسين شخصا ٠

لنعد للحديث عن النيجر ٠ لقد كانت مياه النهر مرتفعة بفعل هطول المطر لكنها لم تفض على شاطئيه ٠ ومن المؤكد أنه أكثر اتساعا من نهر غمبيا أو السنغال ٠ لقد هبطنا بصعوبة المناطق التلية الى بمباكو Bambakoo التى وصلناها بعد مسير استمر ست ساعات ونصف ساعة ، ونصبنا خيامنا تحت شجرة بالقرب من المدينة ٠ ومن بين أربعة وثلاثين جنديا وأربعة نجارين غادروا معنا غمبيا لم يصل للنيجر الا ستة جنود ونجار واحد ٠

وأثناء الليل خطفت الذئاب صرتين كبيرتين من الملابس ، عند باب الخيمة وسحبتها لمسافة غير قليلة ، فمزقت جلود الصرر وتركت الصرر مفتوحة ٠

تعليق المحرر :

[خطط بارك في هذه المرحلة أن يبحر في النيجر بقارب وأن يرسل ايزاكو ليسبقه الى سيجو Sego محملا بالهدايا لملك مانسونج Mansong ، فقد كان الحصول على اذنه أمرا ضروريا] •

سـفير من مانسـونج

١٩ سبتمبر ١٨٠٥ :

في حوالى الساعة الثانية صباحا وصل ايزاكو مستقلا قاربا قادما من سيجو ، ومعه كل الهدايا التى أرسلتها الى مانسونج الذى لم يفكر حتى في رؤيتها ، ولما علم أننى وصلت الى سامى Samee طلب من موديبونو Modibinno أن يخبر ايزاكو أنه من الأفضل أن يتسلم الهدايا في سامى Samee ، عن طريق شخص (سفير) يرسله الى لتسلمها من يدى شخصيا • وأخبرنى ايزاكو أن مانسونج وكل بطانته لم يجدوا مانعا في السماح لى بالمرور •

مانسونج يضرب الرمل :

ولكن عندما تحدث ايزاكو عنا ووصف بعض ما حدث لنا أثناء الرحلة ، شرع مانسونج فى رسم مربعات ومثلثات بأصابعه في رمال موضوعة أمامه ، وظل يفعل ذلك طالما كان ايزاكو يتحدث عنا • وقال لنا ايزاكو انه يظن أن مانسونج كان متوجسا خيفة منا ، خاصة وأنه لم يبد أبدا رغبة في رؤيتنا ، بل لقد بدا أنه لا يرغب في لقيانا •

٢٢ سبتمبر :

وفي المساء وصل موديبين Modibinne وأربعة من أصدقاء مانسونج فى قارب ، وأرسلوا فى طلبى ، وأخبرنى موديبين أن مانسونج أرسلهم ليسمعوا ما نريد قوله عن سبب مجيئنا الى بمبارا وقال انه يود زيارتى صباحا •••

ورغب الى موديبين أن أعرف مبعوثى مانسونج سبب زيارتى لبلادهم، فتحدثت اليهم بلغة البمبارا بما يؤدى هذه المعانى : « اننى أنا الرجل

الأبيض الذى وصل الى بمبارا منذ تسع سنوات ووصلت الى سيجو وطلبت من مانسونج أن يسمح لى بالتوغل شرقا ولم يكتف وقتها بالسماح لى ، وانما زودنى بخمسة آلاف كوارى Cowries لأشترى لنفسى بها مؤنا أتزود بها أثناء السفر ، لأنكم جميعا تعلمون أن البربر كانوا قد سلبونى بضائعى • وقد حظى هذا التصرف الكريم من مانسونج بتقدير واحترام فى بلاد البيض ، فأرسلنى ملك بلاد البيض مرة أخرى الى بمبارا ، واذا قـرر مانسونج أن يحمينى وقررتم أنتم أن تكونوا أصدقاء لى ، فاننى سأخبركم بالهدف الحقيقى لمجيئى الى بلادكم » •

(وهنا رغب الى موديبين أن أستمر فى الكلام ، لأن كل الحاضرين من أصدقائى) عندئذ قلت :

« انكم تعلمون أن البيض ما هم الا شعوب متاجرة (تهتم بالتجارة) وأن كل البضائع ذات القيمة التى يجلبها الى سيجو البربر وأهل جنى هى فى الواقع مصنوعة فى بلادنا نحن البيض • فاذا تحدثتم عن البنادق الجيدة ، سـألتكم : من هو صـانعها ؟ انهم البيض ، واذا تحدثتم عن المسدسات الجيدة أو السيوف أو البارود أو الأقمشة الحمراء أو البفتة baft أو الخرز ، من هم صانعو كل هذه البضـائع ؟ انهم الشـعوب البيضاء • من الذى يبيع كل هذا للبربر ؟ اننا نحن الذين نبيعها لهم ، وهم بدورهم يحضرونها الى تمبكتو ويبيعونها بأسعار مرتفعة • وأهل تمبـكتو يقومون بدورهـم ببيع هذه البضائـع لأهـل جنى Jinnie بأسعار أعلى ، ويقوم أهل جنى — بدورهم — ببيع هذه البضائع لكم • والآن ، فان ملك الشـعب الأبيض يرغب فى ايجـاد وسيلة لنحضر لكم بضائعنا مباشرة بأسعار أرخص بكثير مما تدفعون فيها • لهذا الهدف — اذا سمح لى مانسونج بالمرور — فاننى أرغب فى الابحار فى النهر حتى الماء المالح ، فاذا وجدت النهر صالحا للملاحة لا تعترضه صخور أو أخطار ، فان الرجال البيض سيحضرون الى سيجو بسفنهم الصغيرة ليتاجروا مع أهلها اذا رغب مانسونج فى ذلك • وآمل أن ما ذكرته لكم الآن يظل سرا لا يعرف به أحد الا مانسونج وابنه ، لأن البربر اذا علموا بذلك قتلونى قبل أن أصل الى الماء المالح (المحيط) » •

وأجابنى موديبين Modibinne : « لقد سمعنا ما قلته ، ورحلتك هذه رحلة طيبة ونرجو أن يوفقك الله ، وسيقدم لك مانسونج الحماية وسننقل كل ما قلته الى مانسونج بعد ظهر هذا اليوم ، وفى الغد سنوافيك برده • وأوعزت الى ايزاكو أن يريهم مختلف الأشياء التى جلبتها كهدايا

لمانسونج وابنه ، فأبهجهم الوعاء (السلطانية) والبندقية ذات الماسورتين وفي الحق ، فان كل ما رأوه كان يفوق في جودته مثيله مما سبق أن رأوه .

ولما طرحت كل الهدايا المقدمة لمانسونج وابنه أمامهم قدمت لموديبين وكل واحد من النبلاء (مبعوثي مانسونج) ثوبا أحمر . والآن ، قال لنا موديبين انهم قد عملوا الآن ما أحضرناه لمانسونج وابنه ، وهو يمثل هدية قيمة جديرة بمانسونج ، ولكنه أضاف قائلا ان مانسونج سمع تقارير كثيرة عما تحملونه معكم لذا ، فانه يرغب في تفحص محتويات حقائبكم وصرركم ثم قال : ولان هذه الحقائب وتلك الصرر مغطاة بالجلد فانهم لن يفتحوها وانما سيكتفون بأن تذكر لهم ما بها » ، فقلت لهم اننا لا نحمل معنا الا ما يمكننا من شراء مؤن أثناء الطريق وانه يسعدني كثيرا أن ينفذ القانون بفتح صررنا وحقائبنا ، الا أنهم — على أية حال رفضوا ، فأمرت بفتح الحقائب والصرر ، فلفت نظرهم على نحو خاص طريقة الجنود في اخفاء العنبر الجيد والمرجان .

ولما تم تفتيش كل أحمالنا سألت موديبين عن رأيه فيما نحمله . وما اذا كان قد رأى أي أوان (سلطانيات) فضية أخرى أو بنادق من ذوات الماسورتين . فقال انه لم ير شيئا سيئا ، ولم ير الا ما هو ضروري لشراء المؤن ، وقال انه سيقول لمانسونج ذلك . ثم رحلوا الى سيجو دون أن يأخذوا معهم الهدايا المقدمة الى مانسونج حتى يسمعوا رأيه .

١٤ سبتمبر ١٨٠٥ :

في هذا اليوم مات الجنديان سيد Seed وباربر Barber أثناء الليل أحدهما بالحمى والآخر بالدوسنتاريا (الزحار) ودفعنا عشرين حجر عنبر لدفنهما .

٢٥ سبتمبر : مانسونج يقبل هدايانا :

عاد موديبين والأشخاص أنفسهم الذين كانوا مرافقين له ، ومعهم رد مانسونج وكانت ترجمته كالتالي :

« مانسونج يقول انه سيبسط حمايته عليك فالطريق مفتوحة أمامك حيثما ذهبت في المناطق التي تمتد اليها سلطته ، فاذا رغبت في الاتجاه شرقا فيمكنك أن تمر بمناطق الفولادو Fooladoo والماندنج Manding عبر كاسا Kassa وبوندو Bondou . فيكفيك أن تقول

انك غريب فى حماية مانسونج ، فهذا وحده كاف ، واذا رغبت فى بناء صندوقك (كذا) فى سامى Samee أو سيجو Sego أو سانساندنج Sansanding ، أو جنى ، فعليك أن تحدد المدينة ومانسونج سوف ينقلك الى هناك » وأنهى حديثه قائلا : « ان مانسونج يرغب الى أن أبيعه أربع بنادق قصيرة وثلاثة سيوف والكمان الخاصة بالسيد سكوت وبعض قلادات الخرز البرمنجهامية ، وذلك مقابل عجل أرسله لنا وأرسل ابنه أيضا عجلا آخر وخروفا طيبا • وقد أخبرت موديبين أن صداقة مانسونج أثمن من كل الأشياء التى ذكرها ، وأننى سأكون سعيدا أن يقبل منى هذه الأشياء (كهدية) كدليل جديد على تقديرى له •

واخترت سانساندنج Sansonding لتكون المدينة التى نذهب اليها ، لأن سامسونج لم يبد أية رغبة فى رؤيتى ولأننى لن أكون أكثر هدوءا وأكثر حرية فى سيجو • وبناء على ذلك فقد أرسلت العجلين اللذين أرسلهما سامسونج وابنه ليسبقانا برا الى سانساندنج •

* * *

خطط للرحلة الأخيرة

١٦ أكتوبر :

وصل موديبين وجور Jower وأخبرانى أنهما قد جلبا قاربا أعطاهما اياه مانسونج ، فذهبت لأراه فاعترضت على شطره لأنه كان منتنا تماما ، فأرسلا الى سيجو يطلبان نصفا آخر بدلا عن النصف النتن فلما تم ارسال النصف الآخر وجدنا أنه غير ملائم للنصف الموجود عندنا بالفعل ، فاضطررت الى ارسال ايزاكو مرة أخرى الى سيجو ومعه بندقيتان قصيرتان وبندقيتان خفيفتان لصيد الطيور وزوجان من المسدسات وخمس بنادق معطلة ، نظرا لأن مانسونج كان قد قال لايزاكو انه يرغب أن أبيعه أية أسلحة احتياطية عندى ، وقد طلبت فى مقابل هذه الأسلحة أن يزودنا مانسونج بقارب جيد يصلح للابحار أو أن يسمح لى بشراء مثل هذا القارب لإستخدامه فى ابحارى فى النيجر ، وعاد ايزاكو فى العشرين من أكتوبر بقارب كبير لكن نصفه محطم وقد سدت ثقوبه على عجل وبغير احكام •

تدشين القارب الملكي :

فعملت على وصل أفضل نصفى القارب بالنصف الذى سبق ارساله وساعدنى ابراهيم بولتون Abraham Bolton ، بصفته الشخصية ، فى استخراج القطع الخشبية النتنة وسددنا كل الثقوب وظللنا نرتب الأخشاب طوال ثمانية عشر يوما من العمل الشاق ، حتى تغير شكل قارب البمبارا هذا فأطلقنا عليه اسم المركب الشراعى جوليبا Joliba لصاحب الجلالة الملك (البريطانى) • وكان طوله أربعين قدما وعرضه ستة أقدام وقاعه مسطح والجزء الغاطس منه عندما يكون محملا لا يزيد عن قدم واحدة •

٢٨ أكتوبر ١٨٠٥ :

موت صديقى اندرسون :

وفى الساعة الخامسة والربع صباح الثامن والعشرين من أكتوبر توفى صديقى العزيز السيد الاسكندر أندرسون ، بعد مرض دام أربعة أشهر •••

١٤ نوفمبر :

أصبحت سفينتنا جاهزة للابحار تقريبا ، لكننى انتظرت حتى يعود ايزاكو من سنيجو ••

١٥ نوفمبر : عودة ايزاكو :

عاد ايزاكو وأخبرنا أن مانسونج كان قلقا ويرى أن أرحل بأقصى سرعة ممكنة ، قبل أن يتنبه البربر فى الشرق الى مجيئى • واشترينا جلود ثيران لاستخدامها كدروع تحمينا من سهام جماعات السوكرا Sookra والماهنج Mahing الذين يقطنون الشاطىء الشمالى للنيجر بين جنى Jihnie وتمبكتو •

١٦ نوفمبر ١٨٠٥ :

أصبح كل شىء جاهزا وسنبحر غدا صباحا أو مساء •••

تعليق المحرر :

مصرع منجـو بارك

أبحر بارك لكنه لم يصـل أبدا الى حيث كان يريد ، وكلفت الحكومة ايزاكو بالبحث عنه فلما عاد للنيجر ، علم من أمادى فاتوما Amadi Fatouma الذى كان مرشدا (دليلا) لبارك أنه وصل الى بو . . Bu (؟) فهاجمه أهل البلاد وقتلوه وقتلوا الأوربيين الأربعة المصاحبين له .

فـريدريك هــورنمان

Frederick Horneman

لم يعق الجمعية الأفريقية عن أداء مهمتها فشل السيد لوكاس ولا موت السيد ليليارد والماجور هوتون، فاتفقت مع فردريك هورنمان أن يكتشف غرب أفريقيا منطلقا من القاهرة • وبعد أن درس اللغة العربية في جوتنجن Gottingen، على نفقة الجمعية غادر لندن في يوليو ١٧٩٧ قاصدا مصر وتأخر في القاهرة بسبب الطاعون حتى وصلت جيوش الحملة الفرنسية على مصر ، فتقدم الى نابليون فوعده بالحماية وتقديم الأموال والمؤن الضرورية لرحلته • وانضم بعد ذلك لقافلة تجار في طريقها الى فزان وانطلق معهم في ٥ سبتمبر ١٧٩٨ والمقتطفات التي نوردها من المطبوع التالي :

The Journal of Frederick Horneman's Trevels from Cairo to Mourzouk & C. in the years 1797. 98, London, 1802.

الـرحلة في الصـحراء

••• لم آكن قد استهنت بالصعوبات التي سأواجهها أثناء الرحلة، فقد كنت على وعي بأن كثيرا منها سيواجهنى فرحت أتدرب على مواجهتها ، حتى قبل أن ألتحق بالقافلة ، ورحت أتآلف مع عادات أفراد العائلة وطباعهم • لقد سافرنا من الفجر حتى الظهر ، وبدت لى بشائر التوقف للراحة عندما راح تجار القافلة الأساسيون والأكثر ثراء يقضمون خبزا يابسا وبعض البصل أثناء مسيرهم ، ولكننى علمت أنه من غير المعتاد أن تتوقف القافلة نهارا لتناول وجبة أو غير ذلك الا عند الضرورة القصوى • كان هذا غير ملائم لى ، ولكن بعض العرب القريبين منى دعونى لمشاركتهم زادهم فعالجوا بذلك مشكلتي •

وبعد غروب الشمس مباشرة أشار الشيخ بالتوقف فنصبنا خيامنا. وقد تحول المترجم المرافق لى الى طباخ ماهر ، وهذا قد يحدث حتى فى أوربا ، فأعد لنا وجبة ممتازة من بقايا المؤن التى زودنا بها أصدقاؤنا الكرام فى القاهرة ، وقد لاحظ — فى هذه الأثناء — أحد الرجال العرب كبار السن من واحة أوجله Augila اعدادات مترجمى لتجهيز وجبة ، كما لاحظ أننى غير مشغول فتجاذب معى أطراف الحديث على النحو التالى : « انك مازلت شابا يافعا ، لذا فأنت لست فى حاجة الى من يساعدك لاعداد طعامك — ربما كان ذلك من الأمور المعتادة فى بلاد الكفار لكنه ليس أمرا معتادا عندنا فلا أحد يعتمد على الآخرين خاصة فى الصحراء .. اننا لا نأكل ولا نشرب الا ما نعده بأنفسنا ووفقا لما نهوى ، ونشكر الله على ذلك . انه يجب عليك أن تتعلم أن تقوم بالأمور نفسها التى يقوم بها أقل عربى . بل انه يتعين عليك أن تساعد الآخرين عند الضرورة واذا لم تفعل قل شأنك وأصبحت المرأة أفضل منك ، وقد يفكرون فى سلبك كل ما تملك فأنت — وهذا حالك — غير جدير بامتلاك أى شىء ، ولا يقتصر الأمر على سلبك ممتلكاتك وانما تتعرض لسخرية مريرة ، أما ان كنت تحمل قدرا كبيرا من المال تعين عليك أن تدفع كثيرا لهؤلاء الرجال » . ولم أهمل هذه النصيحة فمنذ سمعتها غدوت أساعد فى عمل كل شىء ، وأصغى الى الآراء الصائبة لرفاق السفر ، حتى لا أبدو ضعيفا أو عديم الفائدة .

الوصول لوادى النترون :

لقد انطلق ركبنا مبكرا فى صباح اليوم التالى ووصلنا الى وادى النترون (*) Wady el-latron بعد أربع ساعات ، فتلقت القافلة اشارة بالتوقف للتزود بالماء ، فى الوقت الذى ظهرت فيه أمامنا قافلة بدوية على على مسافة غير بعيدة وكان هذا بمثابة انذار خطير لقافلتنا ، لكن قائد قافلتنا (شيخ قافلتنا) كان جديرا بثقة واحترام أتباعه لحصافته وشجاعته ، بالاضافة لما يحظى به من توقير باعتباره اماما . لقد أصدر الشيخ أوامره لنا فى الحال بشغل البقعة التى تحوى ماء فتقدم هو على رأس حوالى عشرين من العرب والطوارق Tuaricks ، لاستطلاع المنطقة التى سيقدم منها البدو الآخرون ، لكنهم — أى بدو القافلة الأخرى — تراجعوا تماما وأصبحوا الآن بعيدين عن الأنظار ، فأصبح لدينا الوقت الكافى لطهى طعامنا وملء قربنا . الا أننا لم نعتبر موقعنا هذا آمنا بدرجة تتيح لنا قضاء الليل فيه ، لذا فقد تابعنا مسيرنا فى الساعة الرابعة ووصلنا سفح

(*) سمعها من مرافقيه باللام (وادى اللترون) ، ومازال هذا النطق سائدا لدى بعض العامة — (المترجم) .

تل رملى فى الساعة الثامنة ليلا ، وعسكرنا فى غير نظام واتخذنا حذرنا فلم نشعل نارا كما اتخذنا كل الاحتياطات حتى لا يكتشف أحد موضعنا ٠

وفى صباح اليوم التالى الموافق للثامن من سبتمبر (سنة ١٧٩٨) دخلنا المنطقة الصحراوية التى ربما كانت تمثل الحدود المصرية ، وبعد أن قطعنا ثلاث عشرة ساعة عسكرنا فى منطقة يسميها العرب مهباش (؟) Muhabag ٠ وكانت رحلتنا فيما تبقى من النهار مريحة الى حد ما ففى غضون أربع ساعات ونصف الساعة وصلنا للمغارة (؟) Mogara ، وهى موضع على حافة واد مثمر ويمكن التزود منها بالمياه٠

وملأنا القرب المصنوعة من جلود الماعز بالميـاه التى ستستخدمها القافلة ، وجلود هذه القرب غير مثقوبة من الوسط وقد تم نزعها من الماعز سليمة قدر الامكان، وأفضل أنواع القرب هى المصنوعة فى السودان، ويمكن أن نحتفظ فى هذه القرب بالمياه طوال خمسة أيام دون أن تترك فى الماء أثرا يجعل مذاقه غير مستساغ ، أما القرب المصنوعة فى المناطق الداخلية فتترك فى الميـاه أثرا يجعل طعمـه غير مستساغ ، بل ان رائحة الجلد تبدو واضحة فى المياه التى تحفظ فيها فى اليوم التالى ٠ ولجعل جلد القرب لينا وكذلك لاطالة عمره يشحمونه من الداخل بالزبد وأحيانا يشحمه العرب بالزيوت ، ويؤدى هذا الى جعل الماء — بسرعة — ذا طعم غير مستساغ لا يقدر على تحمل طعمه الا العرب ٠

وفى اليوم السادس قطعنا رحلة شاقة ومتعبة لم نتوقف فيها طوال اثنتى عشرة ساعة ٠ لقد سقط حصان العربى القريب منى مريضا ولم يكن قادرا على أن يخطو خطوة واحدة مع القافلة ، وقد ساعدته فى جعل الحصان ينهض ولم أتقاعس عن تقديم المعونة اللازمة ولما وصلنا الى حيث عسكرنا ليلا أرسل لى العربى الذى ساعدته آنفا مع عبده قطعتين مجففتين من لحم بعير مع طلب بقبول هديته — وكان غير بعيد عنى عدد من العرب البؤساء نظروا بشره للحم الذى أهدى الى ، وبينما كنت أوزعه عليهم وجدت أنه كان يتعين على أن أحتفظ بجزء منه لنفسى ، فقد كان مذاقه رائعا من وجهة نظرهـــم ٠

ان الظروف وكذلك المنـاسـبات التى تجعل الناس يتصرفون على سجيتهم ، تلقى ضوءا على سلوكيات الشعوب وتحدد خصائصها ، فطريقة الاعداد والتجهيز والأدوات المستخدمة وكذلك أسلوب الحياة أو الطريقة التى يتناول بها العرب طعامهم أثناء الرحلة فى الصحارى ، كل ذلك يشكل موضوعا جذابا يستحق أن يلتفت المرء اليه ٠

فالعـربى يبـدأ رحلته بأن يجهز مؤونة من الدقيـق والكسكاسا Kuskasa والبصل ولية الخروف (دهون الضأن) والزيت أو الزبد ، ويضيف بعض أفراد الطبقة الغنية لذلك قدرا من البقسماط (البسكويت) واللحوم المجففة ، وبمجرد أن تتـوقف الجمال وتوضـع أحمالها ، يقوم الجمالون والعبيد بحفر حفرة صغيرة في الرمال ليشعلوا النيران بها ، ثم يشرعون فى جمع الحطب ، وجلب ثلاثة أحجار (أثافى) يضعونها حول الحفرة التى أعدوها آنفا لتكون دعامة للآنية التى ستوضع فوقها، ولتحيط بجمرات النار • وتوضع الآنية (الحلة أو الطنجرة) فوق النار حتى يغلى ماؤها ويمضى المجتمعون الوقت فى هذه الأثناء فى تجاذب أطراف الحديث واعداد مكونـات الوجبـة • والوجبة المعتـادة هى العصيدة hasside وهى وجبة نشوية يتم تقديمها فى أطباق نحاسية ، وتستخدم الأطباق نفسها فى تقديم الماء للجمال اذا لم توجد أوان أخرى • واذا قدمت هذه العصيدة وهى طعام لين حلو ، فان المرء يخففها باضافة الحساء اليها ... وفى أحيان أخرى يكون الغداء مكونا من دقيق معجون ، يقطع الى قطع صغيرة توضـع فى الماء وتغـلى فتـأخذ شـكل الزلابية dumplins, ويسمونها ميجوتا Mijotta ، على أن أفضل الوجبات هى المكونة من لحوم مجففة تسلق معا مع لية خروف وشرائح البصل الرقيقة والملح وقطع البقسماط وكمية طيبة من الفلفل ... ويعد نحر جمل بمثابة عيد للجمالة والعبيد ، فاذا ما تم ذبح الجمل أصبح لأصدقـاء صاحب الجمل المنحور الأولوية فى شراء ما يريدون من الذبيحة ، ثم يأتى كل عبد ليأخذ نصيبه ، ولحم الجمل شديد لا يمكن قطعه بالأسنان الآدمية ، والا كانت عرضة للسقوط ، وتمر قطعة العظم الصلبة شديدة البأس بعديد من الأيدى والأفواه قبل أن يصدر قرار نهائى بالتخلص منها ، وهم يصنعون من جلود البعير أخفافا (صنادل) ومن أوبارها خيوطا •

دخـــول فـزان

سنصل لموضع تميسا Temissa بعد سـاعة من المسير ، ومع هذا فقد عجل أهل المكان (تميسا) بتحية القافلة وتهنئتها بسلامة الوصول • لقد انهمر من أفواههم ما لا حصر له من الأسئلة عن الصحة والأمنيـات الطيبة وحمد الله على السلامة ، وفقا للأسلوب العربى ، لقد بدا لى ذلك أمرا غير عادى واندهشت لتكرار الكلمات والمعانى ، لكن كان على أن أفهم أن ذلك نوع من الأدب واللياقة وفقا للعادات المتبعة فى المنطقة فحتى المتعلمون وذوو الوضعية الاجتمـاعية العـالية يكررون ــ فى الغـــالب الأعم ــ

الاستفسارات على النحو نفسه• ولقد استرعى انتباهى ـ على نحو خاص ـ شاب حسن الثوب لوفرة سلاماته وتحياته • لقد بادر عربيا من أوجله Augila فتحدث اليه ، فلما سلم عليه راح يحدثه وأخره عن رفاقه حتى ان العربى اضطر للركض ليلحق برفاقه الذين تخلف عنهم ، وظن الشاب الفزانى أنه من غير اللياقة تركه ، كما ظن أنه لم يمكثه (بضم الياء) معه فترة كافية وهذا لا يجوز ، فراح يجرى بحصانه ليلحق بعربى أوجله • ولم يخرج حديثه أبدا عن هذه العبارات ، كيف الرحلة ؟ كيف حالك ؟ الحمد لله على السلامة ! الحمد لله انك وصلت بالسلامة••الله يسلمك •• كيف حالك ؟!

وعند اقترابنا من تميسا Temissa وجدنا الحجاج ينظمون أنفسهم مستخدمين طبلة وعلما أخضر • وكون التجار مجموعة على رأس القافلة وحملوا خيولهم على الركض ، ووصلنا على هذا النحو الى الموضع الذى سنعسكر فيه قرب المدينة ، بينما تجمعت النسوة دون حجاب Without the Walls ليرحبن بنا وفقا للعادات العربية فيكررن الاستفسارات بشكل ممل ، ويبدين السعادة والسرور ورددنا على استفساراتهم وتحياتهم باطلاق الأسلحة النارية وظل الأمر على هذه الشاكلة حتى نصبنا خيامنا فى بستان نخيل •

ولم نكن نسمع طوال هذا اليوم الا سلامات وتحيات وتهنئات بين القافلة خاصة بين التجار • وربما لم تكن القافلة تغادر القاهرة من سنوات خلت بمثل مشاعر الخوف التى غادرناها بها ، فجيش الكفار قد هاجم المدينة الرئيسية فى أفريقيا بقسوة واستولى عليها • وتم كل ذلك على حين غرة ، وحطم الجيش الغازى قوة المماليك الحاكمة وهدد بالالغاء الفورى لتجارة الرقيق ، وهى التجارة التى تعد مورد الرزق الرئيسى للقافلة •

ولم تمض الا أيام قلائل على مغادرتنا القاهرة حتى كان ظهور جماعة من البدو يمثل تحذيرا لقافلتنا • حقيقة لقد كان من الأمور غير المعتادة أن نصل الى (واحة) سيوة دون أن نتعرض لهجوم ، فالعرب (يقصد البدو) جسورون جدا ولديهم من الجرأة ما يمكنهم من المرور بالمراكز الفرنسية ، وتجاوزها كما أن لديهم الجرأة على السلب والنهب بالقرب القريب من العاصمة ذاتها ، وبينما كنا فى سيوة علمنا بتحركات جماعات من بدو بنى غازى ومن قبائل بدوية أخرى ، وقد عاينا غير بعيد عن طريقنا بين أوجلة وحدود فزان العديد من الآثار الدالة على أعمال السلب والنهب : فثمة مئات من الجمال والدواب الميتة كان قد تم سلبها ثم تخلى سارقوها عنها ربما لعدم توفر المياه • لقد سرقت هذه المواشى من المناطق القريبة ، بل إن هؤلاء

البدو اللصوص قد هاجموا تميسا وانتظروا قافلتنا في هذه الأنحاء مدة غير قليلة الا أنهم خلصوا في النهاية الى ان قافلتنا قد لا تصل بسبب (الغزو الفرنسي) للقاهرة . لقد أصبحنا آمنين الآن لا ينتظرنا خطر عاجل ، كما أن طريقنا القادم يمر عبر مناطق آهلة بالسكان في مملكة (سلطنة) فزان فتلاشى خوفنا .

وليست لتميسا أهمية كبيرة في الوقت الحاضر فليس بها أكثر من أربعين رجلا يحملون السلاح . وقد بنيت تميسا فوق تل وسورت بسور عال ليصد عنها الغارات ، لكن السور مهدم في مواضع متعددة . ويقال ان ثمة نقوشا قديمة قد اكتشفت على بعض المباني ، لكنني لم أعاين شيئا من هذا ولا أظن بوجوده فليس من شيء هنا الا خرائب بيوت مهدمة ، من حجر جيري واسمنت وملاط أحمر . وعلى أية حال ، فان هذه البقايا تشير الى أن سكان تميسا Temissa القدماء كانوا أكثر خبرة في فن البناء من سكانها الحاليين الذين يقيمون مساكنهم فوق هذه الخرائب أو بينها ، وهي مساكن قلما تكون مريحة ، بل انها اقرب الى زرائب الحيوانات عندنا في أوربا .

ويمتلك هؤلاء الناس أعدادا كبيرة من الخراف والماعز ، وليس لديهم من حيوانات الركوب سوى الحمير وتحيط بساتين النخيل التي تعد مصدر الغذاء الأساسي لديهم رغم أن انتاجها غير وفير .

وبعد أن زرت المدينة عند عودتي للمعسكر وجدت عددا من أهل البلاد ، يستبدلون خرافا ودجاجا ونمورا بتمباك وزبد وحلي نسائية وملابس من صوف خشن اعتاد العرب لبسها ، وانتهت أمسيتنا بأن راح كل من في المعسكر يبارك للآخر ويهنئه وقام الصبية والعبيد صغار السن بايقاد المشاعل ونيران التدفئة .

سلطان فزان

ويحكم فزان سلطان يرجع بنسبه الى أسرة من الأشراف ، وتقول المرويات الشعبية ان أجداد الأمير الحاكم أتوا من غرب أفريقيا واستولوا على فزان منذ حوالى خمسمائة سنة ، ولهذا السلطان سلطة غير محدودة لكنه يدفع مبلغا من المال tributary لباشا طرابلس ، وكان هذا المبلغ فيما مضى يقدر بستة آلاف دولار ، أما الآن فقد نقص الى أربعة آلاف فقط ، ويأتي مندوب باشا طرابلس كل عام الى مرزوق Mourzouk ؛

لاستلام المبلغ نقدا أو عينا ذهبا وسنا Senna أو رقيقا . ويطلق على هذا المندوب اسم بك النوبة Bey el-nobe . وعندما يغادر هذا المندوب طرابلس فى شهر نوفمبر من كل عام يصطحب معه كل التجار المسافرين ليكونوا تحت حمايته ، وسوف أستفيد من هذه الفرصة عند السفر من طرابلس الى مرزوق .

والحاكم الحالى هو السلطان محمد بن السلطان منصور ، ويختم السلطان محمد مراسلاته بختم كبير يحمل نقش اسمه المذكور آنفا ، الا أن هذا السلطان عندما يكتب لباشا طرابلس ، يستخدم فى مراسلاته ختما أصغر حجما ليس عليه لفظ « سلطان » وانما مجرد « شيخ » .

وعرش فزان وراثى فالعرش ينتقل مباشرة من الأب للابن . وان كانت هناك استثناءات ، فالابن الأكبر يرث عرش أبيه لكن ان كان ابن الأخ هو الأكبر سنا انتقل العرش اليه وتم تجاوز الابن ، ويؤدى هذا الوضع الأخير أحيانا الى صراعات دموية ، فقد يكون ابن السلطان المتوفى يافعا يستطيع ادارة شئون الحكم رغم أنه أصغر سنا من ابن عمه وريث العرش وقد يكون لديه الرغبة فى تولى السلطنة ولديه من الأتباع بحكم وضعه وصلاته السابقة ، فيشرع فى الاعتراض على قانون وراثة السلطة الآنف ذكره ، وفى هذه الحال يحسم السيف النزاع .

ويقع قصر السلطان أو بالأحرى بيته بين متاريس قلعة مرزوق ويعيش هناك منعزلا ، فليس من حاشية حوله سوى الطواشية (الخصيان) الذين يقومون على حراسته . ومكان حريم السلطان قريب منه وهو — أى السلطان — لا يدخل المكان المخصص للحريم،وانما يستدعى المرأة التى يرغب فى رؤيتها فى أى وقت يشاء الى مقر اقامته ، ويتكون حريم السلطان من السلطانة التى يجب أن تكون — وفقا لنظام الامبراطورية أو السلطنة — من أسرة أشراف وادان Wadan أو زولا Zuila وحوالى أربعين جارية (من الرقيق) اللائى يمكن بيعهن واحلال جوار أخريات بدلا منهن ، وذلك اذا لم ينجبن أولادا للسلطان أو لم يكن جذابات بما فيه الكفاية .

وثمة موضع منعزل داخل حدود القلعة ليدخل اليه كل من يحضرون لمناقشة الأمور العامة ، وثمة ممر ضيق طويل يخرج من هذا الموضع ويؤدى الى باب يفضى الى القاعة الرئيسية للسلطان ، ويتم الاعلان عن فتح هذا الباب بقرع الطبول ، فقرع الطبول اذن يعد بمثابة اشعار للحاضرين بأنهم على وشك الدخول فى حضرة السلطان ، ولا يفتح هذا الباب لجمهور

الراغبين في مقابلة السلطان الا ثلاث مرات في اليوم . وبالنسبة للداخلين على السلطان بقصد تقديم أنفسهم ، أو بقصد عرض مشروعاتهم أو انجاز أعمال مشتركة فانهم يمرون في الممر الضيق الطويل بين صفوف من العبيد ، وهم يكررون الجملة الآتية : «عسى الله يطول عمر السلطان» . وعند الوصول الى الباب يظهر السلطان في مواجهتهم جالسا على كرسي عرشه وهو كرسي من الطراز القديم ذو ذراعين ، على بعد خطوات . وعلى الشخص القادم أن يقدم نفسه بأن يقترب ويقبل يد السلطان ويرفع يده ليلمس بها جبهته (جبهته هو لا جبهة السلطان) . ثم يعيدها ويركع أمام حضرة السلطان ثم يسمح له بعرض حالته وأن يعرض أمره بلغة واضحة ، وان كان عليه أن يراعي عند حديثه أن يكرر عبارات على شاكلة « الله يطول عمرك » و « الله يحمي السلطنة »وجرى العرف أن يقدم كل من يمثل أمام السلطان هدية صغيرة (*) . ولا يظهر السلطان خارج أسوار القلعة الا أيام الجمع والأعياد ، حيث تحيط به حاشية ، ففي أيام الجمع يذهب للمسجد الكبير ممتطيا صهوة جواده ، أما في بعض الأعياد فانه يخرج من المدينة الى السهل المحيط بها ، فيحيط به مواطنوه ويرقصون بخيولهم حوله ويستعرضون مهاراتهم في الفروسية واطلاق النار .

وتتكون حاشية السلطان أو موظفوه الرسميون من الكاليديما Kaledyma وهو الوزير الأول ، والكيجوما Keijumma وهو الوزير الثاني وجنرالات قواته العسكرية وعدد من العبيد السود وقليل من العبيد البيض وهؤلاء العبيد البيض يسميهم المسلمون مماليك . ويجب أن يكون الوزير الأول (الكاليديما) والوزير الثاني (الكيجوما) من الأحرار بالمولد وعلى أية حال ، فان الطبقة التي ينتميان اليها ليس لها الا نفوذ قليل في الوقت الحاضر فكل المصالح والسلطة والنفوذ محصورة في أيدي المماليك الذين هم في معظمهم من الأوربيين : يونانيون ، وجنويون، أو من سلالة اليونانيين والجنويين ، أما العبيد السود فيتم شراؤهم وهم

(*) هذه العادة نفسها (تقديم هدية للحاكم عند طلب الحديث اليه) موجودة لدى الشعوب الوثنية في القارة الافريقية (راجع ترجمتنا لرحلة فاسكو داجاما وتقرير دون سانتوس . الهيئة العامة للكتاب ـ الالف كتاب الثاني ـ ١٧٠ ، ص ص ١٠٠ ، ١١٠) ، وقد نص القرآن الكريم على ان المسلمين كانوا يفعلون الشيء نفسه عند الحديث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فترة من الفترات ثم نسخ هذا الاجراء اى الغى ، والمعنى هنا ان الاسلام نسخ او ابطل تقليدا وثنيا ظل معمولا به طوال الحضارات السابقة عليه ، وما نجده في سلطنة فزان الاسلامية دليل على ان التاثيرات الوثنية تسللت بشكل او باخر اليها ـ (المترجم) .

صبية صغار ويتم تعلمهم وفقا لنظم المسلمين ، ويصل بعض هؤلاء العبيد الى نفوذ كبير من خلال علاقته الوثيقة بالسلطان •

وفيما يتعلق بلباس السلطان ، فانه يرتدى فى الأعياد والمناسبات الرسمية ثوبا أبيض واسعا على نسق أثواب السودان وهذا الثوب السلطانى مطرز بالفضة والذهب وأحيانا يكون الثوب السلطانى من قماش الساتان المطرز بالفضة ، وتحت هذا الثوب يلبس السلطان الملابس المعتادة لأهل طرابلس ، الا آن أكثر ما يلفت الانتباه فى لباس السلطان هو عمامته التى تمتد من الأمام الى الخلف ياردة كاملة ؛ أما عرضها فلا يقل عن ثلثى ياردة •

ويأتى دخل السلطان من الضرائب المفروضة على البساتين والأرض الزراعية ومن الغرامات والمصادرات • ويتسم العبيد المعينون لجباية هذه الضرائب والغرامات بأقصى درجات العنف والعدوانية اذا لم يتلقوا رشوة • والدخل الأكبر الذى يدخل خزانة السلطان يأتى من الرسوم المفروضة على التجارة الخارجية والتى تدفعها القوافل المارة • فالقافلة القادمة من القاهرة تدفع عن كل حمل بعير ما بين ستة دولارات الى ثمانية • أما القوافل القادمة من بورنو والسودان فتدفع عن كل عبد معروض للبيع مثقالين two matkals ويحصل السلطان أيضا على عوائد أراضى الدولة (ممتلكات الدولة أو أراضى التاج) كالملاحات وبحيرات النترون ، كما يحصل على عوائد البساتين السلطانية والغابات (كذا) ، وقد أضاف السلطان الحالى الى ما يدخل خزانته موردا آخر كبيرا بارساله غارات سلب ونهب ضد جماعات الطيبو Tibboes من قبيلة برجو Burgu • أما الانفاق العام فأهم بنود اعاشة السلطان وحاشيته والمقيمين فى قصره • ويعيش القاضى وجهاز العدالة ذو الطابع الدينى وموظفو الحكومة الكبار ، على الأموال التى تدرها بساتين النخيل الممنوحة لهم ليتعيشوا منها دون أن يمتلكوها Usufruct ، أما أمراء الأسرة المالكة فيعيشون على ما تدره أراض ذات مساحات مناسبة ، بالاضافة الى قدر من القمح يتسلمونه أسبوعيا من مخازن السلطان ومما يفرضونه على الناس بحكم سلطتهم ويتولى عبيدهم جمعه ولا شك أن الظلم والاضطهاد هما النتيجتان الطبيعيتان للسلطة الجماعية ولوسائل القمع •••

ويدير القاضى العدالة وفقا لأحكام الشريعة الاسلامية وللعادات والتقاليد المتوارثة ، أما فيما يتعلق بالقضايا الجنائية فالحكم فيها نهائى لا رجعة فيه ويمكن الرجوع بشأنه للسلطان ، واذا غاب القاضى حل كاتبه (نائبه) مكانه •

ومنصب القاضي منصب وقور وهو متوارث في أسرة بعينها ، منذ تولت أسرة السلطان الحالي الحكم فاذا شغر منصب القاضي بموت أو غيره . اختار السلطان من الأسرةنفسها من يشغل المنصب ، شريطة أن يكون متعلما أو بألفاظ أخرى شريطة أن يجيد القراءة والكتابة .

وبالاضافة للقاضي ، فان كل أمراء البيت السلطاني (الملكي) لهم الحق في اصدار الأحكام وايقاع العقاب البدني .

ويتولى القاضي في الوقت نفسه رياسة الهيئة الدينية وله نفوذ كبير ، ويليه في الرتبة الامام الكبير the iman kbir (في النص ايمان كبير ولعله خطأ مطبعي) (*) ...

* * *

تعليق المحرر :

لقد خطط هورنمان ليصل الى بورنو مع قافلة التجار ، وكان آخر خطاب أرسله يحمل تاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٠٠ ، ويظهر أن هورنمان وصل النهر النيجر عند مدينة ساي Say وتتبع مجراه حتى نوب Nupe حيث لاقى حتفه .

* * *

آخـر خطاب أرسله هورنمان

مرزوق ٦ ابريل سنة ١٨٠٠

سـيدى :

ان قافلتنا ستبدأ رحلتها الى بورنو وسألحق بها في المساء . وأملي كبير في أن أنجح في تحقيق هدفي فصحتي ممتازة وقد تعودت تماما على المناخ في هذه الأنحاء ، وتعرفت بما فيه الكفاية على عادات رفاق السفر وطباعهم وأصبحت أتحدث العربية وشيئا من لغة أهل بورنو ، كما أنني مسلح تسليحا جيدا ولا تنقصني الشجاعة ، بالاضافة الى أنني تحت حماية اثنين من الأشراف .

(*) ما بين القوسين تعليق من المترجم .

وقد غادرت القافلة السودانية هذا الموضع (الذى تنطلق منه قافلتنا) منذ حوالى شهر وقد أحسنت ، لأننى لم ألتحق بها فمنذ فترة شوهد عدد من الطيبو Tibbo يحومون وقد ظهر عزمهم على مهاجمتها (القافلة السودانية) ٠

ولأننى أول رحالة أوربى يقطع مسافات شاسعة فى هذه الأنحاء ، فاننى لن أضيع مكتشفاتى هباء بتعريض نفسى لمخاطر الاقامة الطويلة وغير الضرورية فى أى مكان وأقترح ألا أقيم فى بورنو لأبعد من شهر سبتمبر ، وبعدها سأتقدم الى كاشنا Cashna مع القافلة الكبيرة التى تنطلق فى حوالى هذا الوقت من كل عام من بورنو الى السودان ٠

ولا أستطيع أن أبين خططى المستقبلية عند مغادرتى السودان أو كاشنا ، لكن يمكنكم الثقة فى حسن هدفى ورغبتى فى أن أحوز على رضى الجمعية (الملكية) رضاء كاملا ٠

أعتبر هذا الخطاب هو آخر خطاب أرسله لكم هذا العام أو ربما كان آخر خطاب أرسله لكم ، قبل تمكنى من الوصول لبعض موانىء الساحل الأفريقى ٠ لقد أرسلت لكم من طرابلس فى الرابع والعشرين من شهر مارس خطابا مطولا وكنت واثقا ـ لمحاسن الصدف ـ أنه بلاشك قد وصل اليكم (*) ٠

وبالاضافة لما ذكرته بخطابى المؤرخ فى ٢٤ مارس ، أضيف أن الناس هنا يحافظون على عيون الأطفال عند الاصابة بمرض الجدرى باستخدام خلطة مكونة مما يسمونه سمسوك Samsuc (وهو التمر هندى) والزونبولا Zurenbula Zigollen (وهو البصل) ولهذا الدواء مفعول طيب كما قيل لى ٠

وقد استفسرت بشكل خاص هنا عن الاضطرابات الجنسية (عدم الانتظام الجنسى Venereal disorders) ، ويمكننى أن أجزم مؤكدا ما سبق لى أن كتبته من أن الملح والحنظل Coloquintida يعدان علاجا لهذا المرض فى هذه المنطقة ، ويستخدمان (الملح والحنظل) على النحو الذى وصفته ؛ وتؤكد المعلومات التى جمعتها أن أهل فزان لم يتعرضوا للاصابة بالأمراض الجنسية أكثر من مرة واحدة طوال حياتهم انه أمر غريب لأنه

(★) تعليق المحرر : الخطاب المشار اليه لم يصل ٠

على أية حال ، هناك فرق كبير ، نظرا لطبيعة هذا المرض ، بين الجدرى الذى وصل الى هنا عن طريق قافلة السودان وقافلتى طرابلس والقاهرة ، ولم يحدث (أو نادرا ما حدث) أن يصاب المرء بهذين النوعين من الأمراض واحدا اثر الآخر فى حياته ٠

ومنذ أيام تحدثت مع رجل كان قد رأى السيد برون Brown فى دارفور ، وقدم لى هذا الرجل معلومات عن البلاد التى زارها ٠ وقد أخبرنى أن الصلة بين النيجر والنيل لم تكن موضع شك،وان كانت الصلة بين هذين الجزءين قبل الموسم للطير كانت قليلة جدا ، حيث يكون النهجر فى موسم الجفاف هادئا غير عامر بالمياه reposing .

ومنذ وقت غير بعيد كان أهل برنو يمارسون العادة نفسها التى كان أهل مصر يمارسونها فى العصور القديمة ، وهى القاء فتاة قد اتخذت كامل زينتها فى نهر النيجر ٠

أما عن استفساراتى عن السودان وعلاقته بالساحل الغربى والجنوبى الغربى لأفريقيا ، فهو يزيد عن المسافة بين فزان والسودان باثنتى عشرة مرة ٠

سأتذكركم دائما ، وأؤكد لكم تقديرى لكم يا سيدى ٠

المطيــع
فردريك هورنمان :

[المرسل اليه] سير جوزيف بانكز

رئيس الجمعية الملكية

* * *

المحرر :

وقد قدم الميجور رنيل Rennell ، أحد الرواد الجغرافيين فى هذا الوقت ، نظرية مؤداها أن النيجر يتلاشى (ينتهى) فى مستنقعات ونجارا Wangara حيث يختفى بفعل البخر ٠٠

وقد بعث السيد هورنمان الى الوجود مرة أخرى فكرة اتصال نهر النيجر بنهر النيل ، لذا كان من الضرورى فحص المعلومات الجغرافيا التى

قدمها السيد برون Broune والسيد هورنمان فحصا دقيقـا ، بالاضافة لدراسة ما كتبه الجغرافي الادريسي للتأكد من عدم احتمال هذا الاتصال . لقد سمع هورنمان من أشخاص كانوا قد سافروا الى دارفور أن النيجر (جوليها Joliba) يمر جنوب دارفور حتى النيل الأبيض ، ومن المؤكد أن هيرودوت جمع معلومات مشابهة ، لكن المؤكد أيضا أن البشر الذين ناقشهم السيد برون في دارفور لم يشيروا الى اية صلة بين النيل والنيجر ، بل على العكس لقد أكدوا أن النيل الأبيض ينبع من جبال صوب الجنوب وأكدوا أن المياه بين دارفور وهذه الجبال تجرى نحو الغرب وتسمى – أى هذه الجبال – قمرى Kumiri أو Komri وتعنى جبال القمر التى اعتبرها بطليموس Ptolemy والجغرافيون العرب رأس النيل ...

* * *

تعليقـــات المترجم

(١) **يقول فيج :**

بعد أن غزا الاسبان جزر الهند الغربية أبيد السكان الأصليون تقريبا بسبب الغزو وبسبب الامراض الجديدة التي وفدت مع الغزاة الغربيين وبسبب مشاق العمل في مناجم الذهب ... وسرعان ما مد الأسبان نشاطهم ، وفي منتصف القرن السادس عشر امتلكوا مناجم الفضة في المكسيك وبيرو وهي أغنى مصادر المعادن النفيسة التي ملكتها أوربا .

فيج ، ج.د. تاريخ غرب أفريقيا ،ترجمة د. السيد يوسف نصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ١٣٣ .

ونقرأ في صحف مارس ١٩٩٣ (الاهرام على سبيل المثال) أزمة بين اندونيسيا واليابان ، اذ تتهم اليابان أندونيسيا بتعمد اصابة اليابانيين الذاهبين إلى اندونيسيا خاصة بالكوليرا ، ونقرأ في صحف السنة نفسها (الأهرام) اتهام الافارقة جنوب الصحراء للولايات المتحدة الأمريكية بتسريب فيروس الايدز من معامل أبحاثهم في افريقيا . وبصرف النظر عن صحة هذه الاتهامات ، فان استخدام الامراض أو تعمد نشرها في الحروب والصراعات الدولية أمر وارد ، بصرف النظر ايضا عما في ذلك من خسة ونذالة وغير ذلك من الصفات اللائقة .

(٢) أوردت كل الكتب التي تعرضت لأسباب تأخر الكشف الجغرافي الأوربي أسباب هذا التأخر ، وقد رجعنا للكتب التالية لتوفرها بين أيدينا :

- شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها . القاهرة ، الانجلو ، ١٩٨٠ ، صص ١٧ ـ ٢٧ .
- صفي الدين محمد : أفريقيا بين الدول الأوربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، صص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٣) بيرتون رتشارد : رحلات بيرتون لمصر والحجاز ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ ، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ج ٢ (سلسلة الألف كتاب الثاني) .

(٤) بيتس ، جوزيف : رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) لمصر والحجاز . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الألف كتاب الثاني) ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ .

(٥) فارتيما ، لودوفيكو : رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ (سلسلة الألف كتاب الثاني) . ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ .

(٦) غرب أفريقيا هو موطن الزنوج الحقيقيين أو العناصر الزنجية النقية ، ويمتد هذا الاقليم (غرب أفريقيا) من مصب السنغال عند خط عرض ١٦° درجة شمالا تقريبا حتى الحدود الشرقية لنيجيريا ، ويعرف هذا الاقليم بالسودان الغربى ·
السيد يوسف نصر : تعليقه على كتاب فيج ، ج· د· : تاريخ غرب أفريقيا · القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٢ ، ص ١٥ ·

(٧) ابراهيم طرخان : امبراطورية غانا الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، صفحات متفرقة ·
فيج ، ج·د : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ ·

(٨) راجع جهود الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية فى كشف النيجر ورحلة هوجتون فى هذا الكتاب ·

(٩) الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ صرص ١٢٨-١٢٩ (مطبعة الشعب) ·

(١٠) تنتهى هذه المجموعة عن أشهر الرحلات الى غرب أفريقيا - اذن - برحلة مارى كنجسلى ١٨٩٣ ، وقد أورد المحرر رحلتها كمثال على الرحلات فى مرحلة التكالب على غرب أفريقيا بشكل عام وهى الفترة التى حددها محرر هذه المجموعة بالفترة من ١٨٠٠ الى ١٩١٤ ، وان كنا قد حددنا نحن مرحلة التكالب هذه فى ثنايا الدراسة ففى الفترة من ١٨٨٤ الى ١٩١٤ أى بعد مؤتمر برلين الشهير مباشرة ·

(١١) راجع تفصيل ذلك فى الدراسة التى الحقها المترجم بترجمته لرحلة فاسكو دا جاما · القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة الألف كتاب الثانى ، ١٩٩٥ ·

(١٢) فيج ، ج·د : مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ ·

(١٣) Duffy, J : Portuguese Africa, London, 1959, pp. 7-8.

(١٤) عبد الرحمن عبد الله الشيخ : التطورات التعليمية والثقافية فى أفريقيا (نموذج غانا) الرياض ، عالم الكتب ، ١٩٨٤ ، ص ٢ ·

(١٥) راجع الدراسة التى الحقها (د· عبد الرحمن عبد الله الشيخ) برحلة فاسكو داجاما وتقرير دوز سانتوس القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ (سلسلة الألف كتاب الثانى) وانظر أيضا مقدمة J. H. Plumb لكتاب :
West African Explorers, Selections Chosen and edited by C. Howard. London, Oxford University Press, 1951.

(١٦) عبد الرحمن عبد الله الشيخ : التطورات التعليمية والثقافية فى أفريقيا (نموذج غانا) ، الرياض ، عالم الكتب ، ١٩٨٤ ، ص ٣٩ ·

(١٧) المرجع نفسه ، صرص ٣٩ - ٤١ ·

(١٨) فيج ، مرجع سبق ذكره ، ١٣٤ ·

(١٩) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، ط ٢ ، القاهرة ، الأنجلو ، ١٩٨٠ ، ص ٢٦٢ .

(٢٠) McWillcam, H. : The development of Education in Ghana.. London, William Clowes, 1959, pp. 8-9.

Foster, P. : Education and Social Change in Ghana, London, Routledge & Kegan Paul, 1965., p. 39.

عبد الرحمن عبد الله الشيخ : التطورات التعليمية والثقافية فى أفريقيا ، الرياض ، عالم الكتب ، ١٩٨٤ ، ص ص ٤٠ ــ ٤١ .

وبمجرد أن استولى الهولنديون البروتستنت على هذه القلعة (المينا) انتهى ــ مؤقتا ــ التبشير الكاثوليكى ليحل محله التبشير البروتستنتى .

وفى الفترة من ١٦٢٨ الى ١٦٤١ بذل المبشرون الفرنسيون جهودا لنشر المسيحية فى غرب أفريقيا ووصل بهم الأمر الى انشاء مدرسة فى أكسيم Axim .

(٢١) راجع مقتبسات من خطابات وليم بوسمان فى الباب الأول من هذا الكتاب ــ المرحلة الثانية .

(٢٢) McMillan : loc cit., Parlimentary papers 1872, p. 435. (Con-(vention between Her Majesty & the King of Netherland, for the transfer to Great Britain of he Dutch Posession .., Signed at Hugue 25 February 1871.

(٢٣) الكنيسة الورافية أو كنيسة الاخوة المتحدين ، ظهرت سنة ١٤٥٧ وانفصلت عن كنيسة روما سنة ١٤٦٧ ، وطقوسها تتسم بالبساطة ، ولهم مراكز تبشيرية فى الولايات المتحدة .

Columbia Encyclopaedia Art:, Methodism.

(٢٤) Groves, C. : Planting of Christianity in Africa, Vol. 1, pp. 172-3.

(٢٥) Ward, W. : A history of Ghana, London, Allen, 1958, pp. 414-15.

— Watt, D.C. : A history of the World in the 20th Century and others. N.Y., Scott & forman Co., 1969, p. 102.

(٢٦) المقتطفات الواردة فى هذا الكتاب من رحلة منجو بارك ، من رحلته الأولى ١٧٩٥ والأخيرة ١٨٠٥ ــ انظر بدقة تعليقات المحررين بين النصوص .

(٢٧) شوقى الجمل : مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٦١ــ٥٦٣ .

(٢٨) استقلت غمبيا سنة ١٩٦٥ .

(٢٩) Africa on maps dating from Twelfeth to the Eighteenth century,, seventy seven Photo Copies from European maps Collections. Edited on behalf of the Deutsche Staats Bibliothek. Berlin, Egon Kelemp, p. 64.

(٣٠) Ekundare, R. Olufemi : An Economic history of Nigeria. London, Methuen, 1973, p. 28.

(٣١) عن ساو تومى ودورها راجع :

Ekundore, R. Olufemi An Economic history of Nigeria, London, Metheun, 1972, p. 28.

وانظر ايضا :

د· عبد الرحمن عبد الله الشيخ : حيازة الأرض فى نيجيريا فى القرن التاسع عشر ، الرياض ، دار العلوم ، ١٩٨٤ ، صص ١٦٠ ـ ١٦١ ·

(٣٢) فيج ، مرجع سبق ذكره ، صص ١٣٥ـ١٣٦ ·

(٣٣) جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرر ، ص ١٢ ·

سليمان حزين : صفحات من تاريخ الاستعمار ، ص ١١ ·

(٣٤) راجع رحلة جويسون فى هذا الكتاب ، ص ٣٧ ـ ٥٠ ·

(٣٥) رحلة جويسون فى هذا الكتاب ، ص ٣٧ـ٥٠ ·

(٣٦) رحلة جويسون فى هذا الكتاب ص ٣٧ ـ ٥٠

(٣٧) رحلة جويسون فى هذا الكتاب ص ٣٧ ـ ٥٠

(٣٨) راجع الدراسة والتعليقات فى ترجمتنا لرحلة فاسكو داجاما وتقرير دوز سانتوس ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة الألف كتاب الثانى ، ١٩٩١ ·

(٣٩) رحلة بوسمان فى هذا الكتاب ـ الباب الأول ، ص ٥١ وما بعدها ·

(٤٠) رحلة بوسمان ، ص ٥١ وما بعدها ·

(٤١) رحلة بارك فى هذا الكتاب ، ص ٧٢ وما بعدها ·

(٤٢) رحلة بارك ، ص ٧٢ وما بعدها ·

(٤٣) رحلة بارك ص ٧٢ وما بعدها ·

(٤٤) رحلة جويسون ، ص ٣٧ وما بعدها ·

(٤٥) رحلة هوجتون ، ص ٦٩ وما بعدها ·

(٤٦) رحلة بارك ، ص ٧٢ وما بعدها ·

(٤٧) راجع : بول كولز : العثمانيون فى أوروبا ، ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، المقدمة ص ٠ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثانى) ٠

(٤٨) راجع الدراسة التى ألحقناها بترجمتنا لرحلة فارتيما (الحاج يونس المصرى) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة الألف كتاب الثانى ٠

(٤٩) راجع مقدمة المترجم ٠

(٥٠) يقول توماس أرنولد فى كتابه الشهير (الدعوة الى الاسلام) : « والواقع انه حيث دخل الاسلام وجدت المدارس التى تعلم القرآن والشريعة ، وهذا باعتراف المسلمين أنفسهم ، ففى التماس مقدم لحل شركة سيراليون أمر مجلس العموم البريطانى بطبعه فى ٢٥ مايو ١٨٠٢ وهذا نصه : « منذ مدة لا تزيد عن سبعين عاما استقرت جماعة صغيرة من المسلمين فى بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلا وسموها بلاد الماندنجو ، وكما هى العادة عند فقراء هذا الدين (الاسلام) فتحوا مدارس (كتاتيب) تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التى جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) وجروا على عادات المسلمين وخاصة فى عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق ، وأقاموا لأنفسهم شرائع استخلصوها من القرآن (الكريم) واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان ٠ وعلى الرغم من وجود كثير من الاضطرابات فقد جلبوا للبلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيا كما جلبوا اليها الاتحاد والطمانينة ٠٠ وانتقل اليهم شيئا فشيئا كل النفوذ ٠٠ والذين تعلموا فى مدارسهم يسيرون نحو الثراء والقوة فى البلاد المجاورة للماندنجو ٠٠ وهناك رؤساء ينتحلون الأسماء التى اتخذها المسلمون لأنفسهم لما يقترن بالأسماء الاسلامية من توقير واحترام ويبدو أن الاسلام قادر على الانتشار فى كل المنطقة حول مستعمرة الماندنجو حاملا معه المزايا التى تتفوق على خرافات الزنوج » ٠

ـ توماس أرنولد : الدعوة للاسلام ٠ ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ٠ القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧٠ ، ص ص ٣٣ ـ ٣٤ ٠

أما عن مناهج التعليم الاسلامى فهى لا تخرج عن تدريس القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعض الحساب ، وهو المنهج الذى أشار اليه القابسى ، أبو الحسن على بن خلف فى كتابه : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحوال المعلمين الذى نشره د٠ أحمد فؤاد الأهوانى ، بذيل كتابه التربية فى الاسلام ـ القاهرة دار المعارف ، ١٩٦٧ ٠

(٥١) التى تحل محل العملة ، وان كان سكان غرب افريقيا قد عرفوا ـ فيما بينهم ـ التعامل بقطع الحديد Iron Rod والأصداف الصفراء (الكوارى) Cowries ٠ والأساور Bracelets والمانيلا Manilla وهى حلقات نحاسية مفتوحة وغير تامة الاستدارة ، فمثل هذه الأشياء كانت تستخدم فى دفع الضرائب ، وكان للبرتغاليين دور فى تعميم الأصداف الصفراء (الكوارى) والمانيلا كعملات فى غرب افريقيا ، وكان العرب هم أول من عرف أهل البلاد استخدامها كعملة ولكن البرتغاليين كان لهم فضل نشرها وتعميمها حتى انها ظلت سائدة كعملة حتى القرن

التاسع عشر . وعن طريق التجارة عبر الصحراء دخلت بعض العملات الأجنبية الى غرب افريقيا ، وفيما يتعلق بالعبيد كعملة ، فقد كان العبد الذكر فى القرن السابع يساوى ٤٠٫٠٠٠ و ٦٠٫٠٠٠ صدفة (كوارى) ، وهذا هو المبلغ الذى كان يدفعه الاوربيون للوسيط الجالب للعبيد من الداخل .

Okundare, R. Olufemi : An Economic History of Nigeria, p. 38, 39, 45, 48.

وانظر أيضا :

عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، حيازة الأرض فى نيجيريا فى القرن التاسع عشر ، الرياض ، دار العلوم ١٩٨٤ ، صص ٧٢ـ٧٣ .

(٥٢) عن ساحل الذهب وقلعة المينا ، راجع الخريطة الملحقة بمقدمة الترجمة ، ص

(٥٣) راجع الخريطة كما فى الحاشية السابقة

(٥٤) من الواضح أن المينا كلمة عربية هى الميناء .

(٥٥) برميل أو تون Tun وحدة سعة (حجم) تساوى ٢٥٢ جالونا . عن معجم المورد .

(٥٦) الاشانتى Ashanti أحد فروع شعب الأكان ، ويعتبر الأكان من حيث العدد أوضح الظواهر اللغوية والثقافية فى دولة غانا الحالية ، وفى سنة ١٩٤٨ كانوا يشكلون ٤٤٪ من السكان ومن الناحية اللغوية يمكن تقسيم الأكان Akan الى قسمين :

ـ الناطقون بلغة انى بول Anyi-Baule

ـ الناطقون بلغة توى Twi

وبالنسبة للقسم الأخير ، فانه يضم بين جنبيه مجموعتين كبيرتين هما الاشانتى Ashanti والفانتى Fanti ، وهما يمثلان اكثر من نصف العدد الاجمالى للأكان ، ويحتل الأكان المنطقة الجنوبية والوسطى من غانا الحالية .

Foster, P. Education & Social Change in Ghana, pp. 18.

وانظر أيضا :

عبد الرحمن عبد الله الشيخ : التطورات التعليمية والثقافية فى افريقيا ، الرياض ، عالم الكتب ، ١٩٨٤ . صص ١٢ ـ ١٣ .

(٥٧) راجع مقدمة المترجم .

(٥٨) راجع مقدمة المترجم .

(٥٩) تكتبها الكتب العربية مترجمة (بفتح الصاد وتسكين الواو وفتح الصاد) أو (صوص) ومن ذلك ما كتبه : محمد بلو : انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور . القاهرة . وزارة الأوقاف ، ١٩٦٤ . لكننا فضلنا نقل اللفظ بشكله الأوربى لشيوعه .

(٦٠) مدينة شهيرة فى نيجيريا الحالية ـ انظر خرائط الكتاب ·

(٦١) أعتقد أن الأحجبة والتعاويذ والتمائم شائعة فى كل انحاء افريقيا سواء باسم دوميني Domini أو جريجى grigi أو فتيش Fetich ··· الخ ـ (المحرر) ·

(٦٢) أصول الفولانيين أو الفولة (بفتح الفاء والواء) غامضة وغير محققة على وجه اليقين ، لدرجة أن بعض الباحثين يذكر « أن احدا لا يعرف من اين جاءوا » بل أن التقرير الرسمي الصادر عن وزارة الاعلام النيجيرية سنة ١٩٦٣ يشير الى أن الفولانيين ربما جاءوا من شمال أفريقيا وسواحل البحر المتوسط ، دون جزم بذلك » ·

ويقول علماء الأجناس ومن بينهم توكسير Tuxier ان الفولانيين من الحاميين الذين جاءوا من شرق أفريقيا ، ويحدد فانديلير أكثر فيقول : انهم من سلالة قبائل الجالا Galla المنتشرة فى جنوب الحبشة ، وقد وصلوا الى حوض النيجر خلال تجوالهم فى أعمال الرعي ، وزعم بعض الكتاب أن أصلهم من الملايو · وقال آخرون انهم يرجعون الى الهنود أو الفينيقيين ، ويشبه تمبل Temple أحد حكام نيجيريا فى العهد الاستعمارى الانجليزى شباب الفولانيين بصور الهكسوس التى صورها المصريون القدماء وهم فى سن الكهولة يشبهون اليهود ، وذكر دولافوس Delafosse وجاكسون G. Jackson انهم ساميون ويرجعون فى أصولهم الى اليهود السوريين ، وأضافوا أن جالية يهودية كانت تقيم فى واحة توات جنوب الجزائر ابان حركة التوسع الاسلامى فى شمال أفريقيا خلال القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ثم تحركت حتى وصلت الى تمبكتو على ضفاف النيجر ومنها اتجهت غربا الى فوتاجالون وأراضى السنغال ، حيث اختلط أفرادها بالسكان السود · وعند الفولانين أسطورة مؤداها أن جدهم يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام وأنهم هاجروا من أرض كنعان الى مصر وأنهم تعرضوا لاضطهاد فرعون لثرائهم ونشاطهم الاقتصادى ، فهاجر بعضهم شرقا وهاجر بعضهم غربا وسموا أنفسهم فوق Foqth وتعنى فى الديموطيقية المصرية (يهرب) · وعلى أية حال فأغلب العلماء يرجحون الأصول الحامية لهم وربما كانوا من البربر ·

ـ ابراهيم طرخان : امبراطورية الفولانيين الاسلامية ، بحث نشر فى مجلة كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود ، المجلد السادس ١٩٧٩ (١٤٠٠) ·

ـ وانظر أيضا ملخصا للبحث آنف الذكر فى :
عبد الرحمن عبد الله الشيخ : المدخل الى علم التاريخ · القاهرة ، المكتبة الاكاديمية ١٩٩٥ ، ط ٢ ، الباب الخامس ·

(٦٣) لعلها قرى العربية ·

(٦٤) يجفف اليقطين أو القرع كبير الحجم ويفرغ ويستخدم كأطباق وأوان ·

(٦٥) تعليق من المترجم بين أقواس ·

(٦٦) نبات الصقلاب باسم إله الطب المشهور — عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ·

(٦٧) الأخبار باللغة المحلية هى كينيناتا Kinnenata (المحرر) ·

(٦٩) أى القرعة المفرغة التى يملؤها الشارب بالجعة (البيرة) وهى بمثابة كأس ·

(٧٠) قد تكون بركة العربية ·

اقرأ في هـذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلي
الجغرافيـا في مائة عام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليبـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـرألن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرونه
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولـكف
الهوية القومية في السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال في النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بيـل شـول وادبنيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب في الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم في مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء	
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ ليلوار تشامبرز رايت
اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج. دادلى انـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د. جوهان دورشنر
حـرب الفضـاء	طائفـة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. السـيد عليـوة
الميـكروكمبيـوتر	د. مصـطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضـل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل. باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابريل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطـونى دى كرسـبنى
كتـابة السـيناريو للسـينما	دوايت سـوين
الزمن وقياسـه	زافيتسـكى ف. س
اجهـزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـربة اليـونانية	س. م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمـد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د. سميسـون ونورمان د. اندرسون
الشارع المصرى والفـكر	د. انور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روسـتو
تبسيط الكيميـاء	فـريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهـارت
التـذوق السـينمائى	آلان كاسـبيار
التخطيط السياحى	سـامى عبـد المعطى
البـذور الكونيـة	فـريد هـويل
	شـاندرا ويكـراما ماسـينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسـين حلمى المهندس
الهيـروين والايدز	روى روبرتسـون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشـم النحـاس

صور افريقية :	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
التغذية في البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية

السينما العربية	اعداد / موتى براج وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بول كولز
صناع الخلود	موريس بيير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج . بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار/ د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو توه
حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ . ج . ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد ف . بيرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز متز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جزل

افريقيا الطريق الآخر	بادى أونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ جـ)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد ويونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ جـ)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب . ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين . سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ جـ	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ جـ	عبد العزيز جاويد
الفيلم التسجيلي	محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	يانكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام
الحب	د. ليوبوسكاليا
كنوز الفراعنة	ت.ج.هـ. جيمز
اطلالات على الزمن الآتي	د. السيد نصر الدين
الرواية اليوم	مالكولم برادبري
مشكلات القرن الحادي والعشرين	يوسف شرارة

نظرية الأدب المعـاصر	ديفيد بشنبدر
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى	ايفور ايفـانس
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نورمان كلارك
تاريخ اوربا فى العصور الوسطى	هنرى بيرين
المراة الفرعونيـــة	كريستيان ديروش نوبلكور
التربية عن طريق الفن	هيربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليـام بينز
البرمجة بلغـة السى	روبرت لافور
البرنامج النووى الاسرائيلى	د. ممدوح حامد عطية
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسـون
بحثا عن عالم افضل	كارل بوبر
العـلم وآفاق المسـتقبل	اسحق غظيموف
كوننـا المتمدد	ايفـرى شـاتزمان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٦٦٧/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 4992 — 6

يضم هذا الكتاب بين دفتيه نصوصا من أكثر من عشرين رحلة لرحالة أوروبيين زاروا منطقة غرب أفريقيا منذ سنة ١٦٠٠م حتى بواكير القرن العشرين، مع تقديمات ودراسة مختصرة. والكتاب حافل بالطرائف والمعلومات المفيدة التى نعرفها للمرة الأولى، بل إن به إشارات إضافية لرحالة مصرى هو الشبينى شارك مشاركة فعالة فى كشف نهر النيجر، وجنى عليه المؤرخون فأهملوه مع أن اسمه مسجل فى محاضر الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية. وبعض رحلات هذا الكتاب تكتفى بالوصف الجغرافى لكن بعضها الآخر غاص باللمحات الإنسانية النفاذة وبوصف العادات والتقاليد، مما يجعله متعة للقارئ العام ومصدرا للاختصاصيين فى التاريخ والانثروبولوجيا والجغرافيا على سواء.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب